

عَروسُ فرغانة

تتضمن وصف الدولة العباسية و عاصمتها (سامرا)
في عهد المعتصم بالله ، و طمع الفرس في إرجاع
دولتهم : و نهوض الروم لاكتساح المملكة الإسلامية



www.kotobarabia.com



جرجي زيدان

عز و سحر فرغانة

تتضمن وصف الدولة العباسية وعاصمتها ((سامرا))
فسي عهد المعتصم بالله ، وطمع الفرس في ارجاء
دولتهم ، ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية

تأليف
عرجي زيدان

أبطال الرواية

| | |
|--------------------|--------------------|
| ✧ المرزبان طهماز | : من سراة فرغانة |
| ✧ عروس فرغانة | : جهان بنت طهماز |
| ✧ القهرمانه خيزران | : مربية جهان |
| ✧ سامان | : شقيق جهان |
| ✧ ضرغام | : رئيس حرس المعتصم |
| ✧ الأفشين حيدر | : قائد جند بغداد |
| ✧ آفتاب | : والدۀ ضرغام |
| ✧ احمد بن ابي نؤاد | : قاضي القضاة |
| ✧ بابك الخرمي | : صاحب اردبيل |

مراجع رواية عروس فرغانة

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

- | | |
|---|---|
| ★ تاريخ : ابن الاثير – المسعودي – ★ تاريخ التمدن الاسلامي | ★ تاريخ : ابن الاثير – المسعودي – ★ تاريخ التمدن الاسلامي |
| ★ البلدان لليحقوبي | ★ البلدان لليحقوبي |
| ★ سيرة الملوك | ★ سيرة الملوك |
| ★ تاريخ طبرستان لابن اسفنديار | ★ تاريخ طبرستان لابن اسفنديار |
| ★ رحلة ابن بطوطة | ★ رحلة ابن بطوطة |
| ★ معجم ياقوت | ★ معجم ياقوت |
| ★ المقدسي | ★ المقدسي |

فذلكة تاريخية

فرغانة مدينة كبيرة على حدود تركستان ، كانت عاصمة الكسورة المسماة باسمها ، وكان الفرس يسمونها «اخشيكيست» • وهي نطل على ضفاف نهر جيحون الذي يسميه العرب نهر «الشاش» ويسميه الافرنج نهر «يكسارت» والاتراك يسمونه نهر «سرداريا» •

وينتأ وين فرغانة بعد شاسع يستغرق قطعه بضعة اشهر : في السير شرقا عبر الشام فالعراق ففارس فخراسان • ثم عبور نهر سيحسون واختراق بخاري وسرقند واشروسنة للوصول الى ضفاف جيحون او نهر الشاش ، بعد اجتياز كثير من الجبال والصحارى والسهول والودية؛ ومشاهدة أمم شتى فيما بين سيحون وجيحون . تختلف لغة وعصرا ودينا • ناهيك بالمفاوز التي يعسر سلوكها ، وكثرة فطاع الطرق فيها . وأكثرهم من بدو التركمان وهم اهل خشونة وسطو •

وقد استطاع العرب بعد الاسلام ان يفتحوا الشام والعراق ومصر

وفارس في بضع عشرة سنة . لكنهم لم يستطيعوا الوصول الى فرغانة الا في أواخر القرن الاول للهجرة . وكان فتحها على يد قتيبة بن مسلم فاتح تركسان سنة ٩٤ هـ . ولم يستعمرها العرب او يقيسوا بها الا بعد ذلك بأعوام عديدة . وكانت تابعة لعامل خراسان في تأدية الجزية والخراج . وبرغم ما تقدم ذكره من المفاوز والجبال في الطريق الى فرغانة ، كان المسافر اليها اذ ينتهي بعد تلك الاخطار الى نهر جيحون يسير ما بقي من الطريق حتى مدينة فرغانة على ضفة النهر الشرقية ، فيرى هنالك الاسواق والقصور ذات الاسوار العالية ، ويرى الارباح والبساتين على ضفتي النهر مسندة في ارض مسوية مساحتها ثلاثة فراسخ . ثم يرى تساليها جبلا وعرا على بعد ميل منها . ويرى وسطها قلعة عظيمة يقال لها في اصطلاح الفرس «قهندر» شيدت لتعصم بها حامية المدينة عند الحاجة . ولذلك بنيت بناء متينا بالاحجار الضخمة دون كل ابنية المدينة المتخذة من الطين . وحول القلعة سور له اربعة ابواب . نليه ارباض فسيحة ، سم سور ثان بأبواب اربعة ايضا . ويتخلل المدينة والارباض مياه جارية وحياض كثيرة . هذا الى ما يحيط بالمدينة كلها من بساتين ملتفة ونهيرات جارية تصلها بالنهر . فكانت هذه المنطقة من أنزه بلاد تركستان او ما وراء النهر .

وكان سكان فرغانة عند الفتح الاسلامي خليطا من اهل البلاد الاصلين الدين يسونهم «طاجية» . وجاعات من الفرس والهنود والأتراك وأهل الصين . وكان الفرس أرفاهم جبعا ، بل كانوا أرفى المشاركة في ذلك العصر . فكانت لهم الرياسة والسياسة والنفوذ الادبي والديني . لانهم كانوا ينقلون معهم نسلهم حيثما حلوا . وكانت لغتهم البهلوية (الفارسية القديمة) لغة الطبقة الراقية في الشرق الاقصى ، كما هو شأن اللغة الفارسية الحديثة الان . وكانت لغة اهل فرغانة الاصلين

التركية القديمة المعروفة بالشاغطائية • وكانت المجوسية دين أكثر الفرس حتى ذلك الحين •

وحينما فتح العرب فرغانة • كان يحكمها أمراء او ملوك يلقب كل منهم بلقب خاص بهم هو «أخشيد» • كما يلقب ملك الحبشة بالنجاشي، وملك الروم بقيصر ، وملك الفرس بكسرى • وكان الاخاشيد الذين يسوان أجزاء كورة فرغانة كثيرين • فلما دخلت في حوزة المسلمين وألحقوها بامارة خراسان ، لم تبق بها حاجة الى ملوكها المذكورين ، ولم يعترضهم المسلمون في دينهم او عاداتهم او شيء من أحوالهم ، فبقى أكثرهم في البلاد • يتمتعون بالسكنة والعيش الهنيء في ظل المسلمين ، ونزح بعضهم الى قلب المملكة الاسلامية في العراق ، فنقربوا الى بلاط الخلفاء وخدموهم واعتنقوا الاسلام وتولوا الاعمال ، وأشهرهم الاخشيد طنج بن جف صاحب مصر •

- ٢ -

جهان عروس فرغانة

اصبح هل فرغانة في يوم من ايام سنة ٢٢١ للهجرة وهم يتأهبون للاحتفال بالنيروز (رأس السنة) • فأخذوا في اقامة معالم الزينة ، ناصبين الاعلام الملونة فوق منازلهم ، معلقين طاقات الرياحين على ابوابها • ثم تقاطروا الى الاسواق يتعاون الالبسة الجديدة لهم ولاولادهم ، وأطباق الحلوى وغيرها من المأكول التي تكفي خلال ايام

العيد الستة •

ولو دخلت المنازل لرأيت النساء قد اوقدن النيران لاعداد الاطعمة والحلوى ، وأحسين الحمامات للاغتسال • ولرأيت الجواري مشتغلات بتزيين الاولاد والطبخ وعجن أرغفة العبد • وهي أرغفة كان يصنعها الفرس في ذلك اليوم من حنطة السنة الجديدة ليقتسوها صباح العيد متفائلين بأكلها استبشارا بخصب تلك السنة •

وكانوا يتعاملون في ذلك اليوم بالنقود الجديدة ويتهادون الحبوب الجديدة على أطباق من الفضة ونحوها ، ويطرامون بالبيض والثمار • اما الاسواق فكانت في ذلك الصباح تحفل بالمارة من الرجال والاولاد . هذا يحمل قفة وذاك ينقل سله ، وذاك يسوق حمارا او فرسا ، وكلهم يتسابقون الى المنازل او الى بيت النار ، يحملون الهدايا لاولادهم او للسويذان - كهان المجوس - وفد تصاكت مناكبهم وتصادمت اقدامهم •

ولو انك صعدت الى القلعة الكبرى (الفهندر) القائمة وسط المدينة واشرفت من سطحها على اطراف فرغانة ، لرأيتها اشبه بخريطة مرسومة على ورق او صورة ملونه • فحول القلعة مبان متشابهة من الطين كلها من طبقة واحدة ما عدا بناءين : أولهما «بيت النار» وهو الهيكل الذي يتعبد فيه المجوس • وكانت المجوسية لا تزال متغلبة هناك ، ويسمونه «كارشان شاه» • وهو رفيع العماد يظهر بارزا بين ابنية المدينة كالنخلة بين الرياحين وقد نصبوا حول سطحه رايات من الدياج طول الواحدة منها عشرات من الأذرع ، مرسله في الفضاء يلاعبها الهواء ، أكثرها خضراء اللون • اما البناء الثاني فهو «بيت المرزبان» • والمرازبة هم حكام المقاطعات في عهد الاكاسرة - وحول البيت حديقة فيها من كل فاكهة زوجان •

وهناك وراء سور المدينة امتدت الاغراس والاعشاب والرياحين
تخللها مجاري الماء وتنغى على أفنانها الاطيار .
فبينما اهل المدينة في ذلك الاحتفال اذا بسوكب جليل يخترق الاسواق
ويشغلهم عما هم فيه لفخامته وغرابته . وهو مؤلف من مركبة كبيرة
اشبه بالرفة منها بالعربة ، فوقها قبة من الفضة المموهة بالذهب قائمة
على أعمدة من الخشب الملون بينها ستائر من الديباج الازرق ، ويجر
المركبة جوادان مجلлан بالحريز المزركش ، وقد ركب السائق احدهما
وفي يده سوط يسوقهما به . وعود كبير يصوبهما به اذا عاجا عن
القصد . ويكتنف المركبة بضعة من الخصيان يركضون الى جانبيها ، وقد
أرخت الستائر على الراكبين فلا يراهم احد . على انه لم يكن فسي
فرغانة احد من الرجال او النساء لا يعرف صاحب هذه المركبة ، اذ ليس
هناك مثلهما ، وهي مركبة مرزبان المدينة ، اهداها اليه بعض اهل امراته
في بلاد القوقاز . اذ كان فارسي الاصل وامرانه جركسية من القوقاز .
وأهل تلك البلاد يستخدمون هذه المركبات احمل الخواتين في خروجهن
او أسفارهن ، وفي المركبة كل ما يحتاج اليه الخاتون من الادوات حتى
الطعام والشراب ، فكان اهل فرغانة لا تمر بهم هذه المركبة الا تشوقوا
لرؤية من فيها لعلمهم انها تقل بنت المرزبان التي يحبونها ويجاون قدرها
ويعجبون بجمالها وتعقلها . وكثيرا ما رأوها تسر بهم في مركبتها وقد
ازاحت ستائرهما فلا تحتجب عن احد . واذا وقع بصرها على احدهم
ابتسمت له ابتساما يزيد تهيئا منها .
أما في ذلك اليوم فكانت ابنة المرزبان قد أرخت ستائر المركبة ،
وأركض السائق الجوادين ، وأدرك المارة من اسرعه انه يريد الخروج
من المدينة . ثم رأوا وراء المركبة جوادين مسرجين لا يقودهما سائق ولا
يركبهما راكب ، احدهما أدهم على سرجه جعبة مملوءة بالنبال فلم يخف

على العارفين ان الجواد لصاحبة المركبة وقد تعودوا ان يروها خارجة عليه بالبسة الرجال للصيد او السباق ، ووراء الجوادين خدمة الصيد وفيهم اصحاب الكلاب والفهود . ولم يعجب اهل فرغانة لرؤيتهم معدات الصيد هذه ، لانهم يعلمون مهارة بنت المرزبان فيه ، ولكنهم عجبوا اخروجها في ذلك اليوم .

وكان بين المارة رجلا : احدهما تاجر من اهل فرغانة ، والآخر قريب له من اهل «خوقند» اتى لقضاء ايام النيروز عنده . ولم يكن رأى شيئا من ذلك قبلا . فسأل رفيقه عن صاحب هذا الموكب فقال : «هو موكب الخاتون (جهان) بنت المرزبان (طهماز) . ألم تسمع عنها من قبل ؟» قال : «سمعت في المرة الماضية عن مرزبان يقيم بهذه المدينة معتزلا وانه ذو ثروة طائلة وليس له الا ابنة سمعت الناس يتحدثون بجمالها فهل هي وحيدته ؟»

قال : «لها اخ أجرد فيبح الخلق والخلق كأنه ليس أخاها» .
قال : «لعل المرزبان من اهل هذه المدينة ؟»

قال : «بل هو غريب عنها جاءها وهو شاب منذ ثلاثين سنة او اربعين، واتخذها وطنا له فرارا من المسلمين العرب . وكان حاكما في بعض مقاطعات فارس فقاسى اضطهادا ولم يشأ ان يبدل دينه فأتى بأمواله وأقام هنا » .

فسأله : «وهل هو غني يا صاحبي ؟»

قال : «له ثروة طائلة ، وأكثر المغارس خارج فرغانة على ضفة نهر الشاش ملك له ، فضلا عن المنازل والنقود والجواهر . ولكن مالنا وله ؟» .
دعنا من ذلك وامض بنا الى سوق اللحم لنبتاع خروفا نذبحه لاولادنا» .
وكان رفيقه من محبي الاطلاع على أخبار الناس والاعتراض على اعمالهم فلم يصنع لرأي صاحبه بل قال : «فل لي كيف تخرج هذه

الخاتون من البيت في مثل هذا اليوم ؟»

فضحك رفيقه وقال : «كأنك تريدها ان تبقى في البيت لتعجن العجين وتخبزه ولتطبخ الطبخ كما تفعل نساءنا ؟! » انها يا صاحبي سيدة بيت ايها ، وقد توفيت والدتها منذ أعوام فلم يتزوج المرزبان بعدها اكراما لها ، فهو يحبها حبا جما ويعاملها كأنه عاشق يدلسل عتيقته ! »

قال : «لست أعني ان تقيم في البيت للعجن او للطبخ بل تبقى فيه لاستقبال الزائرين الذين يتوافدون على بيت ايها بالهدايا والتحف في يوم العيد » •

فقطع الآخر كلامه قائلا : «دعنا من ذلك يا صديقي وسر بنا الى السوق لنتقي خروفا نشتره» •

وكان الموكب قد جاوز الرجلين حتى خرج من المدينة الى الأرباض ، ومنها الى البساتين فوقف عند مضرب لبعض أنباع المرزبان تعودوا استقبال هذا الموكب فخفوا لملاقاته • فلما وقفت المركبة ترجل السائق ووقف بجانب الجوادين ليسنعهما من السير اثناء نزول الخاتون • وتقدم احد الخصيان للاخذ بيدها • وكانت قد فربته للطفه وخفه ظله واسسه «مرجان» • فوقف بجانب المركبة لا يتجرأ على ازاحة الستارة • فطال وفوفه دون ان تفتح او تطل الخاتون ، ولكنه سمع حديثا داخل الستارة فتاق الى معرفته ولكن رده التهيّب عن الاصغاء لسماعه • وكان رجال الموكب والأجراء في المزرعة واقفين ينتظرون ترجل جهان • فلما ابطأت قلقوا • وكان جوادها الادمم أشد قلقا منهم • فأخذ يفحص الارض بقوائمه وسائسه لا يقوى على زجره • ثم صهل كأنه ينادي صاحبه او يستعجلها ، فاذا بستارة المركبة قد أزيحت ونزلت منها امرأة كهلة في الخمسين من عمرها عليها سمات الرزاة ، وقد زادها الانقباض فتنة ،

وكانت ترتدي ثوبا يغطي كل جسمها ، وعلى رأسها وعنقها خمار احمر
لا يظهر غير وجهها • فعرف الواقفون انها القهرمانة خيزران مربية جهان
ووصيفتها ومستودع اسرارها •

وبعد ان ترجلت القهرمانة ، مدت يدها لاستقبال سيدتها فنزلت
«جهان» حتى وقفت بجانب المركبة والابصار شاخصة اليها للتمتع بجمالها
الجادب النادر • وكانت قد لبست ذلك اليوم ثوب الصيد ، وهو يتألف
من السراويل والقباء او الدراعة ، وتزملت بما يشبه العباءة من الحرير
المزركش، ولقت رأسها بعمامة أشبه بالعصابة تغطي الجبين الى الحاجبين،
وأرسلت منها ذؤابتين خلف العنق اتقاء حر الشمس • وأدارت العباءة
حول العنق حتى لا يبدو منها غير بعض وجهها •

وكانت طويلة القامة جليلة الطلعة ، في وجهها هبة وصحة وجمال ،
وعيناها كبيرتان فيهما نور وذكاء وجاذبية لا يعبر عنهما بغير السحر ،
ولذلك يشعر من يبادلها النظر او الحديث بسلطانها على قلبه وعقله فلا
يقوى على التبسط معها في الحديث ، ولا تطاوعه نفسه على مخالفتها
في امر كأنها ملكة عليه ارادته فيصبح آلة بيدها • وكان الناس ينتظرون
خروجها من منزلها للصيد او النزهة فيقفون في الطرق ليشاهدوا محياها
فكانت تبسم للناظرين فتزيدهم تعلقا بها •

أما في ذلك اليوم فخاب فألهم لانهم رأوا في وجهها قلقا وفي عينيها
دمعتين تحاول اخفاهما بالابتسام •

ولو انك نظرت الى جهان في بيتها وقد ازاحت اللثام حتى ظهر عنقها
وأرخت شعرها ، لرأيت قوة الجنان ورباطة الجأش ظاهرتين حول فمها
وفي ذقنها ، وتجلت لك قوتها في اندماج عنقها • وقد تعجب لاول وهلة
من اختلاف ملامحها عن ملامح الفارسيين وأبوها منهم • فاذا علمت ان
أمها جركسية زال تعجبك وعلمت انها ورثت تلك الملامح عن أمها • كما

ورثت عنها كثيرا من سجايا الجراكسة كالقوة والشجاعة والأنفة وتعود ركوب الخيل والسباق بها والخروج للصيد . على انها اخذت عن ابيها ذكاء الفرس ونعملهم ودقة احساسهم ، فكانت لهذا وذاك نادرة عصرها جبلا وجلا ، وشغف بها الفرغانيون وسوها «عروس فرغانة» .

فلما نزلت من المركبة ورأت الناس وقوا لا تنظارها وهم شاخصون بأبصارهم اليها . حيتهم على عجل خوفا من ظهور اضطرابها وهي حريصة على كتمان ما بها : ثم التفتت الى القهرمانه وقالت بصوت موسيقي جميل : « اين الجواد يا أماه ؟ » . وكانت نناديها بذلك تلتفا ونحبا لانها ربنا من صغرها وكانت ضئيلة بها شفيقة عليها . ولذلك كانت جهان سنودعها اسرارها وتكشف لها عن مكنونات قلبها . ولم تبطئ في الخروج من المركبة الا لاشتغالها بالحدث البها في شيء أهمها .

فأتارت القهرمانه الى السائس ، فأنى بالجواد يختال تها كأنه يرقص ، فلما دنا من جهان نظرت اليه وابتسمت ثم داعبت جبينه بأناملها ، وكان على جبينه شعرات بيضاء تمثل اسدا رابضا فسمته لذلك «شير» وهو اسم الاسد بالفارسية . فلما شعر الجواد بأناملها اسانس وأخذ يضرب الارض برجله . ثم التفتت القهرمانه الى الواقفين وقالت : « ان مولانا ذاهبة الى الصيد فامكثوا مع المركبة هنا لاعداد الطعام ، وليتبعنا منكم رجالان يحسان الركض حتى اذا وقع لنا صيد اتيا به » . ثم امتطت جهان جوادها الادهم بأسرع من البرق ، وقدم «فيروز» السائس للقهرمانه خيزران جوادها ، وأعانها على الركوب فركبت وأشارت الى السائس ان يتقهقر ويمشي مع الرجلين الاخيرين وأحدهما مرجان ، وسأقت جوادها الى جانب جواد سيدتها وسارتا متلازميتين ، وقد تنكبت جهان القوس وأما جعبة النبال فكانت معلقة بالقربوس ، والتمست عرض البر والجوادان يسيران معا على مهل ، والارض سهلة وأكثرها مزروع،

وتبدو في أقصاها الجبال المحيطة بالمدينة .

كانت جهان قد تعودت الذهاب في الشعاب والادوية مع الفهادين وأصحاب الكلاب لاصطياد الغزلان او حمر الوحوش او الوعول . ولكنها في هذا اليوم لم تصطحب احدا من اولئك لرغبتها في الانفراد ، وانما اتخذت الصيد حيلة للخروج .

فلما أمعنتا في الخلاء التفتت القهرمانة الى جهان لفتة حنو وانعطاف وقالت : «والآن يا سيدتي ألا تكشفين لي عن سبب انقباضك ، وأنت تعلمين اني مستودع أسرارك وأسرار أمك من قبلك ؟» فتهدت جهان وقالت : «دعيني يا أماء من هذا الحديث ، انما جئت لأروح عن النفس بالصيد» .

فضحكت القهرمانة وقالت : «وهل تريدني مني ان أصدق انك خرجت للصيد وأنا التي اخترعت هذه الحيلة لنخرج معا ؟ أم بحسبين شرك خافيا علي ؟»

فأرادت مغالطتها فقالت : «أستغربين انقباضي وأنت ترين أبي مريضا بالنقرس منذ أعوام . وقد سمعت طبيبه يصرح بضعف الامن في شفاؤه ؟ انني اذا أصيب أبي بسوء اصبح وحيدة لا اهل لي هنا . ولست أعرف اهل أبي في بلاد فارس ولا اهل أمي في بلاد القوقاز ، ولا ادري مع ذلك كيف ..» . وغصت بريقها .

فقالت القهرمانة : «ان مرض سيدي المرزبان لم يحدث بغتة ، وقد كنت تخافين على حياته من قبل ولم يد عليك مثل هذا الانقباض .. وانما سببه سر انت شديدة الحرص على كتمانها ، ولكنني أعرفه !»

فالتفت اليها جهان مستغربة وتفرست في عينيها ووجهها كأنها تحاول ان تقرأ ضميرها، فتأثرت القهرمانة من نظرها وبما تالّأ في عينيها وهي تغالب عواطفها وقالت : «نعم ان شرك غير خاف علي ، وان كنت تحاولين

اخفاءه حياء • وأرى هذا الحياء يبدو على وجهك الآن» •

فصعد الدم الى وجنتي جهان فتوردتا وأشرق وجهها وأبرقت عيناها
بريقا ينم عما يجيش في قلبها من لواعج الحب • واعتراف العينين حجة
صادقة مهما يبالغ صاحبهما في الإنكار • فإذا قالت العين قولاً وقال
اللسان آخر فالصادق هي لا هو • خصوصاً من يكون مثل جهان نسي
رقة الاحساس وقوة العاطفة • فقد كانت كبيرة القلب وكبيرة العقل معاً
ولكن الضعف النسائي غلب عليها في تلك اللحظة فأطرقت • فابتدرتها
خيزران قائلة : «لا تعجبي يا سيدتي لأطلاعي على السر • ولست أنا
وحدى المظلمة عليه فانه متداول بين اهل القصر لا وجهه احد غير ايك •
واولا تهيب اهل القصر لنقلوه اليه ولكنهم لا يستطيعون ذلك الا على
يدي وأنا لم أفعل» •

فبغتت جهان وقالت وهي تتشاغل باصلاح عرف جوادها : «وأخي
سامان ؟ هل يعلمه ايضاً ؟!»

فابتست ابتسامة تشف عن تألمها من ذكر ذلك الاسم وقالت :
«سامان ؟! • ان سامان لا تخفى عليه خافية يا سيدتي وقد قلت لك ذلك
مرارا» •

فأدركت جهان انها تريد انتقاد اخا ص اخيها • فقطعت كلامها قائلة :
«اني اتوسم في اخي سامان شيئاً لا يرتاح اليه قلبي ولا أدري ما هو •
ولكنني لا أحب العيب فيه فهو اخي الوحيد • وأرى منه انعطافاً الي •
وان كان بعضه لا يروق لي • على اني لا أحب ان اشغاله بالاسرار حتى
ايخيل الي انه جعبة خفايا وغوامض • وكثيراً ما يغيب عن البيت يوماً
فنبحث عنه في فرغانة بحثاً دقيقاً فلا نقف له على خبر • ثم يرجع ونسأله
عن غيابه فلا يجيب او يجيب جواباً مبهما • وقد أخبرنا بعضهم انه كثير
الاختلاء بالموبذ كاهن بيت النار في المدينة • ولا يخفي ما هو عليه هذا

الكاهن من الدهاء والمكر» •

فقلت خيزران : «اظن هذا الموبذ يؤيد طائفة الخرمية الجمعية السرية التي يتزعمها (بابك الخرمي) صاحب الحول والطول ، والذي اصبح خليفة المسلمين يخافه • ولا يبعد ان يكون اخوك سامان احد اعضاء هذه الجمعية ، ولا بأس بذلك فالخرمية يعملون على اعادة السلطة للفرس ومحاربة المسلمين» •

قلت : «لا أنكر ما في اخي سامان من مواضع الضعف ، ولكنني اخي • وعلى كل حال مالنا وله الان ؟»

فأطرفت القهرمانة وهي تعجب لحسن ظن الفتاة بأخيها ، رغم ما يظهر من قبيح اعماله وما تعتقده هي من سوء قصده ، ولكنها اعرضت عن ذكره •

ورجعت الى ما كانا فيه فقالت : «والآن ألا نبوحين لي بما شغلك ؟» فأعظمت جهان ان يغلب عليها الضعف الى هذا الحد امام مرييتها ، فتحركت فيها الأتفة وقالت : «لا تستضعفيني يا أماء فقد تكونين واهمة ، والا فاذكري لي سبب كدري ان كنت تعلمين» •

فقلت : «ان ضرغام هو السبب !»

فلما سمعت جهان ذلك خفق قلبها وعاد الدم الى وجنتيها وأبرفت عيناها فابتدرتها خيزران قائلة : «لا تنكري يا حبيبتني فعيناك شهدان بأنك تحيين ضرغاما !»

فسكتت جهان منتظرة ان تسمع من خيزران استحسانا او استهجانا لذلك الحب ، فقالت القهرمانة : «ان ضرغاما شاب جليل وشجاع باسل ، لا مثيل له في فرغانة ولا في غيرها من بلاد فارس» •

فقلت : «فهت انه شجاع وجليل ثم ماذا ؟..»

فهت خيزران بأن تصرح برأيها ولكنها خافت على جهان فأطرقت

وسكتت . فقالت لها جهان بصوت هادىء وجأش رابط : «صرحي يا أماء ولا تخشي شيئاً» .

فقالت : «ليس في العالم أحسن من ضرغام لولا نسبه . فليس في فرغانة من يعرف أصله ونسبه حتى هو لا يعرف من أبوه» .
قالت جهان وهي تتشغل بإصلاح القوس على كتفها : «وماذا يقول الناس عنه ؟»

قالت : «يقولون انه مثال الشجاعة وكرم الخلق ، عدا جماله وعلو همته وكبر نفسه . لكنهم يتساءلون عن نسبه ، وأنا أذكر أمه عندما اتت الى فرغانة تحمله . وكانت في ابان سبابها جميلة الطلعه . وقد خطبها غير واحد من اهل فرغانة فأبت ان تزوج وانصرفت الى بريية ابنها فقد كانت على فقرها شديدة العناية به ، ثم سمع سيدي المرزبان بخبرها فدعاها اليه وسألها ما خطبها فنكمت في بادىء الامر ، ثم ذكرت انها اخذت طفلة من حضن امها في بادية الترك ونشأت في منزل احد النخاسين بالعراق حتى انتهت الى رجل من اهل تلك البلاد فأعتقها وتزوجها ، ثم توفي قبل ان تضع حملها . فما وضعنه احبت الانقطاع الى تربيته . وقد شك سيدي المرزبان في فواها وأحب ان يجربها فعرض عليها ان يزوجها من احد رجاله فأبت واعتذرت . فازداد شكاً فسي حديثها ، وانزلها بجانب قصره وأمر لها بما يحتاج اليه من اسباب المعيشه، وكانت تحسن الخياطة وتعمل مع خدم القصر حتى اصببت بالرمد وكف بصرها فكفت عن العمل وظلت في بيت ابيك كما تعلمين . ولما شب ضرغام تعلم ركوب الخيل والرمي بالنشاب وظهرت فيه سجايا نبيلة . فجعله مولاي المرزبان في جملة أعوانه . وكان يحبه ويجل مناقبه حتى بعث الخليفة المعتصم منذ بضعة أعوام الى هذه البلاد ليجند الرجال من الاتراك والفراعنة والاشروسبيين ، فتطوع ضرغام لخدمته . وكنت قد

لحظت ما بينكما من الحب المتبادل الذي تحاولين الآن إخفاءه • ولكنني عجبت لذهابه وغيابه كأنه رأى نفسه أقصر باعا من ان ينالك للتباعـد بينكما في المقام والنسب» •

وكانت القهرمانة تتكلم وجهان مصغية تسمع كلامها بشوق ولهفة • ثم أجابتها فائلة : «انه تطوع للعمل في خدمه المعتصم لعلمه ان الرجال انما تظهر مواهبهم في مثل هذا الوقت • وكان قد تغلب عليه الوهم الذي اراه متغلبا عليك فرغم انه لا يستحقني ، وأنا اراه يفصلنسي بدرجات • فالمرء لا يقدر بمزارعه ومنازله وانما بمواهبه ومنافبه • وأنت تنهدين والناس كلهم يشهدون بأنه لا يباري في مواهبه ومنافبه • ولا ريب عدي انه سيبلغ ارقى مراتب الجند فقد سسنا بأناس من رقيق البلاد اباعهم الخليفة ورباهم وجندهم فبلغ بعضهم وبلغوا مراتب القواد • فكيف بضرغام وهو كما تعرفينه وأعرفه ؟» • وكانت تقول ذلك ولسانها يكاد ينلشم لخفقان قلبها وثورة عواطفها •

فأدركت القهرمانة ما سمعت انها عاقله بضرغام ، وهي تعرف تباتها على رأيها فلم تر ان تعارضها لكنها قالت : «لا شك عندي ان ضرغاما سينال مرتبة عليا في جند المعتصم • ولكن عروس فرغانه ارقى من ان يالها القواد فان الملوك يخطبون رضاها» • قالت ذلك جاده نعني ما نقول لا على سبيل الاطراء والمجاملة • ولكيلا تترك لجهان وقتا للتفكير والجواب اظهرت انها نعتت من الركوب والنفنت الى ما حولها فوجدت انها على مقربة من تل يشرف على اودية كانت تأنيها جهان للصيد ، فقالت لها : «ألا نرين ان تترجل الاسنراحه هنا قليلا ثم نعود الى الركوب اذا شئت • لاني لا أصبر صبرك على هذه المشقة» •

فأجابت جهان بالقبول • وترجلتا فسارع السائس الى الجواديين فاتخى بهما ناحية ، واقترش لهما ذنبها على صخرة مبسطة فوق التل قعدتا

عليها واشتغل هو بعلف الجوادين • ثم اشارت جهان الى الخادمين بأن يتوغلا في الاودية يستطلعان حال الصيد هناك •

- ٣ -

كتاب خرغام

قالت القهرمانه لجهان : «كيف رأيت كلامي يا سيدتي ؟»
قالت : «لا بدع اذا اطريتني وأعجبت بي فاني بمنزلة ابتك وكل أم بابتها معجبة حتى تظن الملوك يقتلون عليها» •
فقالت : «اني لم اقل ما قلته الا واثقة من صحته • وهل هناك شك في ان اعظم ملوك الفرس يطلبون رضاك ؟»
فهزت جهان كتفيها مفكرة مستبعدة وقالت : «ملوك الفرس ؟ • وهل للفرس ملوك اليوم ؟» • فاستبشرت القهرمانه بقرب اقناعها بعلو مرتبتها لانها على ثقة مما تقول فقالت : «لا نهزي كتفيك يا سيدتي • ان للفرس ملوكا عظاما لا يلبثون ان يعيدوا سلطان الأكاسرة • ألا تعرفين مازيار صاحب طبرستان ؟ • ألا تعرفين بابك الخرمي صاحب أردبيل ؟ ان كلا من هذين ملك عظيم تخضع له الالوف من الابطال ، ولكنه في الوقت نفسه يخضع لعروس فرغانة ، ويضحى بحياته في سبيل رضاها» •
فهزت جهان رأسها مستخفة وقالت وهي تنظر الى جوادها الادهم سارحا يرعى العشب : «دعينا من الملوك ، لا أرب لنا في غير خرغام • وما لنا وبابك ومازيار وأين نحن من أردبيل وطبرستان ؟»

قالت : «اذا كنت في شك من قلبي فاسألني اخاك سلمان عن بابك

الخرمي» .

قالت وقد تذكرت : «أظنني سمعته يطري صاحب هذا الاسم، ولكنني لا أثق بأقواله كلها كما تعلمين ، ولم أكرث للامر لان ضرغاما ليس مثله احد عندي ولا رغبة لي في الملوك والامراء» .

فقالت : «اذا كنت تستبعدين تلك البلاد فهذا الأفشين صاحب أشروسنة على مقربة منا ، وهو الان قائد جند المسلمين كافة في بغداد ، وعما قليل يأتي لزيارة ابيك ، لان سيدي كتب اليه منذ اشهر يدعوه الى زيارته في عيد النيروز» .

وكانت جهان حتى الساعة لا تبالي ما تقوله خيزران ، فلما سمعت اسم الأفشين اجفلت وتغير وجهها وانقبضت نفسها ، وصدت خيزران عن الكلام بكفها كأنها تقول : «كفي لا تذكرني هذا الاسم !» وأرادت هذه ان تستأنف الحديث فصاحت بها جهان قائلة : «دعيني من ذكر هذا الرجل ، اني لا أتحمل سماع اسمه !» انه سبب كدري الذي زعمت انك عرفته . فان نفسي انقبضت منذ سمعت بقرب قدومه الى فرغانة وانه سيقضي بعض ايام عيد النيروز عندنا ، ولو اني استطعت ان اقضي العيد في مكان بعيد لفعلت» .

فاستغربت خيزران كرهها للأفشين وقالت : «وهل اساء اليك الافشين في شيء ؟»

قالت : «ما اساء الي ولا كلمني كلمة ، ولكنني منذ رأيته يأتي لزيارة ابي ونفسي تعافه وتنكر النظر اليه . ولا أذكر ان شعوري خائني في الحكم على الناس !»

فقالت القهرمانة : «يا للعجب !» ألا تعلمين ان الأفشين رئيس ضرغام ، وان غاية ما يبلغه ضرغام من التقدم في جند المسلمين ان يصير

قائدا من قواد الأفشين وتحت رايته» .
فقلت بترفع وهدوء : «كلا يا أماء ، انه لا يعمل تحت رايته بل هو
رئيس حرس الخليفة» .
قلت وقد ظهر الاستغراب في محياها : «وهل انت على يقين مما
تقولين ؟»

فنظرت اليها وابتسمت وقالت : «نعم ، انا من ذلك على يقين أصح
من يقينك برغبة الملوك في طلبتي !» . ومدت يدها الى جيبها وقالت :
«وقد جاءني كتابه منذ بضعة اشهر يخبرني بذلك وينبئني بقرب قدومه الى
فرغانة ، ولكنه الى الان لم يأت» . وأخرجت الكتاب ودفعته اليها
لنفرأه وهو مكتوب بالبهلوية ، فقرأت فيه :

«من ضرغام في سامرا الى حبيبة قلبه جهان في فرغانة .
يا سيدتي . ولا ازال ادعوك سيدتي لانك سيدة العالمين . وأنت
ايضا حبيبتني لانك ملكت قلبي وكل جوارحي . تركت فرغانة منذ بضع
سنوات ولم أكتب اليك حتى الان لاني لم اكن اهلا لمخاطبتك . وكيف
يتجاسر ضرغام الفقير اليتيم ان يخاطب جهان بنت المرزبان صاحبة السيادة
مالكة الاموال والرقاب . وقد وعدتك يوم الوداع ان أبذل جهدي في
طلب العلا ، فاذا بلغت درجة تقربني من مقامك اتيت اليك والنمت
رضاك والا فاني اموت في سبيل طلبك . وقد انتظمت في الجندي وخضت
المعالم باسمك واستقبلت النبال بصدري وهو فيه فوقاني من الأذى .
ولما ارتقيت في مراتب الجند حتى صرت رئيس الحرس في قصر الخليفة
بادرت الى زف البشرى اليك ، وكأنك تسأليني عن عاقبة ذلك التقدم
فانه ان لم يكن لأكتسب به رضاك فلا مأرب لي فيه لاني لا ارى للحياة
قيمة ان لم تكن لك ومعك . وقد اخذت أسعى في الشخوص الى فرغانة
لأقبل يد سيدي المرزبان وأحظى بمشاهدة حبيبتني جهان ، ولولا بعض

المشكلات التي نخاف عواقبها على الخلافة لجئت اليك منذ اشهر ، على اني ظفرت الان بوسيلة تساعدني على الرحيل . ذلك ان امير المؤمنين بنى سامرا بالقرب من بغداد كما تعلمين لتكون خاصة به ليجعل فيها جنده الاتراك وأنا واحد منهم . وقد اراد ان ينتصر بهم على الاحزاب المختلفة التي نشأت في المملكة الاسلامية من الفرس وغيرهم ، وخشي على هؤلاء الجنود اذا اختلطوا بسكان المدن المجاورة ان تذهب شدتهم ونخوتهم فارتأى ان يزوجهم جوارى تركيات من وراء النهر ، وعيّن أناسا يرسل بهم الى ما وراء فرغانة يتعاون الجوارى والاماء ويعودون بهن . وقد اعربت له عن رغبتي في زيارة وضيي وطلبت السماح لي بصاحبة ذلك الوفد . فوعدني الخليفة بتحقيق هذه الرغبة . فعسى ان آتيك قريباً . وقد عهديت في توصيل كتابي هذا الى رجل من خاصتي . أمي نهديك السلام » .

فلما فرغت القهرمانة من تلاوة الكتاب همت بجهاز وضئها الى صدرها وفبلتها وهي تقول : « بورك فيك وفيه ، انه اهل لك . صدفت ان الرجل بأعماله لا بساله . واذا كان قد اصبح رئيس الحرس بجسده وبسالته فكيف بعد أعوام والدولة الاسلامية لا تزال حروبها قائمة ومثل ضرغام لا يعدم وسيلة للارتقاء ؟ »

فسرت جهاز لموافقة القهرمانة على ما في ذهنها لكنها ما لبثت ان اسندركت وقالت : « ان هذا الكتاب جاءني منذ عدة اشهر ولم يأت ضرغام ولا عرفت شيئاً عنه » .

قالت : « لا تجزعي انه آت . ولكن ... » . وانظر فت كأنها تفكر في امر طراً لها . فقالت جهاز : « ولكن ماذا . قولي يا أماء » .

قالت : « ولكن أباك قد لا يرضي بضرغام » .

قالت : « لم أخاطبه في شأنه بعد ، ولكنني أعلم انه يحبه ويجله » .

كما انه لم يسعني امرا اردته قط» .
 قالت : «أعلم ان سيدي المرزبان يحب ضرغاما ويجله ، ولكن هناك
 امرا اخر هل فكرت فيه ؟»
 قالت : «وما هو ؟»
 قالت : «ان ضرغاما مسلم على ما أعلم . فكيف يصح زواجه بك الا
 اذا اعتنقت الاسلام» .
 فقالت : «وما يسعني من ذلك ؟ والاسلام دين الدولة» .
 فقالت : «وتتركين ديانة ابيك وعشيرتك ؟»
 قالت : «اذا كانت هذه الديانة تحول بيني وبين ضرغام فاني اتركها .
 لاني احب ان اكون حيث يكون هو في الدنيا والآخرة» . قالت ذلك
 واعرورت عيناها وهي نبتسم .
 وأحست الفهرمانه ان الحديث طال وتخرج . فأجبت ان شغل عنه
 جهان فهضت وقالت : «مضى قسم من النهار ولم تباثري الصيد .
 فاركبي فرسك وأنا اتبعك وألهو بما أشاهده من مهارتك في مطاردة
 الغزلان» .



اشارت جهان الى السائس ان يأتي بالجواد والقوس والنبال ؛ ثم
 نظرت الى الجبال امامها لتختار جهة تركب اليها ، فبصرت بوعل يركض
 على صخر قريب منها ، ولم تكن بعد وجود الوعل في تلك الجهة فبغتت
 وصاحت بالسائس : «فيروز . هات القوس» .
 فأسرع اليها بالقوس فأوترتها وسددت السهم ، وأسرت انها اذا
 اصابت طريدها كان ذلك فألا بنيلها ضرغام وقرب مجيئه والا فلا .

ونظرت الى الوعل فرأته وقف على تلك الصخرة والتفت نحوهم فرمته بأسرع من لمح البصر وسمعت طنين النبل في الهواء وخيزران ننظر الى الوعل وتخاف ان يفر قبل اطلاق السهم فما لبثت ان رأته سقط ثم انقلب الى شق بين صخرين فصاحت جهان : « وقع وقع .. الي به يا مرجان » . فركض ورفيقه والسائس في أثرهما ، وظلت جهان واقفة وقلبها يكاد يطير من الفرح ، ثم تقدمت خيزران اليها وهي تضحك وتقول : « لقد سرنى رمي هذا الوعل ، ليس لانك أصبته فقط ولكنني قبل ان ترميه اضمرت ان يكون فوزك في صيدك هذا رمزا الى فوزك بضرغام » . فابتسمت جهان وقالت : « وهذا ضيري ايضا .. أتقولين بعد ذلك ان ضرغاما يليق بي ؟ »

قالت : « بسطت لك رأيي وأنا الان اكثر رغبة فيه » . وضحكت تمازحها .

فانبسطت نفس جهان وسرى عنها بعد مكاشفة خيزران . ثم سمعت صياحا فالتفت فرأت الرجال يجرون الوعل جرا لثقله فأسرعت اليهم فرأت الوعل ميتا لا حراك به . فتعجبت من سرعة مصرعه بسهم واحد . فلما وصلت اليه رأت سهمها لا يزال مغروسا في خاصرته ولاحت منها التفاتة فرأت سهمها آخر في ليتة فصاحت : « انه مصاب بسهمين وأنا لم اطلق الا سهم واحد » . هو ذا السهم الآخر » .

وأمرت مرجان ان يستخرجه فأخرجه بعد عنف شديد وهو يقول : « ان الوعل مات بهذا السهم » . ودفعه الى جهان فتناولته وقلبه بين ! تأملها فرأت على ريشه كتابة بالعربية وكانت تحسن قراءتها ، ولم تكذبين احرفها حتى صاحت : « ضرغام .. ضرغام ! اني اقرأ اسم ضرغام على هذا السهم » . فتقدم مرجان وكان يقرأ العربية ايضا فقال : « هو اسم ضرغام » .

فبهتت جهان والتفتت الى خيزران وهي تتجلد خوفا من ظهور بغتها امام الرجلين ، ثم أمرتهما ان يذهبا بالوعل الى مكان يذبحانه فيسه ويفعلان به ما شاءا ، فلما ابتعدا قالت : « ما قولك في هذه المصادفة ؟ » قالت : « يظهر ان ضرغاما قريب من هذا المكان وهذا سهمه قد رمي الوعل به فحمل الوعل جرحه مسافة طويلة لان هذه الوعل لا تسرح الا عند ضفاف نهر الشاش على مسافة بعيدة من هذا المكان » .

فأطرقت جهان وهي تحسب نفسها في حلم ثم قالت : « انها مصادفة عربية ! .. على اني اخاف ان تكون قد اخطأنا الظن . ولكن لا .. ان فليبي يحدثني بصدق ظني .. فاذا كنت مصيبة فأين تظنين ضرغاما الان ؟ » قالت : « أظنه معسكرا على ماء للاستراحة قبل دخول فرغانة ، ولا أعرف ماء في هذه الجهة الا نهر الشاش فلعله معسكر على ضفتيه الشرقية » .

قالت : « وهل هذه الضفة بعيدة عنا ؟ »

قالت : « انها على فرسخ وبعض الفرسخ من هنا . أظنك تريد ينس الذهاب ؟ »

فابتسمت والخجل يعارض ابتسامها ، وحدثت في خيزران لتستطلع حقيقة غرضها من السؤال ، فرأتها تنظر اليها باهتمام فعلمت انها تشاركها شعورها فقالت : « وهل تظنين في ذهابي اليه بأسا ؟ »

فأشفقت خيزران على عواطفها وأحبت مجاراتها فقالت : « لو علم القوم انك ذاهبة اليه عمدا لتحذثوا بذهابك ، ولكننا اذا لقيناه اتفاقا فلا بأس ، على ان المكان بعيد لا يخلو الذهاب اليه من المشقة . هل تستطيعين ذلك ؟ »

قالت : « لا مشقة علينا ونحن راكبتان . هلمي بنا » . قالت ذلك والتفتت الى الرجلين فرأتها مشتغلين بذبح الوعل بعيدا .

فأدركت خيزران انها تريد استقدامهما فسبقتها الى ذلك وقالت :
«ارى ان آتي بخادمك فيروز يسير في ركابك وتأمري الآخر بالذهاب مع
بقية الموكب بباب المدينة ينتظرنا مع بقية الخدم هناك» .
فاستحسنت جهان رأيها ، فمشت خيزران الى الرجلين وناذتهما
وأومأت الى فيروز ان يأتي فأسرع مهرولا فأمرته بأبلاغ رفيقه ان يذهب
للاتظار مع بقية الركب ، وبأن يأتي هو بالجوادين ، ويظل في ركابهما
ففعل ، وانطلق خلفهما لا يدري الى اين تسيран .

- ٤ -

ضرغام وجهان

ادارت جهان رأس جوادها نحو النهر ومضت وعيناها شائعتان في
الافق لعلها ترى حبيبها قادما ، وبجانبها خيزران على جوادها . وكانت
الشمس قد تكبدت السماء ، ونسيت جهان لفرط انشغالها انها لم تذق
طعاما في ذلك اليوم . وقد يغلب الحب على صاحبه حتى ينسيه
وجوده .

وظل الجوادان يسيран بهما في ارض بعضها مزروع وفيه الأجراء
الذين يعرفون عروس فرغانة ، كما يعرفون جوادها وخادمها . فكانوا
يقفون لها احتراما ويتسمون اعجابا ، وهي لا تبسم لتبلسل بالها .
وبينما هي غارقة في تفكيرها صهل فرسها وفرس خيزران فاتبعت ونظرت
امامها فرأت على مقربة منها مزرعة فيها خيام كروية السقف على شكل

خيام التركمان - وهم ينونها مستديرة وسقفها قبة - ورأت بين الخيام بضعة جياذ وغلّامين يحلبان فرسين على عادة اهل بادية تركستان اذ يفتدون بألبان الخيل كما يتغذى بدو العرب بألبان الابل .

فلما رأتهم جهان ارادت ان تسلك طريقا آخر لا يمر بهم توفيرا للوقت . ولكن خيزران حولت شكيمة جوادها نحوهم وأشارت اليها ان سبعا قائلة : «ارى يا مولاتي ان نسأل هؤلاء القوم عن ضرغام لعلمهم رأوه مارا فيغنيا ذلك عن تكبد المشقة في الوصول الى النهر ؟»

فاستحسنّت جهان رأيها وحولت اليهم شكيمة جوادها ايضا . فلما رآهما احد الغلامين فنهض وقد علم من قيافه جهان انها اميرة كبيرة وأسرع الى ابيه في احدى الخيام يدعو الى استقبال الاضياف . فجاء الرجل وهو فلاح شيخ ينوكاً على عكازه ، وما وقع بصره على جهان حتى عرفها . فامر اولاده بأن يعاونوها على الترحل مبالغة في الحفاوة بها، ولكنها لم تشأ النزول وأثنت على الرجل . ثم التفتت الى خيزران كأنها تعرضها على السؤال ، فقالت لها هذه : «انزلي يا سيدتي للاستراحة هنيهة ثم نركب» . فأطاعتها مرغسة واسلم فيروز زمام الجوادين وابتعد بهما عن المكان لئلا يشوشا الموقف بالصهيل مع بقية الخيل .

ولما ترجلتا خاطبهما الشيخ بلطف وسذاجة قائلاً : «ألا تشرفنا بنت المرزبان بجلوسها لحظة في هذا البيت الحفير» . ففضلت وجلست على جلد اقترشوه لها ولرفيقتها . وقبل ان تهم خيزران بالسؤال جاء الغلام يحمل قدحا من الخشب فيه سائل عرفت انه لبن الافراس فاعتذرت بأنها لا تشعر بالجوع . فقال الشيخ يخاطب غلامه : «قدم لها قدحا من القومز ، وهو لبن الخيل يخمرونه ويقدمونه شرابا للزائرين كما يقدم العرب السوق وكما يقدم اهل هذا الزمان الليمونادة او الشاي . ونظر الى جهان وقال : «هذا القومز لا يستدعي جوعا فانه كالماء ويزيل

• التب •

فلم تستطع جهان رده فتناولته فاغتنتم خيزران تلك الفترة وخاطبت الشيخ قائلة : «ألم يمر بكم أضياف غيرنا في هذا اليوم ؟»

قال : «كلا يا سيدتي • ولذلك سررت بقدومكم • وقد تشرفت بمرور مولاتنا جهان فاذا فاتنا الاضياف فهي خير من الف ضيف» •

فقلت : «وهل يمر بكم المسافرون دائما ؟»

قال : «نعم يا سيدتي لان القادم من أشروسنة او خوكند او بخاري قاصدا الى المشرق لا بد له من ان يمر بنا بعد اجتيازه النهر • ثم يذهب الى فرغانة او الى غيرها • وكثيرا ما تمر بنا قوافل التجار قادمة من الهند او التبت او الصين قاصدة الى بلاد الروم ، او راجعة منها الى بلادها» • فنظرت الى جهان وكلمتها بالفارسية وأكرة تلك البلاد يتكلمون الشاغطائية اي التركية القديمة - وقالت لها : «ألا ترين ان نمكث هنا ريثما يمر ضرغام اذا كان لا بد من مروره ؟ أليس ذلك افضل من ان نقصده هناك وقد نسير اليه من طريق ويأتي هو من طريق آخر فلا نلتقي» •

فلم تجب ولكن ظهر على ملامح وجهها انها رضيت • فقالت لخيزران: «اأذنني للرجل في ان يقدم لنا شيئا نأكله» •

فقلت : «وكيف نطلب الطعام بعد ان رفضناه ؟»

قلت : «انا اطلبه بأسلوب معقول • والتفتت الى الرجل وقالت بلغته : «ألا تبيعون حيلة للذبح ؟»

قال : «كلا يا سيدتي لاتنا نربي الافراس للبن ولا نذبحها الا متى عجزت وقل لبنها» •

قلت : «واذا اردتم مهرا للذبح كيف تفعلون ؟»

قال : «ترصد قطيعا من الخيل مارا من هنا فنشتري منه ما شئنا» •

ثم اثار بيده الى الشرق وقال : «وقد مضت علي برهة وأنا انظر الى هذه الجهة فأرى في الافق البعيد غبارا كثيفا محلقا في الجو . وأتوقع دنوه فلعله غبار قطيع من الخيل قادم الينا فأبتاع منه فرسا او فرسين للذبح . واذا شاءت مولاتنا المكث هنيهة اخرى وتنازلت بأن تتناول الطعام عندنا ذبحت لها فرسا سمينا» .

فاستحسنت جهان أريحية الرجل وخفة روحه وابتسمت له ، ففهم انها رضيت فأمر أحد ابنائه بملاقاة القطيع وتعجيله ، فأسرع الغلام يعدو واشتغل الشيخ باعداد المائدة ثم أتى بطيخة وضعها بين يدي جهان وقال: «هذه بطيخة من بطيخ بخاري المشهور بحلاوته سذبها لمولاتنا في جملة الذبائح !»

فاستغربت جهان وجود هذا البطيخ عنده وهو مما يتفاخر باقتنائه الكبراء . ولم يفت الرجل ما جال في خاطرها فاستدرك قائلا : «أهداني هذه البطيخة شاب مغرم جاء ليطلب الى احدي بناتي فأتى بهذه البطيخة في جملة الهدايا» .

فلما سمعت جهان ذكر الغرام تذكرت لوعتها ، فتنهدت وأومأت الى الشيخ ان يحتفظ بالهدية وقالت : «احفظ الهدية لصاحبها» . وأراد الشيخ ان يجيبها فسمع صوتا يناديه فالتفت فرأى ابنه راجعا يعدو وهو يلهث من التعب ويقول : «ان رعاة القطيع لا ييعون مسن قطيعهم شيئا» .

ونظرت جهان الى جهة الغبار المتصاعد من قطيع الخيل القادم ، فرأت في مقدمته فارسا على جواد مسرج ، ووراءه عشرات من الخيول عارية تتزاحم وتتراكض ، وعلى بعضها رعاة من بدو الكرج الذين يعيشون في براري تركستان على رعاية الخيل والماشية . ورأت الفارس الاول لابسا لباس الجند ويده راية على رمح لم تتبه للاسم الذي طرز عليها ولو

قرأته لارتعدت فرائصها •

اما الشيخ فأسرع الى الفارس واستوقفه وقال : «ألا تبيعوننا فرسا من هذه الافراس ؟»

فأجاب الفارس بأنفة وعجرفة : «كلا» •

قال : «انا في حاجة الى ذبيحة فنعطيكم الثمن الذي تريدونه» •
فأدار رأسه يمنة ويسرة اشارة الى الرفض • ولكن الشيخ عاد
فسأله : «ولماذا لا تبيعون ؟»

فقال : «لان هذا القطيع لأناس لا يبيعونه» •

فقال : «ومن هؤلاء ؟ أليسوا تجارا» •

اجاب : «كلا» • ثم اوماً الى الراية وقال : «أظنك لا تعرف القراءة ولو عرفتها لكفيتنا مؤونة السؤال والجواب» •

فلما سمعت جهان قوله نظرت الى الراية فقرأت فيها : «الأفشين حيدر ابن كاوس» بأحرف عربية • فتعير لونها ونظرت الى خيزران فرأتها في مثل بغنها • أما الشيخ فأجاب الفارس قائلا : «صدفت اني لا اعرف القراءة • لمن هذه الراية ؟»

قال : «هي للأفشين حيدر بن كاوس قائد جند الخليفة المعتصم وصاحب مملكة أشروسنة» •

ولم يكن احد في تركستان يجهل هذا الاسم لان الافشين كان ملكا على اشروسنة قبل دخوله في خدمة المعتصم • فبغت الشيخ وتهيب وقال : «ان مولانا الافشين مقيم ببغداد على ما نعلم» •

قال : «كان في بغداد ولكنه جاء الى اشروسنة منذ ايام وبعثنا نبتاع الماشية لرجاله» •

فقال : «وأنتم ذاهبون الان بهذا القطيع الى أشروسنة ؟»

قال : «كان مولانا الافشين في أشروسنة ، ولكنه قادم الى فرغانة

يقضي عيد النيروز فيها ، ورجاله معسكرون خارجها على ضفاف الشاش،
وهذه الخيول لهم • فهل تحتاج الى زيادة ايضاح ؟ • قال ذلك وساق
جواده وتبعه الرعاة بالخيول •

فلم يعد الشيخ يجرؤ على السؤال ، وخجل من جهان لانه عجز عن
القيام بضيافتها . وأخذ يهيم عبارة يعتذر بها اليها فاذا بها وففت وأشارت
الى خادمها ان يأتي بالجوادين وأسرت الى الشيخ وقالت : «اني شاكرة
حسن صنيعك يا عماء وقد طراً علي ما يدعوني الى الاسراع برجوعي •
وعسى ان أتسكن من زيارتك في فرصة اخرى» •

فأكبر الشيخ ذلك التلطف وهم بتقبيل يد ابنه المرزبان شكرا على
تلطفها وتنازلها ، فاجتذبت يدها منه وأشارت الى القهرمانه فدفعت اليه
بضعة دنانير وقالت له : «أعط هذه الدوانق الى الغلام يشتري بها قوسا
ونشابا يلهو بهما» • فشكر الشيخ لهما ، وودعناه وركبتا جواديهما
فانطلقا بهما وخلفهما فيروز •

وبعد هنيهة التفتت جهان الى خيزران وقالت بعد نهد يدل على غيظ
تكتمه : «والآن ماذا نقولين ؟ هذا الافشين اتى فرغانه ولا شك انه نازل
عندنا لزيارة ابي» •

قالت : «وما الذي يهيك من زيارته ؟ و • • •»
فقطعت كلامها قائلة : «لا يهمني شيء من امره ولا أكثرث له ، ولا
جنده يخيفني ، ولكنني أكره مجالسته و • • •» • وبلعت ريقها • وتشاغلت
عن اتسام الحديث باصلاح عصابتها على رأسها •
ففهت خيزران تخوفها ولكنها تجاهلت وقالت : «ان جهان العافلة
الحكيمة لا يخشى عليها من احد • ألا تزالين عازمة على المسير الى
النهر» •

فنظرت اليها جهان شزرا وابتسمت كأنها تستغرب سؤالها ولسان

حالتها يقول : «وكيف لا ؟!»

وساقتا الجوادين وهما تنظران الى قطع الخيل حتى توارى وطريقه غير طريقهما ، وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل وأثر الجوع فسي خيزران . أما جهان فشغلها تلهفها للقاء حبيبها عن كل عاطفة ، وقضت معظم الطريق ساكنة وهواجسها تتعاضم وتتلاطم ، وكلما تصورت لقاءها حبيبها اختلج قلبها ورأت انها ارتكبت شططا ما كانت لتأنيه لولا غلبة الحب على ارادتها . وكثيرا ما يغلب الحب الارادة ويكون الفوز له عليها . وقد تفوز الارادة ولكن الى أجل قريب واذا طالت علبتها كان الحب ضعيفا سريع الزوال . وقد يكون المحب كبير العقل مدبرا حكيما ويرتكب في سبيل الحب أمورا لا يأتيها غير اهل الطيش . وليس استغراب الناس عمله اكثر من استغرابه هو عمل نفسه لانه يأتي تلك الامور وعقله مشرف على عمله ينتقده ويقبحه ولا يرى له سلطانا على رده ، وذلك لان للعاقل الحكيم قلبا فطر على الحب الشديد ، فاذا هو خالف هوى قلبه تألم ألما لا طاقة له باحتماله وقد يجن او يصعق . وكم من عاشق ذهب ضحية النزاع بين العقل والقلب . فالعافل اذا أحب انتشبت بين ارادته وعواطفه حرب لها اضطرام ، فاذا كان كبير النفس قوي الجنان جارى عواطفه اعتمادا على عزة نفسه وقوة جنانه فلا يخاف ان يغلب على أمره .

وكانت جهان كبيرة العقل قوية الارادة ، ولكنها كانت كذلك كبيرة القلب شديدة العواطف ، ألوفة شديدة التعلق بما تألفه . فكيف بها وهي تحب الاليف وقد عاشرتة أعواما عدة حتى تمكن حبه من قلبها ؟ وكانت قوية الجنان ثابتة الرأي في حبه وزادها تعلقا به تخوفها من الافشين وثفورها من رؤيته ، فلم تر بأسا من السعي لملاقاة حبيبها خصوصا انها ذاهبة بحجة الصيد .



سارت جهان وخيزران حينا وهما تنظران الى الافق والجـوادان
يدلانها على الطريق المؤدي الى ضفة النهر ، حتى أطلتا على الماء عن بعد
ورأتا الشاطئ فلم تجدا عليه خياما ولا رأتا جندا ماشيا ولا راكبا .
فأوقفت جهان جوادها والتفتت الى القهرمانة وقالت : «هل ترين احدا
هناك ؟»

قالت : «كلا يا سيدتي ولكننا على مقربة من الشاطئ . فهلن بنا
اليه لعلنا نرى فيه أثرا يفيدنا» .

فاستأنفتا السير وخلفهما فيروز ، حتى بلغتا الشاطئ بقرب كوخ
نحت شجرة . فرأتا آثار أناس كانوا هناك وانصرفوا من برهة وجيزة .
ومن بين هذه الآثار بقية نار لا تزال موفدة . وبقايا طعام وفاكهة وعظام .
ثم اذا بصاحب الكوخ قد خرج للقائهما ورحب بهما ظانا انهما نازلتان
عنده . وكانت خيزران قد دعت فيروز وأمرته ان يسأل اهل الكوخ عن
القوم الذين كانوا هناك ، فتقدم وحيى الرجل وسأله فقال : «هم جند
من المسلمين عبروا النهر عند الفجر وأقاموا هنا الى الظهر فتفقدوا
وانصرفوا» .

قال : «وهل عرفت وجهة مسيرهم ؟»

قال : «أظنهم يقصدون الى فرغانة ولعلهم يريدون قضاء النيروز
فيها» .

فلما سمعت جهان قوله رجحت ان القوم ضرغام ورجاله ، وندمت على
مجيئها لاعتقادها ان ضرغاما اذا اتى فرغانة يذهب توا الى دار ايها ، فرأت
ان ترجع اليها لندركه ، وأشارت الى خيزران ان تحول عنان جوادها
ونتبعها قبل ان يدركهما الظلام وهما على بعد ميلين من المدينة . ففعلت
وحثتا الجوادين عائدتين الى المكان الذي ينتظرهما الركب فيه يساب
المدينة .

وكان من في الموكب قد قلقوا لغياب جهان ، وأرسلوا بعضهم للبحث عنها في الجهة التي ذهبت للصيد فيها ، فعاد هؤلاء دون ان يجدوها . فازداد القلق عليها . فلما رأوها مقبلة عرفوها من بعيد بقيافتها ولون فرسها . ثم رحبوا بها وجاءوها بالطعام المهيأ لها ، فأشارت عليهما خيزران ان تتناول شيئاً منه فأطاعتها وتناولت بعض اللحم والقومسز والفاكهة على عجل . ولحظت اثناء ذلك ان خادماً يكلم القهرمانة همساً وان هذه تغير وجهها . فأدركت ان هناك امراً ذا بال . ونادت القهرمانة ونظرت في عينيها مستفهمة فقالت خيزران : «ان مولاي سامان جاء الى هنا وسأل عنك ، ثم رجع لتوه» .
فقلت : «وماذا قال ؟»

قلت : «لم يقل شيئاً» . وتشاغلني بازدياد لقمة كانت تمصغها وكادت نغص بها .

ففرست جهان في وجه الخادم الذي كان يخاطب خيزران وقالت : «اظنه جاء في شأن ابي . هل عليه بأس ؟»

فلم تستغرب خيزران سرعة انتباهها لانها كثيراً ما كانت تقرأ أفكار المتكلمين بالنفرس في عيونهم ، فأجابتها بقولها : «لا بأس على مولاي بفضل (اورمزد) — اله الخير عند المجوس — لكنه استبطأ عودتك ويريد ان يراك فنحن في يوم النيروز» .

فنهضت جهان وأتارت الى الخدم ان يعدوا المركبة للعودة وقالت : «لم يبعث ابي الي الا وهو يتسكو من اشتداد المرض عليه . هيا بنا» . وكانوا قد أعدوا المركبة فركبتها معا ، وسار الموكب الى القصر وهي تتوقع ان تجد ضغاما هناك .

في قصر المرزبان

بلغ موكب جهان قصر ايها عند العشاء ، فرأت الحديقة تتلألأ بما
أوقد فيها من المصاييح ، وقد غصت بجماهير الناس وما يحملونه مسن
الهدايا والتحف الى المرزبان كعادتهم في مثل ذلك المهرجان . على انهم
في الاعياد السابقة كانت وجوههم تطفح سرورا وبهجة . وكانوا يقرعون
طبولهم ويضربون طنايرهم . أما اليوم فقد اتوا بآلات الطرب لكنهم لم
يضربوا عليها نهيبا لما علموه من اشتداد المرض على المرزبان . فرأتهم
جهان متفرقين زرافات ووحدا في طرفات الحديقة وعلى السلم ، وعليهم
ألبسة العيد من الخز والديباج ، وكلهم وقوف ينهامسون ويتلفت بعضهم
الى بعض وعلامات الاسف بادية على وجوههم . وبياب الحديقة الدواب
تجول النحف من التياب والاطياب والفاكهة . والخدم يشتغلون بانزالها
وحملها الى داخل القصر .

ولما وصلت مركبة جهان الى باب القصر تفرق الناس الى الجانبين
وشغلوا بمشاهدتها عما هم فيه . وكانوا يحبونها ويتبركون بطلعتها
ويتوسمون فيها الخير . فلما نزلت من المركبة هتفوا بالسلام عليها .
وسرى عنهم حين رأوا وجهها ونسوا ما كانوا فيه من القلق كأنهم
يحسبون دخولها على ايها يذهب مرضه ويعافيه .

اما هي فحنت رأسها للسلام تلطفا ، وخيل اليهم انها ابتسمت لفرط
ما في محياها من الوداعة والايناس . وكانت خيزران قد نزلت فسبقتها
ومشت الى جانبها ، والناس يوسعون الطريق ويقفون احتراما حتى
دخلت جهان الحديقة ماشية بجلال ورشاقة وصعدت درجات السلم المؤدي

الى ايوان القصر وهي تنفرس في الوجوه خلصة لعلها ترى ضرغاما ،
خائفة ان ترى الافشين . وكان اهل القصر في انتظارها على أحر من
الجمر فجاءوا لاستقبالها ، ولم تجد اخاها سامان بينهم فظنته عند ايها
في غرفته . فلما لقيت قيّمة القصر سألتها عن ايها فقالت : «انه في خير،
فشكرا لرحمة اورمزد» .

فاطمأنت قليلا ولكنها ظلت سائرة الى غرفة ايها بين صفوف الجواري
والخصيان والكل وقوف اجلالا لها . فمشت في دهليز مفروش بالسجاد
حتى اتت غرفة ايها وقد اشتدت لهفتها لرؤيته وقلبيها يخفق خشية عليه .
وكان يباب الغرفة حاجب من الممالك الخصيان فد اختص يباب المرزبان،
فلما رأى جهان أسرع الى سيده وبشره بقدومها ، ثم عاد ورفع الستر
ووسع لها ، فدخلت وهي لا تزال باللباس الذي خرجت به للصيد والعصاة
على رأسها ، ولكنها حسرت عن وجهها وعنقها فبان اشراقهما وقد زادا
القلق والتعب هية وجسالا ، فأقبلت على سرير ايها ووجهها يطفح رونقا
وبهاء وعيناها تبرقان ذكاء وفطنة .

وكان المرزبان كهلا لم يتجاوز الستين من عمره ، ولكن المرض
والضعف جعلاه شيخا هرما ، فايض شعر لحيته التي تسأ صدره ، وزاد
الضعف في غور عينيه وتجاعيد وجهه . ولكن هذا كله لم يقلل شيئا من
هيته ولا من بريق عينيه الذي اشتد حين علم بمجيء ابنته في اiban
الحاجة اليها . وكان قد استلقى على سرير المصنوع من خشب الأبنوس،
تحمله اربع قوائم نزل فيها العاج ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وفوقه
غطاء من الدياج المزركش بالقصب على نصفه الاعلى الذي يغطي الصدر
مطرف من فرو السمور الثمين ، ويداه مرسلتان فوق المطرف وقد حسر
عنهما كم القيص فبان هزالهما .

فلما دخلت جهان من الباب ، اتجهت اولا الى صنم مذهب نصب

على عضادة بارزة من الحائط بجانب سرير اييها وأمامه شمعة مضيئة غير المصباح المعلق بالسقف ، فانحنت للصنم خاشعة على عادة المجوس ، ثم سارعت الى اييها فجثت بجانب سريره وأكبت على يده تقبلها . وقد أثر فيها ضعفه ولكنها تجلدت تشجيعا له فابتسمت وعيناها لا تبتسمان ولكنهما تنطقان بأجلى بيان بعظيم احترامها لاييها وشدة حبها له . أما هو فحالما رآها ابتسم والدمع يترقرق في مآقيه ، وفتح ذراعيه فعلمت انه يريد تقبلها فألقت نفسها على صدره فقبلها واستنشقت رائحة عنقه فأحست بحرارة نفسه وخشونة شعره فاستأنست بتلك الخشونة لاطمئنانها على صحته لأنها كانت نخاف ألا تدركه حيا .

ثم تجلد المرزبان وتحامل على ساعديه حتى اتكأ على الوسادة وأشار اليها ان تقعد على الفراش بجانبه فقعدت وسألته : «كيف ترى نفسك يا سيدي ؟»

قال : «اني بفضل أورمزد اله الخير الحنون في خير ، وكنت أخشى ان يتغلب اهريمان اله الشر فلا اراك ، وذلك لشدة ما قاسيته من الالم والضعف . ولكنني شعرت بالراحة منذ علمت برجوعك الى القصر ، وأنت تعلمين انك تعزيتي الوحيدة في هذا العالم . فلا تفارقي القصر لانسي أرتاح لرؤيتك» .

فأرسلت جهان دمتين دلتا على حنوها وخففتا لوعة اييها الشيخ المريض وأثرتا في نفسه . وكأنه تصور حال ابنته بعد موته فغلب عليه الحنو فبكى وهو يحاول اخفاء عواطفه رفقا بعواطفها ، فابتسمت هي وتجدت ، ولم يفتها ما خالج ذهنه فقالت : «شكرا لأورمزد الشفوق : اني اراك في صحة ، وسأصلي له وأتوسل اليه (وأشارت الى التمثال) ان يعافيك ويدفع عنك المرض ، ولا ريب انه يسمع دعائي» .

فقال : «قد ارسلت اخاك سامان في طلب الموبذ (الكاهن) فاذا جاء

صلينا معا» •

فأحست جهان براحة لاتكال ايها على الصلاة • وليس للانسان
تعزية في مثل هذه الساعة غير الايمان ، فهو وحده خير تعزية له فسي
الشدائد ، بعد ان يعجز عقله وتغل يده عن درئها • ولولا الايمان لكان
حظ الناس من دنياهم التعاسة والشقاء . يدلك على ذلك ان الارض لم
تخل من دين • وما من أمة الا وهي تدين بشيء ترجع اليه في رد القوي
عن الضعيف ، وتتعزى به في المصائب التي يضيع فيها الاجتهاد ويعجز
عنها العقول ، ولا ينجح في دفعها لا مال ولا سلطان ، ولا يفيد فيها جند
ولا أعوان . وتقصر عن معالجتها مهارة الاطباء ، وحكمة الفلاسفة وعلوم
العلماء • هذه المصائب لا ينجح فيها غير الايمان والاستسلام عن اعتقاد
صحيح في الدين • فالمؤمن يتلقى المصائب بالشكر ، ويستقبل الموت
ضاحكا مسرورا • وليس أضر للبشرية ممن يضع الشكوك في أذهان
العامة لانها تقتلهم وتذهب بسعادتهم ، وهو نفسه ، مهما يبلغ من تكوكة
او انكاره . اذا أصيب بضعف او خاف على حبيب فقد حيلنه فسي
اسعافه لا يرى مندوحة عن الالتجاء الى غير الوسائل المعروفة فيستغيث
بقوة لا يعرفها . ويتوسل الى شخص لا يراه ولا يعتقد بوجوده • وقد
اختلف الناس في تفاضل الاديان لكنهم أجمعوا على التدين بواحد منها •
فلما رأت جهان اتكال ايها على الصلاة سكن اضطرابها واطمأن قلبها
فقلت : «وهل يأتي الموبذ الليلة؟»

فتنهذ وقال : «قد بعثت اخاك في طلبه ، ولكن ما اظنه يأتي به لانه
عودني ألا يطابق عمله ما في نفسي» • وكأنه ندم على هذا التعريض
فاستدرك وقال • «لا بأس من تأجيل ذلك الى الغد» •

وشعرت جهان بأن أباهما غير راض عن أخيها • وكانت قد لاحظت
شيئا من ذلك من قبل ولم تعلم سببا لهذا الفتور • وكان المرزبان يبالغ

في كتمان ذلك لعلمه بذكاء جهان وسرعة اقتبائها وانها اذا اطلعت على ما في قلبه من امر اخيها يتكدر عيشها . فسكتت وسكت ابوها حيناً ، وأخيراً اتبه هو فقال : « اذهبي يا جهان يا حبيبتى الى غرفتك ، لتبدلي ثيابك وتتناولي عشاءك فاني أشعر براحة وميل الى الرقاد» .
فنهضت وهي تقول : « ألا تحتاج الى شيء اقضيه لك يا أبتى قبل ذهابي ؟ »

قال : « لا أحتاج الى شيء الان، واذا أصبح الصباح وجاء الموبدان علمت شيئاً جديداً . اذهبي محفوظة محروسة» .

شغلت جهان بأمر النبأ الذي وعد ابوها بأن يطلعها عليه في اليوم التالي . وتاقت الى معرفته . ولكن تفكيرها لم يهدأ الى شيء . وقد سرها على اية حال ان أباه لم يذكر «الافشين» . وودت لو سنحت لها فرصة تذكر فيها ضرغاما لعله يذكره بخير فتطلعه على ميلها اليه . وكان ابوها فد عودها ألا تتخرج امامه من ذكر مثل ذلك . ثم همت بالخروج من حجرة ابيها مؤجلة ذلك حتى يأتي ضرغام لزيارته فتتخذ هذه الزيارة ذريعة للحديث في ذلك الشأن .

وقبل ان تخرج دخل الخادم وقال للمرزبان : « ان سامان بالباب» . فلما سمع المرزبان اسمه انقبضت نفسه ولكنه قال : « يدخل» . فدخل سامان ولا يكاد الناظر اليه يصدق ان جهان أخته ، اذ كانت أمه جارية سندية ماتت وهو في الثامنة من عمره وسافر ابوه على أثر ذلك الى بلاد القوقاس فلقى هناك فتاة شركسية أعجبه جمالها فتزوجها وجاء بها الى فرغانة فولدت له توأمين هما جهان وطفلة اخرى . وماتت الأم والطفلتان صغيرتان فعهد في امرهما الى خيزران ولم يتزوج بعد أمهما لانه كان يحبها حبا شديدا لفرط جمالها وتعلقها وأحب ابنتيهما لشدة مشابھتهما لها . ولكنهما لم تبلغا الثالثة من العمر حتى فقدت توأم جهان فبقيت هذه

وحدها وتحولت كل محبة ايها اليها .
ولم يكن فقد تلك الشقيقة بسبب موتها ، ولكنها فقدت بطريقة
عجيبة هي ان فرسا اختطفها . وكان في تركستان جماعة من اللصوص
يدرّبون الخيل على اختطاف الاطفال او الاحمال بأسنانها والفرار بها الى
حيث ينتظرونها في مكان بعيد . وبقي اهل فرغانة من ذلك العهد
يحذرون خطف اطفالهم بهذه الطريقة .
اما المرزبان فنظر الى سبب ضياع ابنته نظرا آخر ، وتولد البغض في
قلبه لسامان من ذلك الحين ، لكنه كتم السبب عن كل انسان !



كان سامان قصيرا أجرد ليس في وجهه الا شعرات متفرقة في دقنه .
وخداه منبسطان ، ويخامر يياض عينية حمرة كأنه استيقظ من رقاد ، فضلا
عن شدة حوله ، فاذا نظر اليك حسبه ينظر الى السقف او الى الباب
ولا يستقر نظره على شيء . وهو يكلمك مطرقا او محولا بصره عنك
وأجفانه ترتجف ، وشفاه ترتعشان كأنه خائف تخرج الالفاظ من بينهما
متلاحقة متقطعة . ولكنه كان كثير الدهاء واسع الحيلة شديد الانانية
يكره كل احد الا نفسه .

فلما أذن له ابوه في الدخول ، دخل مهرولا ، وعلى رأسه قلنسوة من
الخز بلا عمامة ، وقد ارتدى جبة طويلة تغطي ثيابه فكان يتعثر بأردانها،
ثم وقف بين يدي ابيه وقال : «ذهبت الى بيت كرشان شاه (هيكسل
للمجوس بفرغانة) فلم اجد الموبذ هناك ، وقيل لي انه يعود في الصباح
فهل أبحث عنه في منزله ؟»

فهر المرزبان رأسه متضجرا وقال : «لقد كان في امكانك ان تبحث

عنه قبل مجيئك، ولكن لا بأس.. غدا نرسل من يأتينا به . اذهب الان» .
فرأت جهان في خطاب ايها له جفاء زادها شكاً في ميله اليه . ولم
تكن قد سمعته يخاطبه بهذه اللهجة من قبل . اما سامان فقال : «لم
اكن أحسبك تريده الليلة ، والا لبحثت عنه حتى رجعت به . هل أذهب
للبحث عنه الان ؟»

وكان المرزبان يحدق في وجه ابنه وهو يتكلم ، فلما انتهى أدار وجهه
عنه وقال : «كلا ، ولكن دعني الان فاني أحتاج الى الراحة !»
فأكب سامان على يدي ابيه يقبلهما ، ثم خرج يتعثر في أذياله ، وظلت
جهان واقفة تنظر الى ايها فرأت في عينيه دمعين تكادان تنحدران وهو
ينظر الى الشمعة المضيئة بين يدي التمثال ، وقرأت حول شفثيه معنى
دلها على سر في خاطره يحب افشاءه فقعدت على السرير وناولت يده
فشعرت بعرق بارد ورعدة خفيفة فقالت : «هل تريد شيئاً يا أبتاه أم
أذهب ؟»

فقال وهو يصلح متكأه : «اذهبي يا حبيبتي .. لا .. لا تذهبي ..
لا بل اذهبي واستريحي !»
فقالت : «ما بالك ؟ هل اغضبك افعال اخي سامان . انه لم يكن
يعلم مرادك» .

فهمز رأسه وقال : «انه لم يفهم مرادي ولكنني فهمت مراده . وقد
دنا وقت الحساب» . قال ذلك واستلقى على الفراش ورفع الغطاء الى
كتفيه لينام ، فعلمت انه لا يريد الخوض في الموضوع ، فأصلحت غطاءه
وقبلت يده ثم خرجت وذهبت الى غرفتها وهي في شغل جديد بأخيها ،
وكانت خيزران في انتظارها فرحبت بها وسألتها عن ايها ثم قالت : «ابدلي
ثيابك واذهبي الى فراشك» .

فظلت واقفة ولم تجبها فأدركت ان ذهنها مشغول بضرغام فقالت لها:

«ان الناس قد انصرفوا وأطفئت الانوار في الحديقة والايوان ولم يأت
ضرغام ولعله يأتي غدا» •

فاقتنعت وأخذت في تبديل ثيابها بمساعدة خيزران ، ثم ودعتها هذه
وانصرفت ، وأرادت جهان ان تذهب الى فراشها واذا بخادمة دخلت
تقول : «ان مولاي سامان يطلب ان يكلم مولاتي» •

فسرت جهان بمجيئه لان حديث ايها معه لم يرق لها ، فدخل وعليه
ملامح الاكتئاب والانكسار ، فلما رأته اخذتها الشفقة عليه فرحبت به
وابتسمت له وقالت : «لا يسوءك ما صدر من ايننا من اشارات الكدر ،
فانت ضيق الصدر لمرضه» •

فقعد مطرقا على وسادة ولم يجب • فجلست الى جانبه ونظرت اليه
فأرت دموعه تتساقط على خديه فأثر منظره فيها وغلب حنوها وطيب
عنصرها على فراستها وتعقلها وقالت : «ما ييكيك يا اخي ؟»
فرفع بصره اليها وقال وصوته مختنق : «تسأليني عن امري وقد
شاهدت بعينيك وسمعت بأذنيك ؟»

قالت : «قلت لك ان ما اتاه ابوك ليس عن غرض بل هو عن مرض ،
فانه يحبك وليس له ابن سواك ، وأنت حامل اسمه وأنت ..» • فقطع
كلامها قائلا : «قد يكون ابي يحبني ، ولكنني سيء الطالع • فأنا أبذل
جهدى في طاعته ، ولم يكن قد كلفني استدعاء الموبذ ولكنني رأيت يسأل
عن خادم يرسله في طلبه ، فتطوعت لخدمته • ولا ارى منه غير الاعراض ،
ويؤلمني ألا يكون راضيا عني !»

قالت : «انه راض عنك ، او انه سيرضى • كن مطمئنا» •

قال : «انا أعلم انك تحبيني وتسعين في استرضائه لي ، ولكن
آخرين يكيدون لي عنده ، وهو لسلامة نيتة ينخدع بأقوالهم» • قال
ذلك ووقف بهم بالخروج خشية ان يسوءها حديثه ، فأوقفته وقالت : «من

تعني بأولئك الكائدين ؟»

قال : «أعني جماعة تعرفينهم أسروا عقولنا وقلوبنا وأموالنا باسم

الدين » •

فأدركت انه يعني الموبذان (الكهان) فقالت : «فهمت ، وأظنك

تعمدت الرجوع وحدك الليلة فلم تأت بالموبذ ؟»

فتنحج وبلغ ريقه وقال : «لم أتعمد ولكنني لم أجده في بيت النار

فلم أبحث عنه في مكان اخر لان دخول الموبذان الى بيتنا يفسده !»

فقطعت كلامه قائلة : «لا ارى رأيك في هذا لان اولئك الموبذان

يصلون لاجلنا فهم بركة لنا ، وليس لنا عزاء الا بهم ، ثم ان آبانا يؤمن

بهم ولا ينبغي ان نخالفه» •

فقال : «لا أنكر ان بينهم أناسا صالحين ، ولكن بعضهم طماعون

يغنون ان يستولوا على كل شيء • مالنا ولهم الان فانما يهمني ألا يكون

ابي ناقما علي» •

فقالت : «انرك هذا لي ، واذهب الى فراشك مطمئنا» •

فخرج مطأطئ الرأس مظهر الانكسار ، ودخلت هي فراشها حيث

عادت الى هواجسها ولم تنم تلك الليلة الا قليلا •

- ٦ -

فرغام وجهان

وبكرت جهان في صباح اليوم فالتفت بمطرفها وذهبت الى ايها

فرأته جالسا في سريره وهو أحسن حالا منه بالأمس ، ففرحت وسألته عن حاله فقال : «شكرا لأورمزد ، لقد نمت ليلتي مرتاحا ، وأشعر اليوم بنشاط . ألم يبلغك قدوم الافشين الى فرغانة ؟» لقد كنت على موعد من مجيئه في هذا العيد» .

فلما سمعت اسم الافشين أجفلت وقالت : «لا أعلم يا سيدي ، ولعله جاء ولم يأت إلينا بعد» .

فقال : «من لي بمن يبحث عنه ؟»

فقلت : «إذا أمرت ان نبعث في طلبه فعلنا ، ولكنه لو أتى فرغانة لجاءنا بلا دعوة» .

قال : «صدقت ، وهل ذهب اخوك ليدعو الموبذ اليوم ؟»

قلت : «خرج من الفجر للبحث عنه ، وقد ساءه البارحة انك لم تكن راضيا عنه» .

فقال : «نتظر رجوعه . اسقني شربة ماء من يدك» .

فأسرعت مسرورة فأتته بكأس ماء وقدمته اليه فشربه . ثم دخل الحاجب يقول : «ان ضيفا قادمًا من العراق يستأذن علي مسؤولي المرزبان» .

فصاح المرزبان : «هذا هو الافشين» . وأظهر ارتياحه لمجيئه ولم يسأل عن قبل الاذن على جاري العادة فقال : «ليدخل» . وأسفت جهان لوجودها هناك ، ولو استطاعت ان تشق الحائط وتخرج منه لفعلت ، ولكنها تجلدت اكراما لايها فوقفت وقد انقبضت نفسها فتماسكت لئلا يبدو ذلك عليها .

فأزاح الحاجب الستر فدخل القادم ، فلما أطل أجفلت جهان وبدأت الدهشة في وجهها وانقلب انقباضها الى انبساط ، وتحول امتقاع لونها الى تورد ، لان القادم لم يكن الافشين وانما ضرغام . فلما رآه المرزبان

ابتسم له ورحب به وصاح : «ضرغام ؟» اهلا بولدنا ضرغام . ظننتك صديقنا الافشين . أقادم انت من العراق ؟» . قال : «نعم يا مولاي» . قال : «وهل اتى الافشين معك ؟» . قال : «لم يأت معي ولكنني علمت يوم خروجي من العراق انه عازم على المجيء الى أشروسنة ، وأظنه اتسى » .

وكان ضرغام شابا في حوالي الثلاثين من العمر قد كمله الله خلقا وخلقا ربع القامة متملىء الجسم عريض المنكبين واسع الجبهة كبير العارضين كث اللحية ، تلوح البسالة والهمة في عينيه ، وتتجلى المروءة وصدق اللهجة حول شفتيه . وعلى رأسه قلنسوة قرمزية حولها عبامة سوداء ، وقد لبس قباء ساوي اللون تمنطق عليه بمنطقة علق عليها سيفا قبضته مذهبة ، وتحت القباء سراويل من الخز الأرجواني وفوق الفباء حبة سوداء ، وقامته قائمة الابطال اذا وقف حسبته جبلا راسخا . وكان قد دخل على المرزبان غير مقدر ان يلقي جهان هناك ، فلم تكن دهشته أقل من دهشتها .

اما هي فلما وقع بصرها عليه لم تعد تعلم كيف تخفي عواطفها ، فاذا استطاعت اخفاء خفقان قلبها وارتعاش اعضائها فكيف تستطيع اخفاء ما ظهر من التورد في وجنتيها او الاشرار في عينيها . وقد نسيت مرض ايها وأصبح همها ان تلاحظ ما يبدو منه نحو حبيبيها من ترحاب او انعطاف . فلما رأتها يرحب به فرحت وكانت بجانب الصنم فأسندت ظهرها الى العضادة وتشاغلت بمسح ما على الصنم من الغبار مخافة ان يسدو ارتعاشها ، ولم تغط وجهها لان نساء تلك البلاد لم يكن يعرفن الحجاب يومئذ ولا سيما جهان فقد كانت تستكف من تغطية وجهها وتعد الحجاب جينا وضعفا .

ولا تسل عن سرور ضرغام بتلك المصادفة . وساعده في اخفاء

عواطفه السلام على المرزبان فأكب على يديه يقبلهما • فأمر بوسادة جلس عليها وجلست جهان على وسادة اخرى وأخذ المرزبان يسأله عن حاله فقال ضرغام : «قد اسرعت في الزيارة لأكون اول من يهنئك بهذا المهرجان المبارك ، ولم اكن أعلم انك متوعدك فأرجو ان تكون احسن حالا» • فقال المرزبان : «اصبحت مرتاحا اليوم وقد سررت برؤيتك وأنت

تعلم حبي لك» •

فانحنى ضرغام شاكرا ، وسره عطفه عليه ، ولكن سروره لم يكن شيئا يذكر بالقياس الى سرور جهان ، فكانت تسمع كلمات ايها وقلبها يرقص فرحا فأجابه ضرغام : «اني أشكر لسيدي المرزبان التفاته الى ضيفه ، وقد تأكدت فضله علي من قبل وأنا غرس نعمته» •

فخجل المرزبان من ذلك الاطراء وسأله : «أقادم انت توا من العراق؟»

قال : «نعم يا سيدي ،وقد وصلت الى فرغانة مساء امس» •

قال : «وكيف فارقت القوم هناك؟»

قال : «فارقتهم في شغل شاغل بالمشكلات ، وكل واحد يخاف صاحبه ويحذره ، ويستعين عليه بجند من غير جنسه • وانما السبق اليوم للجند التركي» •

فقال : «علمت ان الخليفة الجديد المعتصم بالله ، استعان في تأييد خلافته بأخواله الاتراك فأعانوه ، وفي جملتهم الافشين ملك أشروسنة وأنت» •

فسرت ان قرن المرزبان اسمه باسم الافشين فقال : «ان الافشين عون كبير للخلافة وأما انا فلا أستحق الذكر» •

فقطع المرزبان كلامه قائلا : «ان مستقبلا مجيدا ينتظرك لما أعلمه من بسالتك وعلو همتك • انك لنعم القائد البطل ولا شك انك تقدمت في جند الخليفة» •

قال : «نعم اصبحت بفضل مولاي رئيسا للحرس» .

قال : «رئيس حرس الخليفة ؟» . قال : «نعم يا سيدي» .

فبان السرور على وجه المرزبان والتفت الى جهان كأنه يشركها في اعجابه بذلك التقدم السريع : فرأى جهان شاخصة الى ضرغام تسمع حديثه وتكاد تلتقفه ببصرها . ولو ادنى المرزبان أذنيه من صدرها لسمع خفقان قلبها . فالتفتت اليه وابتسمت ثم سكنت وعيناها تتكلمان كلاما لم يفهمه وان فهمه ضرغام .

وعاد المرزبان الى الكلام عن الجند فقال : «اذن في العراق الان جند كبير من لاتراك» .

قال : «انهم يزيدون على عشرين الفا ، وفي جملتهم ابناء ملوك فرغانة الاخاشيد وغيرهم» .

فقال : «أظنه رغب في تجييدهم لان أمه منهم» .

قال : «لا يخلو ان يكون ذلك بعض السبب ، ولكن السبب الاكبر ان دولة المسلمين هذه عربية الاصل كما تعلم : ولما نهض المسلمون للفتح كان الجند كلهم عربا ففتحوا الامصار وأسسوا الدولة وظل معظم الجنود عربا في ايام بني أمية . ثم قام الفرس بنصرة العباسيين وشاركوهم في تأسيس دولتهم ، فاشتد ساعد الفرس وضعف أمر العرب . وما زال الفرس يتوقون الى ايام المأمون الخليفة السابق ، فأصبحوا اهل الدولة وفي ايديهم الحل والعقد . ولا يخفى عليك انهم ما زالوا من اول الاسلام يعملون على رد السلطة الى الاكاسرة» .

فتنهذ المرزبان تنهدا عميقا ادرك منه ضرغام انه يتحسر على ضياع دولة الفرس فتجاهل ومضى في حديثه فقال : «فلما افضت الخلافة الى المعتصم ، خاف الفرس ولاسيما انهم قتلوا اخاه الامين وسلموا الدولة الى اخيه وابن اختهم المأمون تمهيدا لردها الى الفرس بعد موته . فلم ير

المعتصم خيرا من ان يستعين عليهم بقوم أشداء لم تذلمهم الحضارة فعمد الى تجنيد الاتراك» .

فقال : «وهل يقيم هؤلاء ببغداد ؟»

قال : «كانوا يقيمون بها الى عهد غير بعيد ، ولكن البغداديين ضاقوا بهم لانهم كانوا يؤذون العوام في الشوارع . وربما قتلوا بعضهم في الاسواق ، فابتنى لهم المعتصم مدينة سماها (سر من رأى) او (سامرا) واختط فيها الخطط واقتطع القطائع . وأفرد اهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . ثم شيدت بها القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه ونساع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها وجهزوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس فاتسع عمرانها» .

فأعجب المرزبان بهذا التدبير فقال : «اذن هي مدينة كبيرة ؟» وهل

بقي الاتراك على دينهم ام غيروه ؟»

قال : «لا يخفى على مولاي ان معظمهم يدين بالزرادشتية ولكنهم اصبحوا اليوم مسلمين . ومن اغرب الوسائل التي تذرع بها الخليفة لابقاء الجند قويا كما هو الان انه أبعد عن اهل البلاد ومنع رجاله ان يتزوجوا منهم . ورأى ان يزوجهم ببنات تركيات ابتاعهن من تركستان . وقد ارسل وفدا لابتياح هؤلاء الجواري فاغتنمت انا الفرصة واستأذنت في مرافقة هذا الوفد فأتيت الى فرغانة لهذا السبب» .

فقال المرزبان : «لقد سرنى قدومك يا ولداه وفرحت برؤيتك ، وكان أورمزد قد هيا ذلك حتى اراك قبل ...» . قال ذلك ونغيرت سحنه وبان الانقباض في وجهه لكنه تشاغل بالسعال ومسح شاربيه وعينه حتى لا يظهر بكاءه . فاخترت جهان اثناء ذلك نظرة الى ضرغام بادلها مثلها . وقد فرحت بتودد ايها اليه ولكنها تأثرت من يأس ايها . وهي أرغب في بقاءه بعد ما عاينته من رضاه على حبيبها ، ووثقت بأنه لا يمانع في

زواجها منه ، وعزمت على ذكر ذلك له في اول فرصة .
اما المرزبان فأراد ان يشغل ضرغاما عما بدا منه فقال : «وكيف حال
امك المسكينة ؟»

قال : «هي في خير والحمد لله ، ولا تفتر لحظة عن ذكر مولاي
وأفضاله علينا ، وتذكر مولاتنا جهان لأنها شديدة التعلق بها» .
فرأت جهان سيلا لمخاطبته فقالت : «مسكينة آفتاب . اني احبها
محبة الابنة لوالدتها ، ولم ألق امرأة اطيب قلبا منها . وقد كنت كثيرة
الاستئناس بها» .

وهب المرزبان بغنه كان تبيئا نبهه فقال : «اين سامان ؟ هل اتى
الموبذ ؟ ادعوه لي حالا . ان سامان لا يعول عليه» . قال ذلك وهز
رأسه هزة كلها معان .

فنهض ضرغام وقال : «انا ذاهب لاستدعائه فاني اعرفه وأعترف
بمكانه» .

فقال المرزبان : «لا تكلف نفسك الذهاب وفي قصرنا عشرات من
الخدم والخصيان . . ولو لم يتصد سامان للذهاب بنفسه لكان لنا غنى
عه بواحد منهم» .

فقال : «قد أحسن سامان بتطوعه لتنفيذ امر ابيه بنفسه . واذا أذن
مولاي ان أتولى انا ذلك فعلت» .

فقطع المرزبان حديثه قائلا : «كلا لا تذهب انت» .

فقال : «أتأذن لي في ان أبعث اليه بخادمي بل رفيقي وردان . فاني
لم أكل اليه امرا الا أنفذه ولو ركب اليه رؤوس الأسنة» . قال ذلك
وخرج فنادى : «وردان» . فأتاه رجل في نحو الأربعين من العمر
خفيف العضل خفيف اللحية : يظهر من بروز أنفه وبقية ملامحه انه
أرمني . وكان قد دخل في خدمة ضرغام بسامرا منذ عهد قريب وسرعان

ما اكتسب ثقته بما أبداه من علو همته ونشاطه ، فكان ضرغام يعامله
معاملة الرفيق فلما وقف بين يديه وعليه عمامة مستديرة وسراويل قصيرة
وفروة من جلد الغنم قال له ضرغام : «هل عرفت بيت النار الذي مررنا
به مساء امس وعليه الانوار والرايات ؟» • قال : «نعم» •
قال : «اذهب الى هناك واسأل عن الموبذ ، وقل له : (ان المرزبان
يريدك في هذه الساعة) • وارجع به معك» • فأشار مطيعا وخرج •
اما جهان فأصبحت متشوقة لتحدث ضرغاما وتشاكيه الغرام ، وكانت
تشعر بأن رأسها مملوء بالاخبار التي يلذ لها كشفها له ، على عادة المحب
اذا فارق حبيبته فانه لا يمل الكلام مهما يكن موضوعه او مرماه ، فلا
عجب اذا اشتاقت جهان لمجالسة ضرغام بعد ذلك الفراق الطويل •
وكان هو في مثل شوقها ولهفتها • ولكنه كان في حيرة لا يدري
كيف يتسنى لهما ذلك • فاذا بالمرزبان ينادي جهان قائلا : «مري (المهتر)
— فيم الدار — ان ينزل حبيبنا ضرغاما في القصر ، ويعد له ما يحتاج
اليه • ومضى فرغ من ذلك يجيء الي فاني أريد ان أختلي به حيناً حتى
يأتي الموبذ » •
فخرجت لتنفيذ ما أمر به ابوها • وسبقها ضرغام الى قاعة خاصة
تعود ان يراها جالسة فيها •



حينما خرج وردان من قصر المرزبان رأى الناس يتزاحمون بيابه
بأفراسهم وهداياهم وعليهم أثواب العيد وهم ينتظرون الاذن فسي
الدخول ، فلما رأوه خارجا جعلوا يتساءلون عن سبب عجلته وسأله
بعضهم عن حال المرزبان فلم يجبههم وظل سائرا حتى جاوز القصر ، فمضى

في الطريق وقد تزاحمت فيها الاقدام وتصادمت المناكب والناس في شغل شاغل من أمر العيد ، وهم يحصلون الفاكهة والحلوى . ويتبادلون التهئة . فلم يكثرث لشيء من هذا ، ومتى حتى أطل على بيت النار . والاعلام تخفق على سبوره وحوله مقاصير تعد بالعشرات ، يقيم بها السدنة والخدم والقوام ، وقد نزاحم الناس يابه الذي زين بالريحان. فتظاهر وردان بأنه واحد من عباد النار وقد جاء لأداء فريضة الزيارة . ودخل الى صحن المعبد فرآه مفروشا بالديباج والحرير ، نحيط به أروقة مستديرة قد علقت فيها الستائر المطرزة وبعضها مرصعة بالحجارة الكريمة .

وابصل من الصحن بياحة المعبد حيث يفيسون الصلاة ، فاذا هي بقعة مربعة يقوم وسطها بناء معقود في وسطه فجوه بثابة الباب يصعد اليها بخمس درجات . وحول الباحة أحواض ملصقة بالجدران أوقدوا فيها النيران وأحرقوا البخور فتصاعد دخانها في الفضاء ، وعلى زوايا القبة أجران تصاعد دخانها كما تصاعد من مئات أمثالها فوق السور . وفي بعض جوانب الباحة الى اليسار وعاء مستدير مملوء بالنفط يتصاعد اللهب من فوهة فيه ، وقد اصطف الناس حوله بين جلوس ووقوف وهم يعبدون او يصلون .

ورأى رجلا واقفا على الدرج ظنه الموبذ ، فهم بالذهاب اليه فاعترضه رجل على رأسه قلنسوة مستطيلة هرمية الشكل عرف من منظره انه احد السدنة ، فقال له وردان : «أريد مولانا الموبذ . أليس هذا هو؟» وأشار الى الرجل الواقف على الدرج .

فقال السادن : «كلا ، ان الموبذ مشغول الان» .

قال : «وأين هو؟»

قال : «مالك وله ؟ اذا شئت الصلاة او البركة فهذه هي النار في

الاجران » •

قال : « بل انا أريد الموبذ » •

فحول الرجل وجهه عنه وقال : « انك لن تظفر برؤيته الا بعد

الصلاة » •

فاستمهله قائلا : « لا تفضب يا سيدي فاني غريب وقد اتيت من

خوكند بالامس وعهدي بكم تكرمون الغرباء » •

فخجل السادن ووقف له وقال : « ألم تأت للصلاة او الاقتباس ؟ امامك

النار المقدسة فاقبس منها ما شئت » • قال : « بل انا أريد الموبذ » •

فتقدم السادن وأدنى فاه من أذنه وهمس قائلا : « ان الموبذ في خلوة

مع بعض الكبراء في هذه الحجرة التي الى اليمين ، فانتظر خروجه او

افعل ما شئت » •

فمد وردان يده الى جيبه وأخرج دنانير دفعها اليه وهو يتسهم وقال :

« ألا تأذن لي ان أدنو من الحجرة أصلي بجانبها استئناسا بمولانا الموبذ » •

فتناول السادن الدنانير وقال : « افعل ولكن احذر ان يشعر بك احد » •

فقال : « طبعا » • وهرول الى الحجرة معتزما ان يختال للدخول على

الموبذ ويبلغه امر المرزبان • فلما دنا من الباب رأى الموبذ ومعه رجلان

لباس فاخر ، عرف ان احدهما « الافشين » ثم ما كاد يعرف الآخر حتى

اضطرب دهشة اذ عرف فيه رجلا في نفسه منه أمر عظيم ، وهو اصبهند

(نائب) بابك الخرمي •

وأخذ يسائل نفسه عما جاء به من أردبيل في ارمينيا ، وبينها وبين

فرغانة سفر طويل ؟ • فلما لم يجد جوابا شافيا وقف في مكانه متظاهرا

بالصلاة والدعاء ، وأخذ يفكر في سبب هذه الخلوة في بيت نار المجوس

بين « الافشين » قائد جند المسلمين ، ونائب بابك الخرمي المجوسي ألد

اعداء المسلمين !

وبعد هنيهة تحول الى فرجة تؤدي الى سر وراء الحجرة به نافذة
تشرف على ما في داخلها بحيث يرى الجلوس فيها وهم لا يرونه .
فتربص وأخذ يتفرس فيهم فرآهم جالسين على بساط من الديباج .
الموبذ بقلنسوته وقبائه الارجواني . والافشين بعمامته حول القلنسوة .
والاصبهذ بالقلنسوة بلا عمامة . وكان عهده بالافشين يلبس الجبه
السوداء شعار العباسيين ، وطالما رآه يصلي بسجدة سامرا . فعجب
لارتدائه القباء الارجواني الذي يلبسه كبار المجوس في العيد . واوجوده
مع المصلين في بيت النار . على انه لم يستغرب مجوسية الاصبهذ .
لعلمه بأنه لم يعتنق الاسلام .
وأصاخ بسمعه الى ما يقولون فسمع الموبذ يقول : «سنفوز بعون
اورمزد ، ولكن علينا ان نصبر» .
قال الاصبهذ : «اننا صابرون ، ولن يطول اضطبارنا بشرط» .
وسكت فجأة . فقال الافشين : «لا بأس من الصبر وان طال . ولكن ما
كان ينبغي لصاحبك ان يغير رأيه في» .
فقال الاصبهذ : «انه لم يغير رايه فيك . ولكنه رآك اعلنت التقرب
من اولئك اليهود الذين يسبون انفسهم مسلمين او عربا . وقد ارسلني
للاجتماع بك في هذا العيد لأذكرك بعهدك بين يدي الموبذ» .
فضحك الافشين وقال : «ربما ظن صاحبك انني عاقل عما نعاهدنا
عليه هنا منذ بضع سنين ومعنا المازيار صاحب طبرستان . ولكن هذا هو
الموبذ يشهد بأنني اقامت بعهدي» .
فأشار الموبذ برأسه ان «نعم» . واستطرد الافشين قائلا : «ان هذه
النار تشهد على عهدنا ، فقل لآخي بابك بأنني لا أدخر وسيلة في جمع
المال وارساله ، ولا أخطو خطوة في حرب او سلم لدى المعتصم الا
اقتضيت عليها مالا أرسله الى خزيتنا بأشروسة . وأما المازيار فانه

كذلك مقيم على العهد ، ولم يحضر معنا هذا العام لاسباب خاصة . وقد كتب الي يحثني على الثبات ، ويعد بأن يكون هو وطبرستان كلها معنا متى تحركنا . ولا شك انه أشد غيرة منا على التخلص من هذه الدولة وارجاع دولة الفرس » .

فقال الاصبهذ : «ذلك عهد مولاي بك ، ولكنه رآك أطلت الرضوخ لحكم اليهود كأنك أصبحت واحدا منهم حتى تصديت لحربنا غير مرة» . فقهقه الافشين وهز رأسه قائلاً : «المثلي يقال هذا ؟» وهل يخفي قصدي على اخي بابك ؟ ألا يعلم اني اذا خرجت لحربه فانما أفعل ذلك اخفاء لغرضي ؟ انني لن أدع فرصة تسنح دون ان أتهزها لنقوم جميعاً فومه رجل واحد فنال أمنيـه قصر عن نيلها ابو مسلم الخراساني وجعفر البرمكي والفضل بن سهل ! ان هؤلاء افسدوا امرهم بالعجلة ، أما نحن فسنفوز بالتؤدة » .

فالتفت الموبذ الى الاصبهذ وقال : «صدق الملك . فانه رجل حنكه الدهر ، فأبلغ ولدنا بابك ان ينتظر . وليثق بأن أورمزد في عوننا . فقد رأيت فيسا يرى النائم ان الفوز قد دنا أجله » .

وكان وردان يسمع الحديث وقد اخذته الدهشة ، وكيف لا وقد بين ان فائد جند الخليفة مجوسي يسألي اعداء المسلمين على الايقاع بالدواء عند سنوح القرصه . على انه اغتبط بأنه حصل على سلاح ماض يستعمله عند الحاجة . ثم رأى الموبذ يتحفز للنهوض ، فنهض الافشين ورفيقه وتلشما تخفيا . فغادر مكسـه ، ثم وقف في صحن الهيكل ليلتقي بالموبذ عند خروجه .

وكان الناس في شغل شاغل بعبادتهم ، فأومأ اليهم السادن ان الموبذ خارج ، فتهياؤوا للتبرك بطلعته . ووقف وردان بينهم يقلد حركاتهم . ثم ظهر الموبذ يخطر بثوب يهر البصر بألوانه وتطريزه ، وفي عنقه عقد من

الجوهر ، وفي شماله صولجان قبضته مذهبة ، وفي يمينه عصا يضرب بها
الارض مختالا ، والناس يطأطئون رؤوسهم اجلالا وتعظيما له .
فلما اقترب من وردان : سارع هذا اليه وأكب على يده يقبلها وقال:
« ان مولانا المرزبان يدعوك اليه الساعة لأمر ذي بال » .
فقال : « هل اشتد المرض عليه ؟ »

قال : « لا أدري ، ولكنه ألح علي ان ارجو منك ان تزوره الان ،
وأمرني ألا اعود الا بك » . قال : « انتظري خارجا لأذهب معك » .
فخرج وردان محاذرا ان يراه الافشين لئلا يدرك انه اطلع على شيء
من سره . ولما صار بالباب رأى مركبة شد اليها فرسان عليهما العدة
المذهبة فعلم انها معدة للافشين . ثم خرج الموبذ فركبها والافشين الى
جانبه وهو ملثم ، وأشار الى وردان فركب احد الفرسين ، ومضوا الى
قصر المرزبان .

- ٧ -

اجتماع الحبيبين

تركنا ضرغاما في انتظار جهان بغرفتها وأهل القصر لا يرون بأسا من
اجتماعهما ، لما يعلمونه من منزلة ضرغام عند مولاهم ، ولأن جهان لا
تحتجب عن الرجال ، جلس ضرغام على كرسي في بعض جوانب الغرفة
ينتظر حبيبته وهو على مثل الجمر وقد أهمله ما شاهده من مرض ايها
وتشاءم من ذلك ، ولكن شوقه لجهان وشدة رغبته في مقابلتها أنسيه

كل شاغل •

ثم سمع صوتها بجانب باب الغرفة تكلم «المهتر» وتوصيه بما أمر به
ابوها ، فخفق قلبه ، ثم دخلت فلما اقبلت عليه خف للقاءها وكلاهما
يتسم وقلبه يضحك ، وقد نسيا الدنيا ومصائبها كأنهما انتقلا من عالم
الشقاء الى عالم السعادة والهناء •

واذا أعجز الفلاسفة تمثيل الفردوس ، فان اقرب مثل لحال المقيمين
به ، حال حبيبين تصافيا وصفا لهما الزمان وخلا الجو ، فاجتمعا وطفقا
يتشاكيان لا يزعجهما رقيب ، ولا يخامر قلبيهما شك او غيرة • تلك هي
الجنة لولا ما يتتابها من القصر ، او يعرض لاصحابها من طسوارق
الحدثان •

فلما رأت جهان حبيها واقفا لاستقبالها هشت له ومدت يدها
لمصافحته ، فمد يده وقبض على كفها وقلبه يضحك وعيناه تبرقان • واذا
كان • وهو الشجاع الباسل الذي لا يهاب مواقف القتال ، قد ارتعد
واضطرب • فكيف يكون شأنها ، وهي مهما تبلغ من رباطة الجأش
والتعقل لا تخرج عن طبيعة المرأة الحساسة ؟

وبدأ ضرغام الكلام فقال : «لقد أطلت الغيبة عليك يا سيدتي» •
فنزعت يدها من يده ونظرت في عينيه نظرة المحب العاتب وقالت :
«لا تقل سيدتي بل ...» • وتشاغلت عن اتمام الكلام بالقعود وهي
تدعوه اليه ، فقعد كل منهما على كرسي ، وأدرك هو مرادها فقال :
«كيف لا ادعوك سيدتي وأنت جهان عروس فرغانة وبنت المرزبان ، وأنا
ضرغام اليتيم ابن آفتاب الارملة المسكينة ؟»

فقطعت كلامه قائلة : «بل انت سيدي ومولاي • ليس لانك رئيس
حرس الملك او قائد جند الخليفة ، ولكن لانك شهم نبيل باسل • بل ان
هذا ايضا لا يزيدك رفعة في عيني !• اني أشعر بشيء آخر يعجزنسي

التعبير عنه • أشعر بسلطة لك علي • اذا لم تسعفني بالتعبير عنها كنت حزينه بأئسة !» • قالت ذلك وتوردت وجتها وغلب الحياء عليها • فعلم انها تعني الحب وان الحياء يمنعها من التصريح فقال : «ان العامل الذي تحسبن ضرغاما المسكين اصبح به سيدا قد جعل الاميرة جهان معبودة فأنا عبدها الخاضع المطيع» •

فقلت : «قلت لك اني عاجزة عن اداء ما في خاطري او ييسان اسبابه ، وانما أعلم ان منزلتك عندي لا تعلوها منزلة احد على وجه هذه البسيطة • ويهمني الان ألا نضيع الوقت سدى اذ اخشى ان يأتي الموبد فيدعوني ابي اليه» •

ولما ذكرت أباهما تذكرت حاله فتنهدت ثم استدركت فقالت : « ان وقتنا ثمين يا حبيبي • نعم يا حبيبي ، سامحني اذا دعوتك بهذا اللقب قبل ان تدعوني انت به • آه من سلطان الحب !»

فقال وقد هاجت أشجانه : «لا يحق لاحد ان يبدأ بهذا التصريح سواك ، وقد فعلت حتى يكون لك فضل المتقدم • وهل أجسر انا ان ادعوك به قبل ان اسمعه من فيك ؟ • فأحمد الله على ذلك • وحق لي الان ان أسميك حبيبتني • آه ما اشهى هذا اللفظ في فمي ، وما أخفه على قلبي ! • لطالما كررته في خلواتي ، وكم تمنيت ان اسمعه من فيك • وقد سمعته • فهل في العالم رجل أسعد مني ؟!»

فأطرقت وهو لا يحول نظره عنها وكأنه يهم بأن يضمها بجفنيه تهيئا من ان يضمها بذراعيه ، فلما رآها مطرقة وقد بدا الاهتمام في محياها اختلج قلبه في صدره وتوهم انها ستخطف من بين يديه فقال : «ما بالك مطرقة يا حبيبتني ؟»

فرفعت بصرها اليه وابتسمت وقد فهمت ما خالج خاطره وقالت : «لا تذهب بك المخاوف بعيدا • اني لم أسمك بهذا الاسم وأنا اخاف احدا

او اخشى بأسا ، ولا سيما بعد ان آنت من ابي ما آنته من الارتياح اليك والتعلق بك . ولولا مرضه . آه لولا مرضه . . . وسكنت .

فقال : «ارجو ان يشفى قريباً» . وسكت وعيناه تتفرسان في عينيها ، وكل منهما يقرأ فكر صاحبه ، ولعلها قرأت اكثر مما قرأ هو فقالت : «ضرغام . لا ينبغي ان يغلب الضعف على جهان حتى تخفي احساسها عن حبيبها وتحمله على الشك في شيء من امرها . لقد تعاشرنا أعواما وعرف كل منا صاحبه حتى امتزجت روحانا فما في الارض قوة تستطيع التفريق بيننا ، وأراني غير قادرة على الاستقلال بفكري او حياتي عنك . فأنا أشعر بأنك مني وأنا منك . فاذا فكرت في شيء رأيت فكري يمر على تذكارات انت فوامها ، واذا تخيلت امرا كان خيالك نصب عيني يحول بيني وبينه ، ولا ترسم في عقلي صورة الا وفيها شيء من صورتك . فهل بعد ذلك يستطيع البشر ان يفصلوا بيننا ؟ . واذا استطاعوا التفريق بين هذين التووين الباليين فانهم أعجز من ان يفصلوا بين روحينسا وفكرينا . ولكننا مقبلون على امر عظيم . فاذا تجاوزنا . . .» . وسكنت وحولت وجهها عنه خشية ان يبدو له ما يتردد في مآقيها .

أما هو فأسكره تعبيرها ومرآها ، على انه لم يفهم مرادها فقال : «وما الذي يخيفك ؟ . لا أعهدك تخافين ، ولك من تعقلك وثبات جأشك حصن حصين . وهذه روعي بين يديك فارمي بها من تشائين» .

قالت : «سلمت روحك يا ضرغام . اني لا اخاف شيئا ، اذ ليس في الارض قوة تستطيع ان تبعدني عنك . وكنت أحاذر ان اجد من ابي تغيرا او فتورا ، فذهب حذري اليوم . ولكنه مريض ، فعساه ان يشفى قريباً» .

قال : «يشفى باذن الله . وهل تخافين شيئا اخر ؟»

قالت : «أتوقع أمورا كثيرة تخيف غيري ، ولكنني لا اخافها لانني

أعدها أعراضاً وأنت الجواهر ، فإذا كنت لي فقد ملكت الدنيا وما فيها
— اعذرني على هذا التصريح وخاطبني بشئله فاني لا احب التكتسم
والتردد ! »

فقال بلهفة وعزم ثابت : « تريدن ان أصرح بأنني احبك ، او بأنني
اترك الدنيا لأجلك ؟ ان هذا لا حاجة بي اني ذكره ، والظمان لا يطلب
منه الاعتراف بحاجته الى الماء ، والتعس لا يسأل هل يتمنى السعادة .
وأنا بغيرك ظمان بلا ماء ، وجسم بلا روح . وأنت سعادتي وحياتي وأنت
كل شيء ! »

فأبرقت عيناها وسرى عنها وقالت : « هذا كل ما أبغيه . اني اسمع
صوت سامان في الدار . وربما دخل علينا فيقطع حديثنا . فنحن على
هذا العهد وعند ابلال ابي سافاته في هذا الشأن ثم اخبرك بما يكون » .
فالت ذلك وتحفرت للوقوف ، فاذا بخيزران قد دخلت وفي وجهها
انقباض ولهفة ، فنهضت جهان لملاقاتها فابندرتها خيزران قائلة : « ان
سامان داخل على مولاي المرزبان » .

فالت : « وهل اتى الموبذ معه ؟ » . قالت : « كلا » .
فهزت راسها وحرقت اسنانها ثم قالت لها ومي تشير الى ضرغام :
« هل رأيت ضرغاما ؟ »

فالت وقد علاها الخجل : « لم أره يا سيدي . اعذرني لدخولي
بهذه اللهفة فقد شغلت بأمر سامان لعلمي ان أباك يستاء من دخوله عليه
وقد أوصى ألا يدخل عليه احد » . وتحولت الى ضرغام فحيته باحترام
وهمت بتقبيل يده .

فرد التحية وابتسم لها ، وكان يستأنس بها لعلمه بحبها لجهان ، وقال :
« مالي اراكم تخافون دخول سامان على ابيه ؟ »
فالت جهان : « لان ابي تكدر منه امس لاهماله المجيء بالموبذ اليه » .

قالت ذلك وخرجت وهي تقول : «سأذهب الى ابي ثم اعود» •
لبث ضرغام في مكانه وسارت جهان حتى اتت غرفة ابيها ، فرأت
سامان واقفا بالباب والحاجب يحول بينه وبين الدخول وهو يجادلـه
مغضبا ، فقالت : «ما بالك يا اخي ؟»

قال : «ان هذا الرجل يمنعني من الدخول على ابي» •
قالت : «لا تغضب فان أبانا في فراشه ، وقد صرفني وأدخل المهتر
ليكلمه في بعض الشؤون • هل رأيت الموبذ ؟»
قال : «لا • لم أجده» •

قالت : «ألا تعلم ان رجوعك وحدك يغضب أبانا ؟»
وینما هما في ذلك سمعا المرزبان ينادي من الداخل : «لا تدخلوا
على سامان • ادخلي يا جهان» •

فالتفت الى اخيها وقالت له هامة : «اذهب يا اخي الى الايوان ،
ولا تكدر أبانا ، وسأعود اليك حالا » • فأطاع وانصرف • ودخلت هي
فوجدت القيمم جاثيا بين يدي ابيها وأمامه اوراق ودفاتر وقلم ودواة ،
ورأت أباها جالسا في السرير وقد تغير وجهه وبدا الجذ في عينيه ، فلما
دخلت رفع بصره اليها وابتسم ، فبشت له ودنت منه فقبلت يده وقالت :
«وكيف انت الان يا أبتاه ؟ عسى ان تكون بخير ؟»

فضمها اليه وقبلها وأطال معانقتها ، وأحست بدمعة حارة سقطت على
عنقها فارتجفت ونظرت في وجهه فرأت الدمع في عينيه ، فأثر منظره فيها،
وكأنه خاف ان تزعج فقال وهو يتكلف الابتسام : «انني في خير • لا
تخافي • سأعسل كل شيء في سبيل راحتك • اجلسي» • وأشار الى
القيمم فخرج وأغلق الباب ، فأعادت نظرها الى ما بين يدي ابيها مسن
الاوراق والدفاتر ولم تستحسن ان تسأله عنها •

أما هو فتشاءب وأشار اليها ان تساعد على التوسـد فأعاته ،

فاستلقى واتكأ على الوسادة وقال : «علمت ان اخاك سامان عاد هذه المرة ايضا وحده ، فانه لا يرى في مجيء الموبذ نفعا له» .

فقالت : «لقد ارسل ضرغام خادمه ليأتي بالموبذ ، ولا يلبث ان يجيء ، فاطمئن» .

وقد ذكرت ضرغاما عمدا لترى ما يبدو من ايها ، فقال : «ان ضرغاما جل كريم النفس ، وقد سررت بلفائه وهو جدير بأن يكون اخا لك لا سامان الشرير» .

فسرها ثناؤه على حبيبها ، وهمت بأن تفتحه في شأنه واذا بالحاجب دخل يقول : «الموبذ بالباب ومعه الافشين» .

فلما سمع اسم الافشين أشرق وجهه وبفت وقال : «والافشين ايضا؟» قال : «نعم يا سيدي» .

أما جهان فلما سمعت اسم الافشين انقلب سرورها كآبة ، ووقفت كأنها تحاول الفرار من رؤية ذلك الرجل ، ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر امر ايها فقال لها : «لا بأس من بقائك هنا اذا شئت ، ولك الخيار» .

قالت : «اتأذن لي في الخروج» .

قال : «اخرجي واطمئني» . فخرجت من باب سري في ناحية من الغرفة ، والتفت المرزبان الى الحاجب وقال : «يدخل الموبذ والافشين» .

فدخل الموبذ والافشين وراءه ، وتوجه الموبذ اولا الى الصنم فوقف امامه وانحنى متمما ، وفعل الافشين فعله .

فأشار المرزبان اليهما فجلسا ، ثم رحب بهما ووجه كلامه الى الافشين قائلا : «لقد ابطأت علي حتى اشتد شوقي اليك» .

فقال وهو يحك ذقنه وقد شاب معظمها لانه كان في نحو سن المرزبان : «كان قد طرأ علي ما عاقني فلم اصل الى فرغانة الا اليوم . كيف انت؟»

قال : « كما تراني • وقد جئت في ابان الحاجة اليك » • ثم التفت الى الموبذ وقال : « ارسلت في طلبك غير مرة فلم تأت » •
قال : « لم يأتني احد قبل الان » •
قال : « ارسلت اليك بني سامان امس واليوم فلم يجدك في كارشان شاه » •

فاستغرب الموبذ كلامه وقال : « اني لم أفارق المعبد منذ ثلاثة ايام لمناسبة العيد وتقاطر الناس الى فرغانة للتبرك وايفاء النذور • وكيف تدعوني ولا اجيب ؟ وكيف يسأل عني في المعبد ولا أعلم • لا شك ان ولدنا سامان لم يسأل عني او لعله سأل غير العارفين » •
فحرق المرزبان اسنانه غيظا وقال : « بل هو لم يسأل عنك • ولا ادري غرضه من ذلك او لعلني أدري ولا افول ، ولقد آن وقت الجزاء وهذا اخي الافشين شاهد » • ثم صفق فدخل الحاجب فقال له : « لا تأذن لاحد علينا واغلق الباب » •

كانت جهان قد غادرت الغرفة منفعة مضطربة لمفاجأتها بقدوم الافشين ، ولما لاحظته من اهتمام ايها باعداد الورق والدواة والقلم • فسارت تورا الى ضرغام فرآته واقفا بالايوان وحده ، فأنستها رؤيته هواجسها ، وسرى عنها • اما هو فتقدم نحوها وسألها عن ايها ، فقالت : « انه أحس حالا من الصباح وقد ذكر انه كان يتمنى ان تكون لي في مكان اخي سامان • فليته علم انك خير منه مكانا » • قالت ذلك ونظرت اليه نظرة أغنته عن شرح كثير •

فقال لها وعيناه تضحكان : « اشكرك على حسن ظنك يا جهان • وكيف تركت أباك الان ؟ »

فتنهدت وقالت : « ألم تعلم بمجيء الافشين والموبذ ؟ »
قال : « هل جاء الافشين ايضا ؟ اني لم أر وردان بعد » •

قالت : «اتيا معا .. هذا الذي كنت أتخوفه !» ولكن لا بأس ما دام
ابي احسن حالا» .

قال : «وأيّن هما ؟» . قالت : «هما عنده في خاوة وقد خيرني بين
البقاء معهم وبين الخروج ففضلت الخروج المتخلص من رؤيتهما ولكي
أناهد حبيبي ضرغاما» .

قال : «لعل خلوتهم ستطول . فهل تأذنين لي بالانصراف برهة
ثم اعود ؟»

قالت : «الى اين تتركني ؟»

قال : «اذا شئت بقيت . ولكنني ان اطليل الغياب» .

فأت : «اذهب في حراسة أورمزد ولا نبطىء» .

فلما سمعها تذكر أورمزد قال : «لقد أذكرتني شيئاً لا بأس من
سؤالك عنه فهل اقول ؟»

فحدقت في عينيه فقرأت فكره وقالت : «أظنك ستسألني عن أورمزد
وانت تدين لغيره أليس كذلك ؟»

فدهش لفراسنها وقال : «نعم هذا سؤالي» .

قالت : «اني أدين بما ندين به لاني لا احب فراقك في الدنيا ولا في
الآخرة» .

ففرح لتعلقها به وقال : «ولي سؤال آخر !» . قالت : «قل ما
بدا لك» .

قال : «انت تعلمين غرام والدتي بالاقامة بالعراق لسر لا أعلمه» .

فقطعت كلامه وقالت : «اني اكون حيث تشاء انت ، فان الدنيا كلها

حيث نقيم . ولا يهمني شيء ما لنا في فرغانة او غيرها» .

فقال : «قد نلت الان ما أتمناه وقبضت على السعادة بيدي» . فهل

تأذنين في ذهابي لأرى رجال الوفد الذين صحبتهم فأتخلص منهم ثم

آتي الليلة ؟»

قالت : « اذهب في حراسة الله » • فودعها وخرج بعد ان أرسل من يستقدم وردان •

- ٨ -

موت المرزبان ووصيته

خيل الى جهان ان قلبها يتحفز للذهاب في اثر ضرغام ، فتماسكت واسترجعت رشدتها وفكرت فيما هي فيه من اسباب القلق والاضطراب لمرض اييها فانه اذا مات تصبح يتيمة ليس لها الا أخوها ، وهو لا يؤمن جانبه ولا يعول عليه • وذكرت خلوة اييها بالموبذ والأفشين فخفق قلبها خوفا من تلك الخلوة وفامت في ذهنها هواجس كثيرة ومخاوف شتى ، لما تعلمه من مطامع الموبذان ودسائسهم ولاسيما بعد ان تحولت الكهانة الى مرتزق لهم ومورد للاموال •

والمقائد اذا تقادم عهدا وتولاها اهل المطامع دب اليها الفساد وأصبحت شرا على الناس من الكفر • وعلى ذلك لم تكن جهان شديدة الاخذ بأسباب دينها • وانما كانت على الزردشتية مذهب اييها على غير نفهم او نقد ، لانها ولدت فيها فشبت عليها كما تثبت على سائر عاداتها وأخلاقها • وهذا شأن السواد الاعظم من العامة فانهم يدينون بمسألة يألغونه من صغرهم ، واذا كبروا وتثقفوا ودلهم العلم على مظنة للنقد فيه اغتفروها في جانب ما غرس في قلوبهم وعقولهم من مبادئه ، فأصبح

الدين كالجنس يفضب له المرء وينصره غيره وحمية كما ينصر عرضه ويذب
عن حياضه •

وكانت تنظر الى الموبدان وأمثاله مستخفة بما يقولونه ويزعمونه ،
فلم تكن تحذرهم لاعتقادهم انهم يعجزون في كل شيء عدا اكتناز
الاموال • فلم يكن اختلاء الموبذ بأيها ليهما لو لم يكن الافشين معه
وهي تكرهه بلا سبب ظاهر • وتخافه لانه ملك ذو أعوان وجند • على
ان أباهما كان يجله ويعول عليه •

ووقع نظرها عفوا على بساط في الغرفة رأت عليه من الرسوم
المزركشة صورة أسد رابض عيناه كأنهما ترارتان فتذكرت حبييها لان
اسمه من اسماء الاسد • فلما ذكرته ذهبت مخاوفها لعلمها بأنه ما دام
بفربها فلا خوف عليها •

بقيت جهان مستغرقة في هواجسها ، حتى سمعت وقع أقدام ادركت
انها لخيزران القهرمانة فحقق قلبها توقعا لخبر تسمعه فلما دنت منها
قالت : « ان سيدي المرزبان يدعوك اليه • تجلدي يا جهان وكوني كما
أعهدك » •

فأوجست خيفة من تحذيرها ولم تسألها عن السبب اعتمادا على
قدرتها في تحمل الصدمات ، وأكبرت ان تبدي جزعا فمشت مسرعة •
وذكرت انها ستري الموبذ والافشين عند ايها فانقبضت نفسها وظلت
سائرة حتى وصلت الى باب الغرفة فوسع لها الحاجب فدخلت وعيناها الى
سرير والدها • فرأته مستلقيا وعيناه شاخصتان الى الباب وقد غشيها
الدمع وتكسرت أهدابهما من البكاء • وحالما وقع بصره عليها ابتسم
ابتسامة لا حياة فيها ، ولولا بريق تينك العينين وما يتجلى فيهما من
الحنو والمحبة لظنته ميتا • فتمالكت ودنت من السرير ، فلما رآها أحس
بنشاط جديد فبسط ذراعيه وفتح فاه ليكلما فامتنع عليه النطق فاكتفت

بحركات شفقيه وترامت على صدره ، ولولا ثبات جأشها لأغمي عليها
لأنها تحققت في تلك اللحظة انها لا تلبث ان تصير يتيمة وحيدة .
فأمسكت بذراعي ايها المحتضر ونظرت في وجهه نظره الاستعطاف
كانها تتوسل اليه ألا يتركها : فسبقتها العبرات وبكت وهي تمسك
أنفاسها لئلا يسمع شهيقها وأطرفت لئلا تظهر دموعها .

اما هو فلم يفقه ما خامر قلبها من الحزن والخوف ، وأراد تعزيتها
فعصاه النطق ولم يزد على ان حرك شفقيه وحول نظره وأشار بيده الى
الأفشين والموبذ . فالتفت فرأت الافشين جالسا وفي يده لفافة من
الورق فلما رآها نظر اليه بعد اشارة ايها اراها اللفافة وابتسم لها كأنه
يعزيها . وكان الموبذ واقفا بجانب التمثال يصلي وينضرع فالتفت اليها
وهو يظهر الاسف والحزن . ففهمت جهان خلاصة ما تم في تلك الخلوة
وهو ما كانت تخشاه وتحذر الوقوع فيه . وأعادت النظر الى المريض
وصاحت : «ابي كيف انت ؟ انك في خير» .

فأراد ان يجيبها ويطمئنها والحشجة تمنعه من الكلام ، فجلست
بجانبه وامسكت يده فوجدتها تندي بعرق بارد ، فكادت بصيح وتولول
لأنها تحققت انه في آخر ساعات الدنيا ، وتجلدت لكنها لم تستطع
امساك دموعها فأطرت والدمع يتساقط على خديها وفد زادهما احباس
العواطف توردا وزاد عينيها بريقا . وأما المريض فان سرعة تنفسه وخرير
صدره ودنو أجله لم يفقده شيئا من رتده ولا أنسته ابنته الحبيبة ،
وجاهد كي يطلق لسانه بكلمة يقولها ولكنه غلب على امره . فلما تحقق
عجزه عن الكلام اشار اليها ان تخرج لعله ينام . فوقفت برتعد متردده لا
تدري أتطيعه فتخرج ام تبقى بين يديه .

ثم رآته قد ازدادت حشجة صدره وأخذ يدير رأسه ويلتفت كأنه
يحاول النهوض ولا يقوى عليه ، وأخيرا حلق نظره في جهان فتطلعت

في عينيه فرأت ماءهما قد جف وذهب منهما بصيص الحياة وكأنه هم بأن
يسقط يديه نحوها فلم ترغعا الا قليلا ثم شهق وأرخى يديه وسكن
صدره وهمد جسمه وأظلمت عيناه وتراخت أجفانه وبرز أنفه ووجنتاه .
واصفر اصفرار الموت ونبش شعر لحيته ورأسه حتى أصبح منظـره
مروعا مفزعا ، فصاحت جهان : «وأبتاه !» . وحلت شعرها ولطمت
وجهها وسمع اهل القصر صوتها ، وبلغ الخبر الى القهرمانسة فركضت
وأخذت بيد جهان وراحت تخفف عنها وتعزيها .

ولما فضي الامر اخذ اهل القصر في اعداد المآتم كما هي عادة
المجوس ، ففعلوا الجثة وألبسوها ثوبا ابيض ووضعوها على دكة في
غرفة كبيرة أدخلوها من الاناث ، وجلس الأخصاء حولها . والموبذ يصلي
ويدعو وهم يؤمنون ويستغفرون . وبعد هنيهة جاء سامان وكان غائبا
عن البيت وأخذ يندب آباءه والناس يخفون عنه ، وأما جهان فبعد ان
استسلمت للجزع ساعة الوفاة رجعت الى نفسها فغلب عليها التعقل
واعمال الفكر . وكانت تفكر في ضرغام مصدر تعزيتها الوحيد فأخذت
تنلفت لعلها تجده فادما فنغزى برؤيه ومحاطبته .

ثم اشار اليها الموبذ ان تتبعه الى غرفة اخرى ، ومشى فتبعته مطأطئه
الرأس ، وتبعهما سامان فلما خلا الموبذ اليهما قال : «لا ينبغي ان نبالغا
في الحزن على اخينا الراحل ، فان أورمزد معه لانه كان رجلا نقيـا
محسنا ، وسنوقد النيران على اسمه ثلاثة ايام ونجعل وفودها السد
والصندل . ولا يخفى عليكما ان روح ابيكما لم تفارق هذا المكان بتد
ولا تفارقه الا بعد ثلاثة ايام فلا تحزنـاها بالبكاء والنوح . وقد اوصى
بتفريق الحسنات والمبرات وهو لا ريب عندي من اهل النعيم . ولذلك
فان روحه بعد ان تقضي ثلاث ليال حول الجثة يصعد الى الاماكن المباركة
فتلاقي ضميره على هيئة حورية تقص عليه حسناته وتقوده الى النور

الابدي . كما اتنا سنوالي الصلاة على روحه طول السنة فلا تجزعا .
على اني أبلغكما وصيته عن دفنه» .

وكانت جهان تسمع مطرقة وتتلقى دموعها بمنديلها ، فلما قال ذلك
رفعت بصرها اليه وفي عينيها ملامح الاستفهام فقال : «لقد اوصى بأن
ندفنه في برج السكوت» .

فلما قال ذلك بانت الدهشة على وجه الفتاة وأخيها وقالت : «كيف
ذاك ؟» . انما يدفن في برج السكوت عامة الناس والفقراء ، ومثل ابسي
يدفن في حجرة خاصة» .

قال : «نعم ولكنه اوصى بدفنه هناك ، وأسر الي السبب الذي بعثه
على ذلك ولا أقدر ان ابوح به» .

فاكتفت بقوله وسكتت ، أما سامان فلم يسكت وقال : «كيف ندفن
أبانا المرزبان في برج السكوت وأنت نعلم انه مدفن العامة ، توضع فيه
الاجساد على أحجار تعرضها للهواء وتذهب طعاما للنسور والكواسر فلا
يبقى منها الا العظام ثم تطرح هذه في البئر العميقة وسط البرج فتختلط
بعظام الطعام والمجرمين و...»

فاستغرب الموبذ اعتراضه ولم يعرفه الفانا وانما قال له : «هذه
وصية الفقيد بحضور مولانا الافشين وقد دونها في وصيته التي ستنتى
عليكم بعد بضعة ايام» . قال ذلك وتوجه الى قيّم القصر فأوصاه بما
ينبغي اعداده للدفن .

وقضى القوم بضعة ايام في المأتم وتوابعه من مراسم وتعمير
واحسانات وصلوات . وطال انتظار جهان رجوع ضرغام ، وشغلت
لابطائه وزادها هذا حزنا على حزنها ، وغم عليها ان المهمة التي ذهب
فيها قد تستغرق اسابيع ، والمحـب كثير القلق سريع التخوف . ولكنها
آنست من اخيها سامان تقربا وتلطفـا لم تعهدهما فيه قبلا . فلم يعد

يفارقها لحظة ، وكلما رآها تتضجر خفف عنها • ولم يكن غافلا عن تعلقها بضرغام وان لم يفتحها في شأنه من قبل ، فأخذ يكثر من ذكره وبالغ في الثناء عليه ، مع انه كثيرا ما كان يحسن لها غيره ولاسيما بابك الخرمي • وكان سامان لا يعرف الحب ولا يشعر بجواذب المحبين ولكنه لذكائه ودهائه لم يكن يخفي عليه امرهم وأوجه الضعف فيهم • ورغم قوة فراسة جهان وسوء ظنّها بأخيها ، كانت تنفذ بحديثه ، وسرها انه يحب حبيبها ويعجب بمناقبه وبسالته : فاستأنست به وأخذت تناسي ما كانت تعهده من نقائصه او تخافه من مطامعه •

ذلك هو سلطان الحب ، يعمي ويصم فمهما أوتي صاحبه من الحكمة والتعقل فانه يفقدهما اذا وقع في شراكه : وقد يبقى حكيما في كل شيء ، وقد يعد من كبار اهل الدهاء والسياسة او من كبار العلماء او الشعراء او الفلاسفة ، ولكنه ازاء الحب يكون كالطفل يقاد بخيط ، وقد يغلب عليه الوهم في بعض الاحوال حتى يصدق المستحيل ويعتقد الخرافات اذا كان في ذلك ما يسهل عليه أمنية او يطئن له قلبا • ومن هنا نرى الاب الحنون مهما يبلغ من اثاره الخرافات اذا مرض ابنه وفشلت في علاجه حيل الاطباء قادت رغبته في شفائه الى تصديق ما يصف الدجالون !

* * *

بقي الموبذ والافشين يترددان على قصر المرزبان اثناء المآتم قياما بواجب العزاء ، وسامان في شوق الى معرفة وصية ابيه • فلما انتهت المآتم جاء الموبذ وطلب الاختلاء بجهان وأخيها : فلما اختلوا اخرج من جيبه أسطوانة من فضة فتحها وأخرج منها درجا ملفوفا وقال : « هذه هي

وصية ايكما التي عهد بها الي مولانا الأفشين بحضوري» • والتفت الى جهان وقال : «والحق يقال ان أباك قد أحسن الاختيار بالقاء مقاليد الوصية الى صديقه الأفشين» •

فأصاحت جهان بسمعها وسامان جامد لا يتحرك • ففتح الموبذ الدرج وقال : «وقد أوصاني مولانا الأفشين بأن أبلغكما الوصية ثم أدفعها اليه فاسمعاها وتفهماها» • ثم اخذ يتلوها متمهلاً ، وهذه هي :

«هذا ما عهد به المرزبان طهماز في فرغانة ، في اخر يوم من ايام حياته . الى الملك الأفشين حيدر بن كاروس صاحب أشروسنة وفائد جند المعتصم ، بحضور الموبذ صاحب بيت كارشان شاه وبسعونسة اورمزد العظيم . في اليوم العاشر من شهر خرداد ماه من السنة ... للاسكندر . «يعهد المرزبان طهماز الى الافشين حيدر بن كاروس ملك أشروسنة وقائد جند المعتصم بأن يكون وصيا على اهله من بعده يتصرف فيما خلفه من مال وعقار . فيما يعود على الورثة بالخير ، بمقتضى هذه الوصية • ولم يخلف المرزبان طهماز من الورثة الشرعيين غير ولدين ، هما الفتى سامان ، والفتاة جهان ، وقد اوصى بما يملكه جميعه لابنته جهان وحدها فهي الورثة للقتل بما فيه والضياع وما فيها من ماشية ودواب ومنشآت ، ولها كل ما خلفه من جارية ورفيق واثاث ومصوعات وآنية ونقد • يكون ذلك كله ملكا لها بشرط اشراف سديقنا الافشين عليه وتديره بما يلهه أورمزد اليه من اسباب النفع لها •

«اما ولدنا سامان فانه محروم من هذا الميراث كله لا يصير اليه منه مال ولا عقار الا ما يكفي لمعيشته على ما يفدره الوصي • وأما سبب حرمانى اياه فلم اشأ ان أدونه في هذه الوصية . ولكن لكيلا يلقى مجهولا ويذهب معي الى القبر قصصته على الوصي بحضور الموبذ . على ان يبقى مكتوما عندهما الى حين الحاجة •

«هذه وصيتي كُتبت امامي ، وقد صدرتها وختمتها بتوقيعي . وشهد
فها الموبذ : ومن أخل بحرف منها كان ملعونا خسين اعنة . وقد فعلت
كل ذلك باختياري وأنا في سلامة العقل .
«وأوصيت ايضا ان أدفن بعد موتي في برج السكوت في ضاحية
فرغانة . ونترك جثتي طعاما للكواسر .
«وأورمزد يتولى القيام بهذه الوصية ويعين صديقي الافشين على
العمل بها» .

وكان الموبذ يقرأ وسامان وجهان صامتان ، حتى بلغ الى حرمان
سامان من الارث فغير وجه الشاب وامتعق لونه ، ولكنه نجلد وكظم
حتى فرغ الموبذ من تلاوة الوصية فقال له : «كيف حرمني ابي من حقي
وأنا ابنه الوحيد ؟ هذا لا يكون ابدا . انا وارث اسم ابي ولقبه وأما
العقار فلي ولأختي جهان !»

فقال الموبذ : «قد قرأت عليكما الوصية ولا سبيل الى غير ما فيها .
والراي في كل حال رأي الافشين . وقد فرغت من رسالتي فائذنا لي
في الانصراف ، وسيأتي الافشين فيتولى العمل بالوصية ، والدولة
تساعده على تنفيذها بالقوة ، فأنصح لك يا ولدي بأن تصبر على ما فاتك
من ارث والدك» . قال ذلك وخرج مسرعا وخرج سامان يشيعه الى
سلم الايوان . فلما ودعه ونزل الحديقة وقف سامان ينظر اليه ويحرق
اسنانه ويقول في نفسه : «هذا ما كنت اخافه من مجيئك يا موبذ
النحس ، كم أرسلني ابي لطلبك وأنا أماطل وأحتال لتأخير حضورك خوفا
من مثل هذه الوصية لاني كنت أشعر بسا في نفس ابي علي . نعم انا
أعرف سبب غضبه وما كنت أظنه عرفه ، ولكن ذلك لا يحرمني من حقي
في الميراث . صدقت يا موبذ ان الامر بيد الافشين اللعين وهذا أطمع
من نملة . ولعله سعى في الوصاية ليستولي على التركة ويحرمننا منها

جميعا . آه لو كانت جهان تطاوعني لكننا نكيد له كيدا عظيما ، ولكنها شديدة التمسك بما يسمونه شرف النفس والارحية على اني سأكيد لهم جميعا» . وكان يناجي نفسه بهذه الخواطر وهو ينظر الى الموبذ الذي غادر الحديقة وركب فرسه وسار في سبيله ، ثم رجع سامان الى اخته . وكانت قد شق عليها ان يكون الافشين وصيا عليها ، ولكنها رأت ألا مفر من ذلك . كما شق عليها حرمان اخيها من الارث ، فقالت له : «طب نفسا يا اخي ، انك لن تلاقي ضيما وأنا على قيد الحياة . فأنت اخي وأنا أعوضك عما فاتك من الميراث» .

فأطرق ولوى عنقه تذلا ومسكنة ، ثم رفع بصره والدمع في عينيه وقال : «لم يسؤني حرمانني من الارث بقدر ما ساءني سببه ، فأني ذنب ارتكبته حتى أعامل هذه المعاملة ؟»

قالت : «لا أعلم السبب ولا يعلمه الا الافشين ، وسيسافر الى بغداد ونبقى نحن والمال بين أيدينا نتصرف فيه كما نشاء» . فشكر لها عطفها عليه ، وكظم ما في نفسه ، وشق عليه ان يطلع الافشين والموبذ على سبب حرمانه فسكت ، وجلس يفكر في تدبير المكائد ونصب الجبائل ، وخاف ان تتنبه أخته لما في ذهنه فشغلها بذكر ضرغام فقال : «لقد ابطأ علينا البطل ضرغام ، ولا بد لتغيبه من سبب قهري» .

قالت : «يلوح لي انه بعيد عن فرغانة ، فلو كان فيها او قريبا منها لما فاته خبر المصيبة التي حلت بنا . ولعله يعود قريبا» . فقال : «لو كان هنا لخفت المصيبة علينا . اني أستأنس بطلعته . لقد سموه ضرغاما وهو اسم على مسمى . وكم فيه من خصال تندر في سواء ؟»

فوقع ذلك الاطراء في نفس جهان وقوع الماء على الظمآن . ومع

علمها ان اخاها يمدحه مجاملة لها ، اسرع لسماع الحديث عن تعجب ،
وأخذت تغالط نفسها في ان اخاها يحبه ، وانها كانت مخطئة في زعمها
الاول !

وبينما هما في الحديث اتت القهرمانة تنبئ سيدتها بمجيء ضرغام؛
فخفق قلبها ونسيت حزنها . ولكنها بكت اذ تذكرت اعجاب ايها به وما
كانت تتوقعه من السعادة لو بقي حيا . ثم تجلدت وابتسمت له عندما
رأته . فحيها وأخذ في تعزيتها . ثم تحول نحو سامان وعزاه فقال
سامان : « ان لنا في بقائك تعزية كبرى » .

ومشت جهان الى غرفتها فتبعها ضرغام بلباس السفر فدعته السي
الجلوس وقالت : « لقد كانت مصيبتنا مضاعفة لغيابك يا ضرغام » .
قال : « كنت في مكان بعيد اضطرت للذهاب اليه تعجيلا للفراغ من
المهمة التي جئت لانجازها ، ولكن .. » . وسكت فسأته : « وماذا جرى ؟ »
قال : « جاءني امر الخليفة يستعجلني بالرجوع » .
فأطرقت ثم قالت : « ان سفرك يسوءني كثيرا ولكنني .. »
فقطع كلامها قائلا : « سأبقى في فرغانة ، لان فيها قلبي وعقلي وكل
جوارحي » . واتبه الى ان سامان يسمعه . فأجفل وخجل . فقالت له :
« لا تخجل . ان اخي عالم بما بيننا ، وأراه يحبك كثيرا ويعجب بيسالتك
ومناقبك . وليس ما يمنعنا من العلانية . أما بقاؤك هنا فهو أمنية
حياتي ، ولكنني ارى ان تلبي طلب الخليفة لانه أكرمك ورفع منزلتك
وقد يكون في حاجة الى حسامك او رأيك . وهل لم يرسل الخليفة في
طلب الافشين ايضا ؟ »

قال : « لم يبلغني شيء عن دعوته ، ولكنني أظنه يطلبه قريبا لان الامر
حرب والافشين كبير القواد . ولكن كيف أسافر وأنت في هذا
الحزن وكيف أطمئن وأنت .. »

فقطع سامان كلامه قائلا : « لا بأس عليها لان أبانا عهد الى مولانا
الافشين بتولي شؤونها » . وارتجفت شفتاه من الغضب والحقد .
فالتفت جهان اليه وقد شق عليها ان يفشي ذلك لضرغام فيقلقه . وهذا
شأن المرأة العاقلة فانها تكتُم متاعها عن رجلها ولا تظهر له الا ما يسره،
ما لم تضطر الى غير ذلك .

وعجب ضرغام مما سمعه عن وصاية الافشين ، ونظر الى جهان
مستفهما فقالت : « ان الافشين صديق لابي . وكان يثق فيه كثيرا . فأراد
ان يكرمني ويهيئ لي اسباب الراحة بعد موته فأوصاه بي بعهد كتبه له
وأشهد الموبذ عليه . وما في ذلك شيء غريب » .

فأطرق وأعمل فكرته ، فرأى ان الافشين معه في العراق ، فوصايته
خير من وصاية رجل من اهل فرغانة لا سبيل له اليه . فمال الى السفر
وأحب ان يسمع رأيها في سفرها معه ، فنظر اليها وعيناه تسبقانه الى
الكلام وهي لا تحول نظرها عنه فقال : « اذا كان الامر كذلك فقد يبقى
الافشين هنا اياما ليدبر ما عهد فيه اليه ، وفي هذا ما يطمئنك في بعدنا » .
فأدركت غرضه وقالت : « لا يطول بقائي هنا الا ريثما تنقضي عدة
الحداد ، ثم أسافر الى بغداد » . فاني لم اعد اطيع البقاء في هذا البلد بعد
وفاة ابي ، وقد اصبحت رغم ما القاه من مؤانسة الفرغانيين ومحبتهم
أشعر بأنني غريبة بينهم ، ولا سيما بعد ان تسافر » .

وكان سامان يسمع ما يدور بينهما ولا يشعر ، لان قلب الاجرود
مغلق لا نافذة فيه ولا سبيل للحب اليه ، ولكنه رأى من الحكمة ان
يجاريهما فلما سمع كلام أخته قال : « ان جهان ولا شك مشتاقة الى رؤية
والدتك في بغداد ، فهي صديقتها وكانت تحبها وتأنس بها » .

فالتفت جهان الى اخيها لفته تأنيب وقالت : « انا لا احب غير الصراحة،
لكأنك تظنني أخشى التصريح بحبي ضرغاما ، على اني لا ارى في الحب

عاراً ، ولو مد أوزمزد في أجل أبي عاماً آخر لا تنهى الأمر على ما تمنيناه .
فماذا ترى أنت ؟»

فقال سامان : «لا أرى بأساً بحبك ضرغاماً . انه أهل لذلك ولو لم تسبقني الى حبه لسبقتك انا اليه . لولا انه لا يرضى بهذا البذل ا»
فراقها مزاح اخيها ، على ما في قلبه من الغيظ منذ سمع الوصية .
ولكنها كانت تعرف فيه الكظم والدهاء والحق . فلما سمعت مزاحه نظرت اليه شذراً في غير غضب ، ثم وجهت كلامها الى ضرغام قائلة : «ان سفرك يسوءني ، ولكنه واجب ، ولا يمضي الا القليل حتى ألحق بك» .
فقطع سامان كلامها قائلاً : «وأنا اكون في خدمتها حتى اصل بها اليك ، او الى والدتك» .

فأتمت كلامها قائلة : «ولا تظن شيئاً من حطام الدنيا يحول بيني وبينك وقد أكتب اليك قبل سفري» . قالت ذلك وهي تشعر بما يهددها من التعب ولكنها كانت كثيرة التعويل على نفسها كبيرة الثقة بتدبيرها .
أما ضرغام فكان يخشى ان تمنعه من السفر وهو راغب فيه تحقيقاً لآماله ، فلما رآها تدعوه اليه زهد فيه وآثر البقاء . فسكت وهو لا يعلم بماذا يجيب . فأدركت تردده فقالت : «ان بقاءك معي اكبر اسباب سعادتي ، ولكن القائد الباسل ليس من شأنه الا ان يلبي الدعوة ، فما بالك وهي موجهة اليه من الخليفة مالك رقاب الناس ؟»

وقال له سامان : «كن مطمئناً فاني في خدمتها حتى تصل اليك سالمة» .

ولم يكن ضرغام ممن يتخلفون عن أداء الواجب ، ولكنه ظن ان في سفره وحده ما يسوء جهان ، لانها لا تستطيع مصاحبته قبل انتهاء ايام الحداد ، فلما رآها ترغبه في السفر سرى عنه فقال : «اذا كان هذا ما تريدان فأنا طوع امرك ، وغدا أسافر ان شاء الله» .

وأحس سامان بثقل وجوده هناك في تلك الساعة ، فنهض بحجة ان لديه أمورا خاصة لا بد من ذهابه لانجازها ثم يعود ، فقالت له جهان : «لا تطل غيابك كمادتك فقد تغيرت الاحوال الان وأصبح وجودك في القصر ضروريا» .

فأشار مطيعا وخرج مسرعا يتعثر بأذيال قبائه . أما ضرغام فلما رأى نفسه في خلوة مع جهان شعر كأنه في عالم غير هذا العالم ، ونسسي السفر والحرب والرتب والالقاب ، وتمنى لو تتحول تلك الساعة الى دهر او تمتد الى الابد ، لا يلتبس معها طعاما ولا شرابا ولا ثراء ، كأنه تجرد عن المادة ورأى في تقارب روجيهما معنى لا يشوبه شيء مما يفتقر اليه البدن او تجر اليه الشهوات . والحب تجاذب بين الارواح لا يفسده او يضعفه غير الجسد بشهواته وميوله . ولذلك لا يريح قويا ما دام عذريا . فمن رغب في بقاء الحب فلينزله عن شهوة الجسد . فاذا بادل المحب حبيته حبا بحب اتته السعادة صاغرة وأنبا الملائكة الذين عجزوا عن تشييل النعيم انه استمتع الارواح بالحب الطاهر المنزه عن أغراض الجسد - وقد يعد الناس هذا الحب خيالا شعريا ، ولكن ما أدرانا ان هذا الخيال لا يكون حقيقة في وقت من الاوقات .

ولا خلاف على كل حال في ان اجتماع الحبيين بعد فراق طويل ، مثل اجتماع جهان وضرغام ، يمثل السعادة الحقيقية . ولعل جهان كانت أشد شعورا بتلك السعادة بعد ما نال الحزن من قلبها بموت ايها . والنفس الحزينة أحوج الى التعزية وأشد شعورا بها من سواها .

فأخذا يتجاذبان أطراف الحديث ، وما حديثهما الا التشاكي ، وقد نسيا موقعهما وطال حديثهما ، ولو لم تدخل عليهما القهرمانسة خيزران لبقيا في غفلة عن الوجود وأهله .

وكانت خيزران لا تترك جهان برهة طويلة وحدها لئلا تستسلم

للاحران ، وكانت تحسبها وحدها بعد خروج سامان فأتت تفتقدها ، فلما رأت ضرغاما عندها خجلت وتراجعت ، فنادتها جهان فدخلت وقد أذهلها ما رآته في ذينك المحبين من ظواهر الهيام كتورد الوجنتين وبرق العينين وشخوص كل منهما الى رفيقه يبصره وسمعه ، فأيقظهما دخولها ونقلهما من عالم الارواح الى عالم الاجساد . فحيت ضرغاما وسألت جهان عن حالها وعما تحتاج اليه . فقالت هذه : «لا أحتاج الى شيء . ولكن كيف رأيت ضرغاما يا خيزران ؟»

فأجفلت القهرمانه لانها لم تكن تتوقع سماع هذا السؤال وقالت : «تسأليني عن رجل وقع منك هذا الموقع وأنت أعلم مني بأقدار الناس . فمن اين لمثلي ان تبدي رأيا ، وغاية جهدي ان أتوسل الى السى أورمزد ليمنحكما ما تتمنيان» .

ثم سألتها عن سامان فقالت : «خرج من القصر على ان يعود على عجل . فمضى ان يصدق» .

ووقفت فوق ضرغام وقال : «أتأذنين لي في الانصراف ؟» . فقالت : «يعز علي سفرك ، ولكن ..» . ثم تجللت وقالت : «سر محروسا وكن مطمئنا فاني لا ألبث ان ألحق بك فقد كرهت الاقامة بهذه البلاد» . فودعها وخرج ، وكان وردان في انتظاره مع بعض اهل القصر فأمره باعداد ما يقتضيه الرحيل الى العراق .

- ٩ -

بين الافشين وجهان

عادت جهان الى القاعة وقد فارقتها قلبها وفقدت رباطة جأشها ، فندمت

على ترغيب ضرغام في السفر ، وأخذت تفكر فيما هي فيه فعزمت على اخذ أمورها بالحزم والتعقل حتى تتخلص من تلك الوصية او ترى سبيلا آخر .

ومضى النهار وسامان لم يعد . وفي اليوم التالي نهضت مبكرة وضفرت شعرها ولبست ثوبا اسود وتزملت فوقه بمطرف من الخبز الاسود ، وغطت رأسها بنقاب اسود ووجهها من وراء ذلك السواد كالقمر ، لو ان في القمر تلك المعاني ، او لو كان فيه مثل تينك العينين الساحرتين !

وخرجت الى الحديقة تمشي بين اشجارها متشاغلة بالتنقل من شجرة الى اخرى حتى وصلت الى مقعد فقعدت واستغرقت في تأملاتها ، واذا بالقهرمانة تأتي مسرعة تقول : «سبدي . انت هنا ؟»
قالت : «ما وراءك ؟»

قالت : «جاء . . جاء الافشين وهو يطلب ان يراك» .
لم تستغرب جهان الخبر لانها كانت تنتظره بل فرحت بقدومه لتعرف غرضه عسى ان ترى وسيلة للنجاة من وصاينه . فنهضت وسألت : «اين هو ؟» . قالت : «في الايوان ينتظر قدومك» .

فمشت مشية الجلال كأنها ملك يحف به الاعوان لا تبالي ما ينتظرها لاعتمادها على قوة جناها وعزة نفسها ، حتى اتت القصر ، فصعدت الدرجات المؤدية الى الايوان متشاغلة بمخاطبة القهرمانة في شؤون لا اهمية لها ، حتى أطلت على باب الايوان فرأت الافشين جالسا متصدرا . فلما رآها خف لاستقبالها . وهو يومئذ في نحو الستين من عمره وقد خضب لحيته حرصا على مظاهر الشباب . وكان طويل القامة كبير العينين مستطيل الوجه والعنق ، وقد تجعد جبينه وبرزت وجنتاه ، وعلى رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة من الخز الموشى ، ولبس قباء بني

اللون تظهر السراويل من تحته ترف على قدميه ، وفوق القباء جبة سوداء . • تمنطق تحتها بمنطقة مرصعة علق بها سيفاً قبضته مرصعة . • ومشى لملاقاتها مشية معجب بمنصبه ، يحسب الترحيب بها تلتظفاً أو تنازلاً . • فلما دنا منها ابتسم وقال : «مرحبا بعروس فرغانة . كيف انت اليوم ؟» • ومد يده لمصافحتها فمدت يدها فأخذها وتباطأ في الافراج عنها ، فاقشعر بدنهما وأحست بنفور دلها عليه قلبها ولكنها أجابته عن سؤاله فقالت : «اني في خير ، تفضل اجلس» •

فتشاقل حتى جلست ، ثم جلس على كرسي امامها وعيناه لا تتحولان عن وجهها ، فلمحت فيهما معاني زادتها نفورا منه فأطرقت حياء وترفعاء . فحمل ذلك منها على محمل الحزن فقال لها : «ان المصيبة التي أصابتك كبيرة يا عزيزتي ، لان موت ابيك رحمه الله خسارة لا تعوض ، وأنت تعلمين ما كان بيننا من صلوات المودة ، ويؤكدنا انه قد وكل السي الاهتمام بشؤونك بعده ، ولم يفعل الا لعلمه بمنزلتك عندي . ألم تسمعي ذلك منه في حياته . . ؟ ألم يقل لك كم انا معجب بتعقلك وذكائك » •

فاستغربت دخوله في الحديث على هذه الصورة ، ولكنها سايرته فقالت : «كثيرا ما سمعت ابي يذكر مودتك ورفعة مقامك ، والافشين صاحب أشروسنة مشهور ليس في فرغانة ولا أشروسنة من لا يعرف اسمه او سمع بأعماله» •

فسره اطراؤها وجراه على التقدم خطوة اخرى نحو الغرض الذي طالما كتمه فقال : «لم أسألك هذا السؤال لأسمع اطراءك ومدحك وانما اردت سماع الجواب عن سؤالي . فهل لم تسمعي من ابيك عما لك من المنزلة عندي ؟»

فلم يفتها ما يعنيه او يضمره ، ولكنها تجاهلت وقالت : «لا أذكر اني

سمعت شيئاً من ذلك ، ولا أظنك أحسنت الظن بي الا لانك تعدني من بعض اولادك كما تعد ابي اخاك ، فشكرا لك على هذا الاحساس ، وهذا ما يشجعني على ان تجيئني الى طلب لي عندك» .
قال : «وما هو ؟» . قالت : «رأيتك تشي على تعقاي وذكائي ، فاذا كنت عند حسن ظنك فما معنى الوصاية علي ؟»
فضحك وقال : «ان الوصاية يا عزيزتي لا تسلبك شيئاً من هذه الخلال !»

فقلت : «انك ملك وقائد ، ولك من المهام والاعمال ما يشغلك عن الاهتمام بشي ، وأنت مقيم بالعراق وأنا بفرغانة ، فهل ألقيت أثقال الوصاية عنك ؟»

فقال : «كلا . كلا . اني لا استطيع ان أخالف وصية ابيك ، ومهما نكلفني من الاعباء فهي هينة ما دامت في سبيل خدمتك . وهذه أمنية طالما تمنيتها ، وأما البعد بين العراق وفرغانة فأمره سهل ، فاما ان تنتقلي الى العراق او أنتقل انا الى فرغانة ، ولا بد من ان نكون معا على كل حال !»

فتحقت غرضه ولكنها لم تشأ ان تفهم مراده فقالت : «لا اري باعثا على هذا الارتباط يا مولاي» .

فقال وهو يستعطفها : «لا تقولي مولاي» .

فقلت : «يا ابت او يا عماء كما تشاء . اني لا اري داعيا لهذا الارتباط» .

فقطب حاجبيه وابتسم ، ثم قرب كرسيه من كرسيها وقال : «ان قولك يا عماء يسيء الي اكثر من قولك يا مولاي . لماذا لا تخاطبيني كما أخاطبك ؟» . قال ذلك وأخرج من جيبه عقدا من الجواهر يساوي مالا كثيرا ومد يده نحوها والعقد يتلألأ في كفه وقال : «مالي أناديك يا

عزيزتي فتنادينني يا عمي ؟»

فحولت جهان وجهها عنه وهي تنظر اليه شزرا وتباعد كرسيها ،
ووضعت يديها وراء ظهرها وقالت : «لا يا سيدي ، لا حاجة لي الى
الجواهر ، فاني حزينة ولا اري مع ذلك مسوغا لهذا الخطاب» .

فأظهر استغرابه من نفورها وقال : «أهكذا تعاملين رجلا اقامه ابوك
وصيا عليك ؟ هبي اني من عامة الناس فاحترمي وصية ابيك» .

فقلت بصوت هاديء يزينه وفار وترفع : «كان الاولى ان تبدأ انت
باحترام تلك الوصية ايها الملك والقائد !»

فقال بنغمة الفائز الظافر : «أتظنين أباك لم يوص الا بما في تلك
الورقة ؟» انه اوصاني وصية شفاهيه لا بد لي من تنفيذها» .

فقلت والازدراء باد في شفيتها وعينيها : «لو كان ابي حيا ما قبل
منك ذلك» .

فابتسم وأبرقت عيناه بريقا أزعجها ، وقال بلحن الهائسم الولهان :
«هبي انه لم يقل شيئا من ذلك : ألا يكفي ان افوله انا . يلوح لي ان
ما ظننته من تعقلك وذكائك لم يكن في محله ؟» أسوق اليك ملك
أشروسنة عبارات التقرب والتودد وتجييبه بالخشونة والنفور ؟»

فنظرت اليه نظرة ملؤها الاستغراب والدهشة وقالت وفي كلامها
تهديد : «قف عند هذا الحد من التلميح ، واحذر ان تنزع الى التصريح .
ان ملكك وان ضخم لا يساوي عندي شيئا» .

قال : «يظهر انك لم تفهمي مرادي . ألم تفهمي بعد ؟ اني احبك يا
جهان . نعم اني احبك» . قال ذلك وقد ازدادت عيناه بريقا وبدا فيهما
الاحمرار .

فلما سمعت ذلك نهضت عن كرسيها ونفرت نفور الطبي من الاسد .
وقالت : «قلت لك قف عند حد التلميح فلم تصنع . أما وقد تجاوزته ،

فاعلم اني لا أسمح لك بمثل هذا الخطاب . وهل يليق بك. وقد اشتعل رأسك شيئا ان تخطب محبة فتاة اصغر من بعض ابنائك ؟»

فتنهذ الافشين تنهدا حارا وقال وهو يتذلل ويتلطف : «آ يا جهان. أتحيين الحب محرما-على غير الشبان ؟» اني ارى الكهولة أولى به وأقدر عليه . ان الناس مخطئون بما يتوهمون فلا شأن للسن بالحب». ثم اعتدل في مجلسه وأشار الى صدره وقال : «ان في هذا القلب من لواعج الغرام ما لا يتسع له صدور الشبان . ولقد كنت شابا وأنا اليوم كهل ، وأقسم لك بما تعبدن اني أشد كلفا وأعرق في الحب من قبل . ويدلك على ذلك اني وأنا الملك السيد والقائد الباسل أترامى عند قدميك لأخطب ودك وألتمس رضاك متذلا متصاغرا» . وترامى عند قدميها وقال : «فاذا اطعني رأيتني عاشقا يبذل نفسه في سبيل سعادتك، وكنت الملكة النافذة الكلمة في العراقيين وفارس وخراسان وأشروسنة وفرغانة . وان أيت وظللت على خطئك ..» .

فقطعت كلامه وهي تنظر في وجهه مستخفة وقالت : «انهض يا حيدر. انهض يا ابن كاروس . انهض يا ملك أشروسنة وارجع الى رشذك ودع ما تقول وأنا أصفح عنك وأغضي عما فرط منك وأكتم خبر جرأتك. انه لا ينبغي ان تكون فتاة مثلي أربط منك جأشا وأكثر تعقلا» .

فوقع كلامها وقع السهم في قلبه فنهض يحرق اسنانه وقال : «لقد قتلتني بعنادك ، فلا تحسبني عاجزا عن ارغامك ؟» وارجعي الى صوابك وفكري فيما عرضته عليك من اسباب السعادة ولا تعلمي عمل اهل الجهالة ، واعلمي انك وما تملكين في قبضة يدي. فاذا أطعني كنت انا وما أملك في قبضة يدك !»

فهاج غضبها ودبت الحمية في عروقها وحدثتها نفسها بأن تزيده نأيبا، لكنها امسكت لعلمها انها لا تقوى على مناوآته وهو ملك وعنده الجند

والاعوان ، وييده عهد ايها بالوصاية المطلقة عليها ، فلا ينصرها عليه حاكم ولا ينجيها منه سلطان ، الا اذا كانت في دار الخلافة فربما استعانت عليه بالخليفة فينصفها •

فأنت من الحكمة ان تستعين عليه بالتعقل والتدبير ، فتمالكته جأشها بما فطرت عليه من قوة الارادة وقالت بصوت خافت : «سمعتك تستمهلني ريثما أفكر فيما عرضته علي ، وأنا أمهلك لتفكر فيما قلته لك، ونرى بعد ذلك ما يكون •• وسأكنم ما بدا منك وأبذل جهدي فسي نسيانه حتى يكون مكتوما عني ايضا ، لاني أضن بصديق ابي ووصيه ان يقال عنه ما قد يقال عنك لو علم الناس افوالك • فهل تقبل ما اقوله لك ؟ وادا أبيت الا الطيش فأنا أولى بالطيش منك ولا تحسبني فتاة ضعيفة» •

فأحس الافشين بعظمة تلك الفتاة ، ولم يعد يقوى على النظر في عينيها ، كأن الغضب زاد كهربائيتها فتطير منها الشر • ووقع كلامها على رأسه كالصاعقة وقال : «ما انت فتاة ضعيفة ولا انا من اهل الطيش ، ولكنك ترين ما يرى سائر الناس ان الحب مقصور على الشبان، وأنا أريك رأي العين ان الكهول أشد هياما • ان بين جنبي قلبا يضحي بالملك وبالحياة في سبيل محبوبه • فهل يفعل الشبان ذلك ؟ وهم انما يحبون عن خفة وجهالة لا يثبتون في الحب ولا يرعون زمام المحبوب • أما وفد استمهلتنني فما أنذا اجيب طلبك راجيا ان ترجعي الى رشذك • وأيام الحزن على صديقي ابيك لم تنقض بعد فنحن الان في أوائلها ولنعلي لا يخيب ظني بعد انقضاء أجل الحداد • وبعد ان تتحقي صفاء نيني فيه أرجوه لك من الخير في دنياك • فاعلمي فكرك على مهل » •

فأغضت عن طويل شرحه في بث عواطفه وآماله ، وقالت بصوت هادئ وجأش رابط : «بقيت لي كلمة احب ان تسمعها بوصفك وصيي

الامين . هل فمت بحق الوصية فدبرت شؤون القصر وأهله ؟
قال : «فعلت كل شيء فالزراع عاملون في الحقول ، والقيّم يدير
شؤون القصر ، وأنا أحرص على مالك منك» . ومد يده والعقد لا يزال
فيها وقال : «والعقد ألا تقبلينه ؟ خذيه اذا شئت» .

فحولت وجهها عنه مشمزة وقالت : «لا أريد قبول شيء يذكرني
بهذا الاجتماع . ولو استطعت ان أجرد هذه القاعة من فراشها وأثاثها
لفعلت حتى لا ارى شيئا شهد هذا الموقف او سمع هذا الكلام . والآن
اسمح لي ان أشكر لك عنايتك بشؤون التركة ، وذلك ما كنت ارجوه من
الافشين صديق ابي الامين على اهله . وأخيرا هل لي ان اعرف لماذا
حرمت اخي سامان ارثه ؟»

فأحس الافشين عند سماع اقوالها انه يتصاغر امامها ، وأنها هي
تعظم وتعلو حتى كاد يتلعثم لسانه وأغلق عليه . وانما غلبته على بسالته
وسلطانه بالعفة وأدب النفس ، فتجلد وقال : «انك تسألينني سؤال
القاصر لولي امره وأنا مكلف ان أكتف السبب ، فلو سألتني سؤال الحبيب
لمجبه لا طلعك على كل شيء» .

قالت : «اعمل بالوصية ودع الحب والمحبين» .
فدهش الافشين ولم يزد الا هياما بها ، ولكنه تهيّب الكلام معها ،
فسكت ونهض مستأذنا في الانصراف . ثم خرج وقد غلب على امره وعلم
انه لن ينال رضاها . وانما اطاعها وقبل التأجيل فرارا من الفشل .

- ١٠ -

المعتصم و «سامرا»

ظلت جهان واقفة تنظر الى الافشين حتى غادر غرفتها ، فرفعت بصرها

الى صورة مطرزة على ستارة بالحائط تمثل وجه ايها ، وتنهدت تنهدا عميقا وأحست بضعف مفاصلها كأنها خارجة من عمل شاق فألقت نفسها على الكرسي ، والتفتت الى ما حولها وناجت نفسها قائلة : «آه يا جهان • أواه يا عروس فرغانة ! ما الذي دهاني في هذين اليومين ؟» مات ابي ، وحسنت السفر لجيبي • ولكن لا بأس من سفره حتى لا يعلم بما يضره ذلك الشيخ الجاهل قبحه الله من ملك صعلوك وتبا له من قائد مغرور ! أيطمع في جهان وهي أبعد عنه من الثريا ؟ • مالي لم اقل له ان قلبي لضرغام ؟ • ولكني لو قلت ذلك لعرضت جيبي للخطر • جيبي ضرغام اين انت ؟» • ولما ذكرت اسمه وتذكرت بعده عنها انقبضت نفسها واستسلمت للبكاء • فأطلقت لدموعها العنان وهي تحاذر ان يسمع صوت بكائها احد • وكأنها نسيت نفسها وهون عليها البكاء آلامها فأغرقت فيه • وفيما هي في ذلك اعادها الى نفسها ان سمعت وقع خطوات مسرعة نحوها ، فالتفت فاذا بالقهرمانة دخلت مذعورة وقد فتحت ذراعيها كأنها تهم بأن تضمها اليها • فترامت جهان بين ذراعيها وقد اخذها الخجل لما بدا من ضعفها فابتدرتها خيزران قائلة : «ما بالك يا سيدتي ، ماذا اصابك ؟»

فقلت وهي تتجلد وتمسح دموعها : «أتستغربين بكائي يا أماء وقد فقدت ابي بالامس ؟» ان مصيبي بفقده مضاعفة !»

ولم تكن خيزران غافلة عما دار بين جهان والافشين وان لم تسمعه، ولكنها ادركت شيئا منه لما رأت وجه الافشين عند خروجه فقالت : «صدقت ان وفاة سيدي المرزبان رزء عظيم ، خصوصا اذا خلفه مثل هذا الوصي !» • وغصت بريقها وهمت بجهان فضمتها وقبلتها وقالت : «انا أعلم سبب بكائك فلا تهمني ، واعلمي اني أضحي بحياتي في خدمتك • وكذلك كل اهل هذا القصر بل اهل فرغانة جميعا يقدونك بأنفسهم» •

فتخلصت جهان من بين ذراعي خيزران بلطف ، وأشارت إليها ان تقعد الى جانبها ، فجلست وهي ترمق جهان ولا ترتوي من النظر فرأت وجهها تغير من الحزن والقنوط الى الاهتمام والجد وأطرقت وبدأ التفكير في عينيها وجبينها • وطال سكوتها وخيزران مصغية تنتظر ما يبدو منها وما تريد ان تقوله ، وأخيرا وقعت جهان فجأة ونظرت الى خيزران نظرا حادا وقالت : «لا مقام لي بهذه الديار بعد الان !»

فصعقت خيزران عند سماعها ذلك منها ووقفت وصاحت قائلة : «ماذا تقولين ؟»

قالت : «ينبغي ان اترك هذا القصر • يجب ان اسافر حالا» •
قالت : «والى اين ؟ كيف تتركينه وفيه كل مالك وقد ربيت فيه ؟»
لمن تتركينه ؟»

قالت : «أتركه للطامعين فيه • أتركه للافشين والموبذ !»
قالت وقد اصفر وجهها وجلا : «كيف تتركينه وفيه ثروتك وأنت صاحبة الامر والنهي فيه ؟»
قالت والحزم باد في محياها : «لا تهمني الثروة ولا الامر والنهي ، وما الفائدة من الجدران والاشجار والاحجار ؟ • ليست السعادة بهذه الامور •»

فأدركت انها تشير الى ما تخشاه من مطامع الافشين وهي بعيدة عن ضرغام ، فقالت : «اذا كان ذلك الرجل قد اساء اليك فانبذيه نبذ النواة • لا تعيره التفاتة فأنت سيدة في قصرك ولن يجروا على اخراجك منه» •

فنظرت اليها شزرا وقالت : «هل هو يريدني ان ابقى فيه وأنا التي اطلب الذهاب» •

قالت : «كيف تذهبين يا سيدتي والى اين ؟»

فأطرقت ثم قالت : «اني ذاهبة • نعم ذاهبة •• لا محالة • وأما انت فامكثي هنا ا»

فقطعت خيزران كلامها وقالت وهي تشرق بدموعها : «انا ابقى ؟ وماذا أفعل هنا من غيرك ؟• اني بين يديك حيثما تذهيبين • وانما اردت ان أعلم الجهة التي تقصدين» •

قالت : «اني ذاهبة الى العراق» •

قالت : «انك تقولين ما يسهل لفظه ويصعب فعله ، أتعلمين المسافة بيننا وبين العراق ؟»

قالت : «لا أعلم • ولكني سأذهب اليها» •

قالت : «انك حكيمة لا تقدمين على امر الا بعد التفكير ، فهل تعلمين ان بيننا وبين العراق مسيرة بضعة اشهر ، يقطع معظمها في البراري الخطرة التي لا يستطيع سلوكها الا القوافل المحروسة لكثرة اللصوص وقاطعي الطرق ؟»

قالت : «مهما يكن من الامر فاني ذاهبة الى العراق» •

قالت : «تبصري يا سيدتي او يا حبيبتى ، وأشفقي على شبابك ولا تعرضي نفسك للهلاك •• ان القاصد الى العراق ينبغي له ان يقطع صحاري قاحلة يكثر فيها اللصوص من التركمان وغيرهم ، وكثيرا ما يعترضون قوافل التجار الذاهبة الى خراسان او فارس فيقتلون اصحابها ويسلبون اموالها فكيف تسافرين انت فيها ؟»

قالت : «أسافر كما يسافر الناس • وسندبر وسيلة السفر» •

فلما لم تر حيلة لارجاعها عن عزمها قالت : «اذا كنت تذهيبين الى العراق خوفا من الافشين فالعراق مقره وهو صاحب النفوذ هناك» •

قالت : «لست اخافه هناك ، فان يد الخليفة فوق يده ، وهناك ضرغام ايضا» • قالت ذلك وسكتت لحظة ثم استأنفت الكلام قائلة : «لا أعني ان

أستمع بضرغام عليه ولكنني ألقى هذا الشيخ الجاهل في بلد يسمع فيه صوت الحق • انه يغلبني هنا بجنوده ولكنه هناك لا يقدر على ذلك ، فلا تحاولي ان ترجعيني عن عزمي » • ومشت الى الباب فتبعها خيزران وقد اخذتها الدهشة ولم تتمالك عن البكاء •

اما جهان فمشت مسرعة نحو غرفتها لا تلتفت يمينا ولا شمالا وقد تمثلت فيها الشجاعة وثبات الجنان ، ولم تجرؤ خيزران ان تعترضها ولا ان تدخل في اثرها فتباطأت في مشيتها • واذا بهجان تناديا من الداخل فأسرعت اليها فرأتها جالسة على سريرها والحيرة تتجلى في عينيها رغم ما في جبينها من دلائل العزم الصادق ، فلما دخلت ابتدرتها جهان قائلة : « ألم يعد سامان بعد ؟ »

قالت : « كلا يا سيدتي • لم أشاهده هذا الصباح » •
فهزت رأسها وقالت : « تعالي اجلسي بجانبني يا أماء » •
فجلست خيزران وهي تتهيب النظر اليها ، فقالت جهان : « احذري ان يعلم احد سبب سفري ، وأوصي المهتر (قيّم القصر) بأن يستمر في تعهد أموالنا ومغارسنا ، واخبريه اننا خارجون الى بلد قريب .. »
قالت : « سأفعل ذلك يا مولاتي .. ومتى السفر ؟ »

قالت : « في اقرب وقت • وقبل انقضاء عدة الحداد وهي لا تزال طويلة وسأحدده لك • انما أرجو منك ان تعدي ما ينبغي حمله من الامتعة فاننا على سفر طويل » •

فأشارت برأسها مطيعة وسكتت تنتظر ما يأتي به الغد ، وان كانت لا تتوقع رجوع جهان عن عزمها لما خبرته من اقدامها وثباتها وحزمها فتركها في الغرفة وحدها وخرجت •

قضت جهان بقية اليوم تفكر في اخيها سامان لاحتياجها الى صحبته في ذلك السفر الطويل وهي تعلم انه لا يقل عنها رغبة فيه • وأصبحت

في اليوم التالي فاذا سامان يقرع باب غرفتها فابتدرته بالعتاب على غيابه فقال : «اذا كان غيابي عنك يوما واحدا قد اقلقك فكيف اذا غبت عنك اشهرا ؟»

قالت : «هل اعتزمت السفر ؟»

قال : «وفيم الاقامة ببلد حرمت من خيراته فأنا غريب بين اهلي . أما انت فانك وريثة القصر والمال فامكثي ودعيني اضرب في الارض» . قال ذلك وهو يتظاهر بالحزن فلم يفتحها قصده ولكن سفره وافق هواها فقالت : «وما قولك اذا سافرنا معا ؟»

قال : «أعازمة انت على السفر ايضا ؟» . قالت : «نعم» . قال : «لا ارى باعثا على شكرك الا اذا كنت تقصدين العراق وهناك ضرغام حبيبك» .

قالت : «نعم انا عازمة على السفر الى العراق . وأنت ؟» قال : «ولكن مثل هذا السفر لا يتأتى الا بعد التأهب الكافي ، ولا بد لنا من صحبة قافلة لان الطريق وعر وطويل» . قالت : «دبر ما تراه وليكن في القريب العاجل» . فأبرقت أسرة سامان وهو انما بدأ بتلك المقدمة ليسمع هذه الخاتمة لحاجة في نفسه طالما سعى في قضائها ، ولولا رغبة جهان في السفر فرارا من الافشين لانكشف لها غرض اخيها ، ولكنها تعامت وتجاهلت رغبة في النجاة ، والانسان كثيرا ما يطنى غرضه على تعقله ، فمهدت الى سامان بتدبير امر السفر وأخذت هي وخيزران تستعدان في الخفاء .

* * *

وكان المعتصم قد ترك بغداد وبنى مدينة «سر من رأى» او «سامرا»

على مسافة خمسين ميلا شمالها ، ليقيم بها رجاله الاتراك وغيرهم ، فكانت المدينة الثانية من مدن بني العباس ، وقسمها الى قطائع أقطعها لرجالهم وهم فرق تتسب كل فرقة منهم الى مواطنها التي حملت منها ، فقد حمل بعضهم من سمرقند وهم الاتراك ، وبعضهم من فرغانة ، وبعضهم من أشروسنة او غيرها ، وجعل على كل جماعة قائدا . وأشهر قواده الافشين وأصله من ملوك أشروسنة ، وأشناس وكان في الاصل مملوكا لبعض قواد المعتصم فابتاعه ورقاه ، وايتاخ ، وسما ، وكانا مملوكين ايضا .

ولما استقر رأيه على بناء «سامرا» أحضر المهندسين والفعلة والبنائين وأصحاب المهن من النجارين والحدادين ، وأمر بحمل الساج والخشب والجذوع من البصرة وبغداد وسائر السواد ، ومن انطاكية وسائر سواحل الشام ، وأحضر الرخام من اللاذقية .

وأقام قصره وسط المدينة وبجانبه المسجد الجامع واختط الاسواق حول المسجد وجعل كل تجارة منفردة في سوق على نحو ما فعل المنصور في بغداد ، وأفرد لقواده قطائع أبعداها عن قصره وعن منازل الناس وأهل الاسواق ، فأقام اشناس في محلة بأقصى شمال المدينة على بضعة أميال من قصره سماها الكرخ على اسم كرخ بغداد . وأقام الافشين في الطرف الجنوبي في مكان يسمى المطيرة على نحو تلك المسافة من قصره . وأنشأ للفراغة قطائع اقرب اليه من سواهم . وكذلك الاتراك والخراسانية والمغاربة . وأمر قواده ان ينوا المساجد والاسواق في قطائعهم لرجالهم . وجعل لسامرا شوارع موازية لمجرى دجلة تقطعها دروب وأزقة اكبرها الشارع الاعظم يمتد من المطيرة شمالا على موازاة دجلة الى الكرخ ، وتمتد قطائع الناس يمنة ويسرة على هذا الشارع وتتصل اليه بدروب وأزقة تنفذ الى دجلة . وفي هذا الشارع كان ديوان الخراج وقصر المعتصم والمسجد وسوق الرقيق . ويلى الشارع الاعظم شارع اخر على

موازاه يعرف بشارع ابي حمد .

وبني على دجله جسرا يوصل الشاطئ الشرقي بالغربي وأقام في هذا الجانب العمارات وغرس البساتين وحفر الآبار واستقدم مسن كل بلد اصحاب الاعمال اللازمة للعمارة ، فاستقدم مهندسي الماء وصناع القراطيس من مصر ، وصناع الزجاج والخزف من البصرة ، وأنزل اهل كل مهنة وصنائه مع عيالهم ، وجعل الابنية قصورا حولها البساتين وبينها الميادين . ولما تسامع الناس ببناء هذه المدينة تقاطروا اليها للبيع والشراء ، وزاد فيها الوائق والمتوكل وغيرهما ممن خلف المعتصم كثيرا من الابنية الفخمة .

وكان في جملة ابنية الفراغة بقرب قصر المعتصم بيت متوسط الحجم فاثم في حديقة حولها سور ، له باب مطل على دجلة وعنده فخلتان . ولم يكن اهل سامرا يعرفون شيئا عن اهل هذا البيت اذ قلما كانوا يرون فيه احدا غير الخدم الذين يخرجون الى السوق في حوائجه ، على ان القواد كانوا يعرفون انه منزل القائد ضرغام وكانوا يعجبون لرغبته عن زخارف الحياة خلافا لسائر القواد او الامراء الذين كانوا يستكثرون من العاشية والموالي والممالك . وكان اكثرهم يظنونه وحيدا فيه ، وربما زاره بعضهم اثناء اقامته بسامرا . أما بعد سفره الاخير فانهم انقطعوا عنه اذ لم يبق في البيت احد الا امرأة مكفوفة البصر هي امه ومعها جارية عجوز تخدمها اسمها مسعودة .

- ١١ -

ام ضرغام

كانت أم ضرغام واسمها آفتاب قد كف بصرها في عنفوان شبابها قبل

ذهابها الى فرغانة ، ولم يكن اهل ذلك البلد اكثر معرفة بسابق حياتها من اهل سامرا ، حتى المرزبان وأهل قصره مع طول اقامتها بينهم . فقد كانت تكتم أصلها حتى عن ابنها ضرغام ، فكان اذا سألها عن ابيه زعمت انه كان من جند المسلمين وقتل في بعض الوقائع ، وانها نذرت لبس السواد عليه كل حياتها . ولم يصدق ضرغام قولها لما لاحظته من التجائها الى الايجاز عند ذكره ، فألح عليها ذات يوم واستحلفها ان تخبره الحقيقة، فوعده ان تطلعه عليها فيما بعد ، وكان كلما ذكرها بوعددها استمهله الى فرصة اخرى . وقضى شبابه في فرغانة وهو يطلب الشخصوص الى العراق لينخرط في الجندية او يتعاطى عملا يرتزق منه كما فعل أمثاله من اهل النشاط والذكاء ، فلم توافقه على ذلك الا في الاعوام الاخيرة فجاء معها وأقام بسامرا ، فظهرت مواهبه وارتقى في الجندية حتى صار رئيس الحرس ، وكان يسألها عن ابيه فتؤجل الجواب .

ولما استأذنها في الذهاب الى فرغانة في مهمته الاخيرة أذنت له وألحت عليه في ان يعجل بالرجوع ، وبقيت في ذلك القصر ليس معها غير جاريتها مسعودة . وكانت تقضي نهارها في البيت لا تخرج الى البستان الا نادرا ، والجارية تبذل جهدها في تسليتها ، وقد قضت في خدمتها أعواما عديدة لم ترها ضاحكة قط ، فلم تكن أقل استغرابا لحالها من الآخرين . على انها كانت تحترمها وتحبها حبا جما لما خبرته من لطفها وطيب عنصرها ، مع التزامها الصمت الا نادرا .

وكانت آفتاب على كهولتها وابتلائها بفقد بصرها جميلة الخلقة خفيفة الروح ، تدل ملامح وجهها على ما كانت عليه في شبابها من الجمال المفرط وكانت رشيقة القوام مبتلئة البدن محتفظة بآثار الجمال رغم ما مر بها من تكاليف الحياة ، فكانت جاريتها مسعودة تبذل جهدها فسي تسليتها وتروي لها ما تسمعه من الاخبار ، فتلحظ منها الاصغاء لسماع

أخبار الخليفة المعتصم ، ولا سيما بعد ان صار ابنها رئيسا لحراسه • ولم تكن تسع منها جوابا غير قولها وهي تنتهد : «متى يعود ضرغام ، لقد طال غيابه» •

حتى اذا جاء البشير بقدومه كان اول من علم به مسعودة ، أخبرها به رسول أنقذه ضرغام قبل وصوله لعلمه ان امه تلهف لرجوعه • فدخلت مسعودة على سيدتها مهرولة ، ولو تيسر لآفتاب ان ترى وجهها لقرأت فيه دلائل البشر • ولكنها حرمت نعمة النظر لا لذنوب او مرض وانما فضت عليها بذلك مظالم ذلك العصر ، كما قضت تلك المظالم ايضا بأن نكم سبب عباها وتخفي حقيقة حالها على كل انسان •

فلما دخلت مسعودة شعرت آفتاب بسرعة حركتها وحدثها قلبها بخبر بحمله اليها فبدت عاى وجهها ملامح الاهتمام ولم تمهل خادمتها حتى تتكلم فابتدرتها فائلة : «ما وراءك يا مسعودة ؟ هل اتى ضرغام ؟» فصاحت : «نعم يا سيدتي ، من أنباك بهذا ؟» قالت : «أنباني قلبي ! وهل لقلبي شغل سواه • اين هو ؟» قالت : «انه على مقربة منا» •

فما نالكم آفتاب عن النهوض فجأة وبدت في محياها علامات البشر ونقطر من يياض عينيها دمعتان سالتا على خديها فتلقتهما بطرف نقابها الاسود ، وصاحت وهي تبتسم : «اتى ضرغام ؟ الحمد لله • متى يصل الينا ؟»

قالت : «يصل هذا المساء ان شاء الله» •

فقالت : «أعدي العشاء» • ومشت نحو غرفتها مشية البصير لا تمثر بشيء ولا يوقفها شيء ، على عادة العميان الاذكياء • فدخلت غرفتها وغسلت وجهها وبدلت ثيابها وشغلت نفسها ببعض المهام حتى لا يطول عليها الانتظار •

وكان من توقد ذهنها ورقة شعورها انها تتعرف مكان كل واحد من
خدمها في الغرفة او الحديقة وهي جالسة في مجلسها ، فبعد ان فرغت
من اصلاح شأنها جلست في الايوان ومسعودة في المطبخ تهيب الطعام
تفكر في قدوم مولاهم مفعمة سرورا لفرح مولاتها ، فاذا بها تسمعها
تنادي : «مسعودة ..»

فهزولت الجارية تقول : «امرك يا مولاتي» .
قالت : «ان ضرغاما آتي قولي للخدم يخرجوا لاستقباله» .
فمجيبت مسعودة لكلامها لانها لم تكن ترى شيئا يدل على ذلك ،
فخرجت الى الحديقة فلم تجد احدا فعادت تقول : «لم يأت بعد ولكنه
آت قريبا» .

قالت : «اني اسمع وقع حوافر جواد !»
وكانت مسعودة قد تعودت منها كثيرا من أدلة الشعور البعيد ،
فذهبت الى البستان وأمرت الخدم بالخروج لاستقبال سيدهم وهي لا
نرى احدا فادما ، ولكنها لم تبلغ باب البستان حتى نظرت الغبار من بعيد
وسمعت وقع حوافر الخيل وتحفقت فول سيدتها ، ولم تمض هنيهة حتى
رأت ضرغاما قادما على جواده بلباس السفر ، ووراءه تابعه وردان على
جواد آخر . فرجعت لتبشر سيدتها فرأتها قد سبقتها الى باب السدار
وعيناها شائعتان نحو الجهة التي تسمع الصوت منها وهما تجولان بين
الاجفان كأنهما تريان شيئا . وانما حركهما محرك البصيرة النقادة ولهفة
الوالدة المشتاقة ، ولم تمهلها فسبقتها الى الكلام قائلة : «ألم اقل لك انه
جاء !؟ واني أشعر بوقع حوافر جواده يمشي في مفاصلي وكأنني أحس
بحرارة أنفاسه ، حرسه الله» . قالت ذلك وكأنها تنطق بعينها وحاجبيها
ويديها وبكل جارحة من جوارحها ، فأثر منظرها في مسعودة وخفق
قلبا شفقة عليها ، وودت لو تعيرها عينيها لترى بهما ابنها وتفرح

بمنظره .

ولما وصل ضرغام الى باب البستان ترجل وأعطى الخادم زمام جواده ، ثم صعد درجات الدار حتى بلغ مكان أمه ، فأكب على يديها يقبلها . فضسته الى صدرها وقبله ومشت الى الايوان ترحب به وتكرر تقبيله وتستنشقه وتتفحص كتفيه وذراعيه وصدره وعنقه يديها وتنحس بأصابعها وجهه ولحيته وشاربيه وعينييه كأنها نحدق فيه بأناملها . حتى اذا دخل الايوان جلست على وسادة وأجلسنه بجانبها وهي تضمه وتشمه كأنها تخاف ان يخطفه احد من بين يديها . بينما الدمع ينساقط من عينيها وهو لا يعرضها فيما نعله ليسرها . ثم اخذت نسأله عن صحه فطمأنها وترح لها سوفه اليها وانها لم تبرح من خاطره اثناء ذلك السفر الطويل . فأمرت مسعودة ان تهيء المائدة ، فاستأذنها ضرغام في تبديل ثيابه قبل الطعام فأذنت له ، ثم قاموا الى المائدة ففرغوا من الطعام نحو العشاء وقد أنير البيت بالشموع وهي اول ليلة أنير فيها منذ سفره . لان آفتاب في غنى عن الضوء ولم يكن يزورها احد فلم تكن تنار الشموع في غياب ضرغام الا نادرا .

وبعد العشاء خلت آفتاب الى ابنها وأخذا يتحدثان . فاتكأ ضرغام على وسادة . ووالدته بجانبه وهي فابضة بيدها على يده كأنها تعترض عن المشاهدة باللس ، وأخذت نسأله عن سفره وهو يقص عليها ما شاهدته في طريقته من الغرائب والالاخطار حتى وصل الى سامرا في ذلك المساء فقالت : « وهل افمت بفرغانة كثيرا ؟ »

فلما ذكرت فرغانه تذكر اشياء كثيرة فقال : « نعم افست بها بضعة ايام » . وسكت مترددا في اخبارها بسوت المرزبان فأدركت برده من صوته فقالت : « فص علي ما رأيته هناك . ماذا جرى ؟ »

قال : « ماذا أقص عليك ان القوم يذكرون جيرتك ويتحدثون عنك

كثيرا » •

قالت : « وكيف المرزبان وأهله ؟ »

قال : « كلهم في خير الا المرزبان فانه مريض مرضا ثقيلا عجز الطب والاطباء عن علاجه » •

قالت : « أظنه مات • أليس كذلك ؟ »

قال : « ذا لم يكن مات فانه يموت قريبا لطول مرضه • والحق يقال انه رجل طيب القلب يكن لك احتراما كبيرا » •

قالت : « اراك تتلطف في ابلاغي خبر موته • رحمه الله • كيف فارقت

اهله ؟ »

فلم يستغرب ضرغام شعورها بموت المرزبان ، وقد تعود منها مثل هذا الشعور المرهف ، وأحب الاستطراق الى التحدث عن جهان فقال : « ان اهله في خير فقد ترك لهم مالا كثيرا » •

قالت : « وقد آل هذا الميراث الى جهان على ما اظن » •

فاستغرب نسيانها سامان فقال : « وهل نسيت سامان اخاها ؟ »

فأدركت انها كادت تبوح بسر تكتمه ، وبأن الارتباك في وجهها فأنطرت وعيناها ترقصان في وجهها من الحيرة ثم قالت : « لسم أنس سامان ولكنني احسب ان أباه حرمه من الميراث » •

فازداد تعجبه وهو يعلم انها لا تلقي الكلام جزافا فقال : « أتقولين ذلك تخميناً ام ان هنالك سببا تكتمينه ؟ »

فقلت : « ربما كان ذلك • وهب اني لم أكنم سببا فلو جاز لي ان اقله لك لقلته ، دعنا الان من سامان وأخبرني عن جهان عروس فرغانة كيف هي ؟ • اني احبها وأعجب بذكائها ولطفها » •

فلما سمع اطراءها جهان شغل بها عن رغبته في استطلاع خبر سامان وطاب له التحدث عن حبيبته فقال : « ان جهان جديرة باعجابك ، وهي

موضع اعجاب الفرغانيين على بكرة ايهم • اني لم أر مثلها بين النساء
ولا مثل جمالها وتعقلها • وكم تمنيت ان يمن الله عليك بالبصر
لتشاهدها » •

وحينما سمعت اعجابه بها آنست منه ميلا شديدا اليها فقالت : «اراك
كثير الاطراء لسجايها ،ولا ألومك على ذلك اذ لم يفتني من مشتريات
المبصرين في هذه الدنيا الا رؤيتك ورؤيتها» • وتنهدت وقالت : «هذا
نصيب من دنياي وأحمد الله انه أثار بصيرتي ومن علي يبقائك • واذا
فاتني ان اراك بعيني فلم تفتني رؤيتك بقلبي • أما جهان فلم احب فتاة
مثل حبي لها وهي ايضا مرسومة في قلبي» • قالت ذلك ومدت يدها الى
صدر ضرغام وهي تظهر انها تحاول ضمه فأحست بخفقان قلبه فتحققت
حبه جهان وهو لا يفقه مرادها ثم قالت : «اني احب جهان يا ضرغام فهل
انت تحبها ؟»

فقال : «نعم يا أماه • ولا أظنك ترين بأسا بذلك ، لانك وضعتها في
قلبك معي كما تقولين» •

قالت : «لا ارى بأسا • ولكن هل هي تحبك ايضا ؟ انها بنت
المرزبان وقد كنا أضيافا في قصر ايها • فربما حسبت نفسها أرفع منك
مقاما على عادة اهل اليسار • ولا لوم عليها اذا فعلت ذلك لانها لا تعرف
أباك» • ولم تكذ تقول ذلك حتى تصاعد الدم الى وجهها ثم امسكت
كأنها ندمت على ما فرط منها •

فقال : «اطمئني يا أماه ، ان جهان نحبني حبا شديدا ، وهي بحمد
الله بمنجاة من الكبرياء وقد تعاقدنا على الزواج وهي لا نعرف نسبي ،
والآن وقد جرنا الحديث الى ذلك ألا ترين انه قد آن لك ان تברי
بوعدك ؟ »

فعلت انه يستنجزها وعدها ليعرف اسم ابيه فقالت : «لم يجيء»

الوقت يا ولدي ، وسيأتي قريباً • عد بي الى حديث جهان فان خبر خطبتها يفرحني وطالما تمنيت ذلك وأنا احسبه بعيداً • فهل حدث ذلك على يد ايها ؟»

فقال : «أعترف لك الان بسرنا فقد تعاقدنا على الزواج قبل مجيئي معك الى سامرا ، ولم أبح لك قبلاً لاني لم اكن احسب نفسي اهلاً لها وأنا يومئذ لا شأن لي ، فلما وفقني الله الى المنصب الذي نلته عند امير المؤمنين احتلت في الذهاب الى فرغانة لاعلمها وأتمم العقد على يد ايها فذهبت فوجدتها عند عهدنا ، وكدنا نعقد القران لولا مرض ايها ووفاته فأجلنا هذا الامر الى فرصة اخرى» •

قالت : «وهل نسوي ان تزوجتسا ان تفيما بفرغانة ، ام تأتي بها الى هنا ؟»

قال : «هذا امر منوط برأيك ، فهي لا تخالف لك رأياً ، وكنت قد عازمت على البقاء هناك حتى تنقضي عدة الحداد فأعقد القران وأتي بها الى هنا • فجاء امر الخليفة يستعجلني الرجوع ، ولفينها قبل سفري فجدته على ان نعمل بما نراه بعد ذلك» •

فأبرفت أسرة آفتاب وابنسست وقالت : «أحمد الله على هذا التوفيق وأضرب اليه ان يتم نعمته عليك بما في خاطري لتكون أسعد الناس» • فعلم انها تشير الى سر ايها فقال : «اني أسعد الناس بك • ولكن...» فخافت ان يستأنف سؤالها عن ايها فقطعت كلامه وقالت : «لماذا استعجل الخليفة قدومك ؟»

قال : «لم أعلم بعد ، ولعله سيرسلني في مهمة عسكرية • هل علمت شيئاً عن هذا ؟»

قالت : «لم أسمع شيئاً في غيابك لاني لم اكن أعلم احداً غير مسعودة» •

فقال : « وهل بعث في طلب الافشين ايضا ؟ »

قالت : « لا أدري • اين هو الافشين الان ؟ أليس في سامرا ؟ »

قال : « كلا اني لقيته في فرغانة » •

فأطرقت كأنها تفكر في امر خطر لها ثم قالت : « ان الافشين كان

صديقا حميما للمرزبان • هل شهد موته ؟ »

قال : « نعم • شاهده وقد اقامه المرزبان وصيا على اهله بعده » •

فابتسمت ابتسام مطلع على أمور سابقة تؤيد ما قاله • فلحظ

ضرغام ابتسامنها فقال : « ما بالك تبسمين ؟ هل عرفت شيئا عن هذا

الامر من احد غيري ؟ »

قالت : « لا ، ولكنني تذكرت اتساء كنت سمعتها من صديقتي ام

جهان رحمها الله • فقد كانت تسر الي كل ما يهمها • وأنا ايضا كنت

أكاشفها بأسراري • وكثيرا ما شكت الى ثقه زوجها بالافشين وهي لا

تثق به لما تعلمه من جشعه وطمعه ولكنها لا تجسر على اعتراض المرزبان

في اعماله » •

فلما سمع ذكر الجشع والطمع تغل باله لان الرجل اصبح وصيا على

تركه كبيرة ربما نلعب بأموالها ولكنه كان حسن الظن بالناس لسلامه

طويته ، فأكبر ان يطمع ذلك القائد العظيم في مال أقيم وصيا عليه فقال :

« هل تظنين الافشين يد يده الى شيء من التركة ؟ »

قالت : « لا أدري • ولكنني ذكرت لك ما كانت تسره اني نلتك

المسكينة • وهي التي أسرت الي ما علمته عن سامان وسبب حرمانه

من الارث » •

فاتبه ضرغام لشيء لحظه من سامان فقال لها : « لا شك ان سامان

نفسه كان عالما بنية ابيه ، ولذلك كان يبذل جهده في منع الوصية فكان

كلما بعث به ابوه لاستقدام الموبذ ، لم يفعل وانتحل أعذارا غير مقبولة ! »

قالت : «وهل كتبت لوصية على يد الموبذ ؟»
قال : «نعم وأنا ارسلت وردان للمجيء به» •
فهزت رأسها وقالت : «أنعم به من موبذ ! وهكذا ايضا كانت تلك
المسكينة تستثقل ظله وتنفر من رؤيته فاذا زارهم فسي عيد هربت من
الايوان حتى لا تلتقي به • وفد أذكرتني وردان • اين هو ؟»
قال : «هنا عندنا ، وأظنه نام الان لانه متعب من السفر • انه
والحق يقال همام غيور كنت كثير الاعتماد عليه في شؤوني • وأنا لا
أدعوه خادما فهو أولى ان يدعى صديقا لانه أرقى كثيرا من طبقة الخدم،
ولعل له شأنًا» •
فقات : «احتفظ به فقد يكون شهما خانه الدهر والدهر بالناس
قلب» • ثم اتبعت الى ان قد دنا موعد الرقاد ، ولاسيما انه متعب من
السفر فقالت : «اذهب يا حبيبي الى فراشك ، وغدا تخرج بحراسة الله
الى المعتصم ، وأرجو ان تلقاه وأنت في خير وعافية» • قالت ذلك ونهضت
وذهب كل الى فراشه •

- ١٢ -

المعتصم والاسد

نهض ضرغام في صباح اليوم التالي ، فقبل يد أمه وأفطر ، ثم
ارتدى الثياب التي يدخل بها على الخليفة وأهمها : القلنسوة حولها
العمامة ، والسواد وهو الجبة السوداء الخاصة بالعباسيين وتحتها القباء

والسراويل • وتقلد السيف ، ثم ركب جواده ، وركب وردان في أثره :
وسارا يلتمسان قصر الخليفة •

وكان قصر المعتصم في الجانب الشرقي من سامرا ، ويقال له
الجوسق ، ويحتوي على ابنية عدة يضمها سور واحد • وقد قلد في
بنائه طراز الأكاسرة في المدائن فجعل بابه الخارجي مثلث القناطر : القنطرة
الوسطى كبيرة لمرور الفرسان ، وإلى كل من جانبيها قنطرة صغيرة يمر
تحتها المشاة • ويستطرق الداخل إلى حديقة كبيرة بها ابنية كثيرة أكبرها
البناء الذي يقيم به المعتصم ، وبقية الابنية للحاشية وفي جملتها بناء
للأضياف وآخر للسباع • فقد كان المعتصم مولعا باقتنائها وكثيرا ما
يخرج لاقتناصها •

وصل ضرغام إلى ذلك القصر في الضحى ، فلما أقبل على الباب
وقف له الحرس وحيوه ، فدخل على جواده ، وترجل وردان وقاد فرسه
في أثره أما ضرغام فلم يترجل حتى دنا من قصر الخليفة فأخذ وردان
فرسه وساق الفرسين إلى الاصطبل ، فرحب الحاجب بضرغام ولما سأله
عن المعتصم قال : «لقد خرج أمس للقنص ولم يعد بعد» •

قال : «وهل تظنه يعود الآن ؟»

قال : «لا يلبث أن يأتي» •

فأدخله الحاجب إلى قاعة يستريح فيها ، ووقف بين يديه وأخذ يرحب
به ويسأله عن سفره ، فطمأنه وسأله عن الأحوال الجارية لعله يفهم سبب
طلبه فلم يجد ما يشفي غليله • ومكث وهو يتشاغل بمشاهدة ما أحدث
في القصر من الرياش الجديد • ثم رأى أن يخرج إلى الحديقة يتفرج
على ما فيها من الأشجار والرياحين فرافقه الحاجب إلى بعض أطرافها
وإذا بأهل القصر في هرج ومرج وصاح بعضهم : «عاد الخليفة» •
فتحول القوم نحو الممر المؤدي إلى القصر وأخذت طلائع الموكب تتقاطر

بين فرسان ومشاة ثم أقبل الخليفة على جواده وعليه لباس الصيد فوق
الدرع التي يلبسها اذا خرج للصيد خوفا من وثوب السباع او غيرها من
الضواري .

وكان المعتصم ربع القامة طويل اللحية ايض أصهب مشربا حمرة
تلوح الشجاعة في وجهه وتتجلى القوة العضلية في بدنه . وبلغ من فوته
انه كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات . واذا اعتمد باصبعيه السبابة
والوسطى على ساعد انسان دقه . وكان يلوي العمود الحديد حتى
يصير طوفا ويشد على الدينار باصبعه فيسحو كتابته . وكان غضوبا
شديد النقمه منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة . فلما
وصل الى باب القصر ترجل وحيى الوقوف واكثرهم من القواد
والفرسان ، فوقع بصره على ضرغام فهش له وحياه فأسرع ضرغام اليه
وهم بتقيل يده . فمنعه وقال : «انت هنا» .

قال : «جئت يا مولاي طوعا لأمرك» .

قال : «وددت لو كنت البارحة معي في هذا الصيد» .

قال : «وأنا أشتهي ذلك يا امير المؤمنين . لا زلت ظافرا غانما» .

وبعد ان حول الخليفة وجهه نحو القصر رجع كأنه نذكر شيئا وأشار
الى الوقوف فانصرفوا واستبقى ضرغاما وقال له : «سأذكر لك الان شيئا
يسرك . فقد اصطدت اسدا هائلا . ولا ارى اسدا الا تذكرتك لانك
تسمى ببعض أسمائه» . ثم اشار الى الحاجب فوقف بين يديه فقال له :
«قل لاصحاب الصيد ان يأتوا بالاسد الى تلك المصطبة» . ومشى
الخليفة الى مصطبة في بعض جوانب الحديقة وهو يراعي ضرغاما ويكلمه ،
واغتتم فرصة الانتظار وأخذ يسأله عن سفره قائلًا : «عسى ان تكون قد
وقفت في هذه الرحلة الى ما يسرنا» .

قال : «صدعت بأمر مولاي فرافقنا توفيقه فابتعنا الجواري . . .»

فقطع كلامه قائلا : « انت ابتعتهم ؟ »

قال : « كلا يا مولاي فليس لي ان اكون تاجرا ، ولكنني ساعدت الجماعة في ابتياع ما يلزم وسيصلون هنا عما قليل ، وانما تعجلت المجيء لئلا لامر امير المؤمنين » .

فلما قال ذلك بدا الاهتمام في وجه المعتصم وأطرق ثم قال : « ستكلم في هذا بعد قليل » . والتفت الى باب الحديقة فأبرقت أسرته ، وأشار الى ضرغام فالتفت فاذا بجماعة يحملون ففصا من قضبان الحديد على اعدة . وفي الفص اسد هائج يكاد الشرر يتطاير من عينيه . فقطب ضرغام حاجبيه تهييا وكان شيئا جاش في خاطره اذ تسلت له الشجاعة في وجه ذلك الحيوان المفترس .

فلبث المعتصم واقفا ، فلما اقتربوا بالقفص أمرهم بوضعه ، فوضعه ارضا والاسد يزأر زئيرا تصطك له المسامع ، فقال المعتصم : « انه يزأر من شدة الالم لاني رمينه بنبل اصاب ليته وأخشى ان يموت منه . مع اني احب ان يبقى حيا لأتمتع بلذة هذا الصيد كلما رأيته » . قال ذلك ومشى الى القفص وضرغام بجانبه الى الوراء تأدبا حتى اصبحا على بضع أذرع من الاسد . وكان بيد الخليفة نبل ليس معه من الاسلحة سواه لان صاحب لباسه اخذ اسلحته ساعة وصوله واستبقى النبل بيده ينشغل به . فلما دنا من القفص اخذ يداعب الاسد ويشير اليه بالنبل كأنه يهم بضربه والاسد يزأر ويتململ والدم يفطر من ليته وقد جمد بعضه على صدره وقائنتيه واحمرت عيناه وتناعستا ، فظن المعتصم انه سيموت فرمى النبل عليه لمداعبته فأصاب عينه فهب الاسد غضبا وألما ووثب يطلب الخليفة فلطم رأسه قضبان الحديد فارتد وقد اشتد غضبه كأنه جن ، والمعتصم وضرغام ينظران اليه مستهزئين وقاباهما يخفقان ، فان للاسد رهبة حتى في حالة الاحتضار .

وفيما هم في ذلك وضرغام يتفرس في الاسد راثيا لما اصابه اذا بالاسد يضرب جانب القفص برأسه ضربة قوية حطمت منه قضيبين وأحدث فرجة نفذ منها خارجه ، فذعر الناس وفروا مسرعين يظأ بعضهم بعضا ، ما عدا ضرغاما والخليفة . ولم تكن الا لحظة حتى هجم الاسد على الخليفة ممسكا ذراعه بمخالبه ، وفتح فمه وهم بأن يلتقم رأسه ، فبغت المعتصم ، وذهبت قوته وأيقن بالهلاك ، اذ لم يجد شيئا يدفع به عن نفسه ولا وسيلة للنجاة من براثن الاسد وقد ولى الناس فرارا ورعبا . على ان ضرغاما ثبت في موقفه وانقض على الاسد فقبض على فكسه الاسفل بيد وعلى الاعلى باليد الاخرى ، وهو يقول : «ليكن يا مولاي . سلمت باذن الله» . وما عثم الخليفة ان سمع تمزق شذقي الاسد . وشعر بأن ذراعه تخلصت من مخالبه ثم رآه يهجم على ضرغام ، ولكن هذا استل خنجره ومضى يطعنه في لفته وخصرته وتحت ابطه ، وقد غلبت عليه سورة الغضب حتى اصبح منظره أشد رهبة من الاسد فوقف شاربا واهمرت عيناه وتقطب حاجباه .

وكان الجمود قد استولى على الحاضرين ، ولكنهم لما رأوا الاسد مضرجا بدمه وضرغام فوقه والخليفة واقف وعيناه شائعتان الى ضرغام تقاطروا راجعين وعلا صياحهم يهثثون الخليفة وينظرون الى ضرغام معجبين . وابتسم المعتصم لضرغام والاصفرار غالب على سحتته من أثر البغلة ، وقال : «بورك فيك يا ضرغام . . انك والله ضرغام حقيقة» .

فلما سمع اعجاب الخليفة به رجع الى رشده فوقف والخنجر في يده يقطر دما . فرماه وقال : «اني عبد امير المؤمنين ولم أفعل شيئا الا ببركته ، وانه أولى مني بالانتقام من هذا الوحش . ولو انفرد به لقتله ولكنني غلبت على رشدي فلم أستطع صبرا على ما رأيته من جرأته فنبت عن مولاي بقتله ، وهي جرأة أستغفر لها» .

فأعجب المعتصم بأسلوبه في الاعتذار وشكره ، ورأى ان يؤجل ما بقي عنده من الكلام لخلوة يختليانها ، وهم بالمسير فأحس بألم في ذراعه من أثر مخالب الاسد ولكنه تجلد ومشى وأمر القوم بالانصراف ، وتحول مع ضرغام الى قصره وأمر الحاجب ان يمنع الدخول عليه في ذلك اليوم الا للطبيب الذي أمر باحضاره ، فلما اتى هذا وكشف عن الجرح لم يجده يستحق الاهتمام لان الدرع صانت موقع المخالب . فهناك بالسلامة وأشار عليه ان يلزم الفراش بقية ذلك اليوم .

* * *

وتسامع اهل الجوسق بما وقع للخليفة ، فتقاطر الوزراء والقواد للسؤال فأنبأهم الحاجب بما أوصاه به فرجعوا . ثم دعا ضرغاما الى مخدعه فدخل بعد ان غسل يده وأصلح من شأنه ، فتحفز المعتصم للوقوف له اظهارة لاجابه ، فأكب ضرغام على يده يقبلها ، ثم أمره الخليفة بالجلوس بجانبه فجلس متأدبا ، فقال له : « ان حياتي الان من يدك يا ضرغام » .

فأطرق ضرغام استحياء وقال : « عفوك يا مولاي اني لم أفعل ما يستحق هذا الاطراء فانما نبل امير المؤمنين أردى الاسد من قبل ، وما وثوبه هذا الا من حشرة الاحتضار . وهب اني اتيت شيئا فأنا عبد امير المؤمنين أفديه بدمي » .

قال : « بورك فيك . اني طالما أعجبت ببسالتك واخلاصك وأنا محاط بالمداهنين والملقين لا أثق الا بقليلين ، وان كنت اظهر وثوقي بهم جميعا . وان قائدا مثلك يندر في بلاط الخلفاء في مثل هذا الجيل الفاسد . ولم اكن أجهل اخلاصك من قبل ولذلك جعلتك رئيس حربي

فأنت جدير بهذا المنصب ولا يليق إلا بك» . ثم التفت الى الباب ثم الى النافذة كأنه يتفقد المكان ليتحقق خلوه من الرقباء وأطرق وضرغام ساكت يسترق النظر اليه ، ثم رفع المعتصم رأسه وقال : «أتعلم لماذا استعجلت مجيئك من فرغانة ؟» . قال : «كلا يا مولاي» .

قال : «أتعلم ان دولتنا قامت على كتم الاسرار» .
قال : «نعم أعلم ذلك ، وليتأكد مولاي اني أحفظ لسره من صدره» .
قال : «اني وثقت بك لاخلاصك وحسن بلائك منذ رأيتك للمرة الاولى وقد شعرت بشيء حبك الي» .

فتحضر ضرغام للوقوف اجلالا وشكرانا وقال : «تلك منة لا أستحقها ، ومن اين لجندي مثلي ان ينال هذه الحظوة عند امير المؤمنين ؟ وأي فضل لي اذا انخلصت الخدمة لخليفة الرسول ؟» . أليس ذلك فرضا على كل مسلم ؟

فقال وهو يقعده يده : «بلى . ان ذلك فرض على المسلمين ولكن المخلصين قليلون ، ولولا ذلك ما اضطرت الى الخروج من بغداد وانشاء هذه المدينة ولا كان ثمة ما يدعو لتجنيد هؤلاء الاجناد من اقصى تركستان وفرغانة لأستعين بهم على قومي وعشيرتي ، وعلى اولئك الفرس الذين أطمعهم اخي المأمون في الدولة . اني محاط بالاعداء من كل ناحية . وكأنه ما كفاني الاعداء الأبعد في أذربيجان وطبرستان حتى ابتليت بهم في مدينتي وفي قصري !» حتى هؤلاء الاتراك الذين جعلتهم بطاتي وعهدت اليهم في حمايتي ونصرة هذه الدولة ، لا ينصروني الا طمعا في المال !» وأنا انما أسايرهم وأخادعهم وأتفق الاموال فيهم ، وهم يظنون انهم يخدعونني !» . وسكت وبدا الجد في عينيه فأبرقتا بريقا يوهم الناظر اليهما ان الدمع يغشاهما فتهيب ضرغام من ذلك وأطرق ينتظر ما يبدو من الخليفة فاستأنف هذا كلامه وقال : «ضرغام . هل

رأيت الافشين في فرغانة ؟ » • قال : « نعم يا مولاي » •
 قال : « وما الذي ذهب به الى هناك ؟ »
 قال : « لم يخبرني عن سبب ذهابه ، ولكنني أظنه ذهب ليعتهد بلده
 وأهله في عيد النيروز • وأظنه قادما قريبا » •
 قال : « انه قادم لا شك ، لانه لا يجد رزقا اوسع من هذا ولكن • »
 قال : « وهل امير المؤمنين في ريب من اخلاصه ؟ »
 فقال : « اني اكاد ألس ذلك بيدي ولكنني أغالط نفسي وأظهر الثقة
 به ، لانتا في حرب لا غنى لنا فيها عن رجاله ، وليتني كنت مخطئا فالذي
 أبغيه منك الان ان تكون موضع سري وألا تفارق قصري » •
 فأجابه على الفور : « اني عبد امير المؤمنين وطوع اشارته » •
 قال : « انت منذ الان صاحبي فانه وان كان اسمك أليق الاسماء
 بيسالتك فقد اخترت لك اسم «الصاحب» لانك مصاحبني • فهت يا
 صاحب ؟ »
 فحنى ضرغام رأسه شكرا وقال : « لقد تكاثرت علي نعم امير
 المؤمنين ، ولا اراني اهلا لها ولكنه اراد ان يرفع صنيعته و • • »
 فتمطع الخليفة كلامه قائلا : « كيف لا تكون اهلا لذلك وقد أنقذتني
 من برائن الاسد ؟ »
 فأطرق ضرغام استحياء وقلبه يرقص طربا لما يتوقع من فرح جهان
 بارتفاعه في نظر الخليفة ، وبأنه صار اهلا لها بحق - والمحبون انما
 يطلبون العلا ارضاء لأحبائهم - ونظر الى الخليفة وقال : « لم أعبد
 استطيع الشكر على نعم مولاي » •
 فقال : « اذا كنت تعد هذه نعم ، فكيف بما أعددت لك من النعم
 الحقيقية ؟ »
 فظل ضرغام ساكنا واستأنف الخليفة الكلام قائلا : « علمت انك لم

تتزوج بعد واثك تقيم مع والدتك • فأردت ان تقيما بقصر خاص بجوار هذا القصر ، وقد آن لك ان تتزوج • أليس كذلك ؟

فأطرق ضرغام ادبا وقال : « الامر لمولاي » •

قال : « لقد استحسننت لك جارية تركية عرفت فيها الذكاء والجمال •

رأيتها منذ عام وبعض العام فأضمرت ان أزوجهك منها » •

فلما سمع ضرغام كلامه سقط في يده ، لان قلبه ليس له ، وقد احب جهان ولا يريد ان يحب سواها ، ولكنه لم يستطع مخالفة الخليفة ولا استطاع التأمين على قوله فظل ساكنا وقد حار في امره •

فرأى المعتصم حيرته ، ولم يدر في خله انه يمتنع • فقال : « لماذا لا تجيب ؟ ألم يرقك اقتراحي ؟ »

قال : « كيف لا • ان جوار امير المؤمنين أمنية الاماني » • وسكت عن الزواج فظنه الخليفة سكت حياء فقال : « والزواج •• لعلك لست كسائر الناس ؟ ليس في جندي واحد لا يتمنى الزواج ولذلك تراني أبعث في ابتياع الجواري لهم من تركستان ، لاني لا أريد لهم ان يختلطوا بالسوقة ببغداد وغيرها فيغلب عليهم التخث • أم لعلك تؤثر ان تختار جارية من الجواري اللواتي ابتموهن في هذه الرحلة • ولكنك لن تجد في تركستان كلها فتاة اجمل من التي اخترتها لك ولو جهدت • ويكفي ان اختياري وقع عليها • وقوادي يتنازعون عليها لفرط جمالها وذكائها ولكنني قد اختصصتك بها دونهم ! »

فلم يجد ضرغاما سبيلا للقبول او لابداء ما يجول في خاطره ، ثم تشجع وقال : « اننا في حرب او في تأهب لحرب ، ومتى فرغنا من ذلك فاني عبد امير المؤمنين » •

فاكتفى المعتصم بما سمعه وأعجبه منه تأهبه للحرب فقال : « وهب اننا في حرب فليست تفارق قصري • وأت بأهلك الى هنا وأخبرها

ان اسك من اليوم (الصاحب) وسأوصي بطايتي وقوادي وسائر رجال دولتي بذلك» • ثم ترحل من مكانه فتحفز ضرغام للنهوض وقال : «أيأذن امير المؤمنين في ان اذهب لأخبر والدتي بما أمر ؟»

قال : «سر اذا شئت وستهيء القهرمانه لكم المنزل اليوم» • فمشى ضرغام ووجهه الى المعتصم حتى خرج • ثم أرسل الى وردان فجاءه بالفرس فركبا قاصدين الى البيت وضرغام تتقاذفه الافكار ، وقد سره اعجاب الخليفة به ودعوته ليقم بقربه كما ساءه امر الزواج ولكنه لم يعلق عليه كبير شأن اذ لا دخل له بالسياسة فيسهل التخلص منه • فلما وصل الى منزله تلقتة امه بالترحاب وسألت وردان عن حاله وكانت قد أعدت الطعام فجلست معه الى المائدة ، وشعرت من سكوته ان تغييراً طرأ عليه فقالت : «هل لقيت امير المؤمنين ؟» • قال : «نعم يا أماه» •

قالت : «كيف حاله وهل اخبرك بسبب تعجيله باستقدامك ؟» فأبطل في الجواب لانه خاف ان قال لها كل شيء ان يخلف الوعد ويوحد بالسر ثم قال : «اخبرني ، ولكن حدث امر غريب» • قالت : «ما هو ؟» • فقص عليها خبر الاسد وما كان من دفاعه عن الخليفة ، فانشرح صدرها وبان ذلك في محياها • ثم اخبرها ان الخليفة غير اسمه وسماه «صاحب» وذكر لها السبب فازداد سرورها ، ثم قال : «وقد دعاني للاقامة بجواره» •

وكانت تهم بلقمة من الرغيف لتتناولها فلما سمعت كلامه ارتبكت وشخصت بعينيها اليضاوين اليه وقالت : «دعاك للاقامة بجواره ؟» لماذا ؟

قال : «لاكون ملازماً له • وذلك اكرام عظيم» • قالت وقد توقفت عن ازدراد ما فيها من الطعام : «وهل يريد ان

اكون انا معك ايضا ؟»

قال : «نعم فقد قال لي : (تسكن انت وأمك هنا)» •
فتغير لونها وتشاغلت بالمضغ وبأن قلقها من تسرعها فيه وقالت :
«اذهب انت وحدك ، ولا حاجة بي الى الاقامة بقصر الخليفة» •
قال : «ولماذا يا أماء ؟» اذا كنت لا تريدن الذهاب معي فأنا ايضا
لا أذهب» •

قالت : «اذهب انت فان القرب من الخليفة شرف يتمناه القواد ،
وأما انا فأملك هنا على ان تتردد علي حينا بعد آخر لألمسك وأقبلك» •
فعجب ضرغام من استنكافها وابائها وقال : «بل تذهبين معي فنقيم
هناك كما نقيم هنا ، وقد وعدت الخليفة بذلك ولا سبيل الى الاخلاف» •
فوجمت حينا ثم قالت : «تنظر في ذلك» •

قال : «ليس في الوقت متسع فانتا ذاهبون غدا ، فقولني لمسعودة
نستعد ، وسأوصي وردان بأن يساعدنا • ولا ريب انك ستأنسرين بسن
في قصر الخليفة من النساء فتقضين النهار في الحديث او سماع الغناء •
وذلك خير من بقائك وحيدة هنا • هذا فضلا عن حاجتي الى وجودك
هناك لأمر يهمني» •

فصعد الدم الى وجنتيها وتغيرت سحتها وأدارت عينيها دورة تكاد
تنطق بما اعتراه من الارتباك ، وقالت : «أما الاستئناس فلا أبغيه من
سواك فأنت تعزيتي الوحيدة لا اطلب سواها بل انا أشترط عليك اذا كان
لا بد من ذهابي ان يكون لي الخيار في البقاء بالمنزل او الخروج منه •
ولكن ما حاجتك الي وأنا مكفوفة البصر كما ترى ؟»

قال : «انت ضوئي ، وستكونين عوني على انقاذي من السعادة التي
أعدها الخليفة لي» •

قالت : «انقاذك من سعادة ؟ ماذا تعني ؟»

قال : «أعني ان الخليفة خطب لي جارية تركية ذكر انها اجمل نساء هذه المدينة واختصني بها دون قواده» .

قالت : «وبماذا اجبته ؟» . قال «أجلت الجواب لاني استحييت ان أرفض» .

قالت : «هل نويت الرفض ؟» قال : «وهل أقبل ؟» فسكتت وذكرت انه عالق بجهان فقالت : «وكيف ترفض امر الخليفة ؟» قال : «وجهان ؟ أليست خطيبتني ؟»

قالت : «لذلك تريدني ان اكون معك ؟» عسى ان أحتال لانقاذك من هذه الورطة . ذلك شيء يسير» .

فأشرح صدره وقال : «اذن عدا نتقل جميعا . واحدري ان ناديني ضرغاما فان الخليفة فد سماني (الصاحب) وفد يساء اذا دعيتي بغير ما سماني» .

قالت : «لك علي ذلك» . وكانوا قد فرغوا من الطعام فأمرت مسعودة بالتأهب ، وأمر وردان بمساعدتها . وفي اليوم التالي اتقل الجميع الى قصر الخليفة وأقاموا بمنزل بجانبه وليس معهم من الخدم الا وردان ومسعودة . اكتفاء بخدم الخليفة .

- ١٣ -

أحمد بن أبي نؤاد

قضى الصاحب في جوار الخليفة اياما يتوقع ان يسمع خبرا عن جهان

او نبأ بقدمها ، وقد ازداد رغبة في مجيئها لتنقذه من الجارية التسي
اختارها الخليفة . ولم يداخله شك في ان الخليفة اذا رأى جهان زهد
في سائر نساء الارض فلا يلومه حينئذ اذا ابى الزواج بسواها . وطال
غيابها واستبطأها فقلق لتأخرها وانقطاع أخبارها وضاق صدره عن كتمان
القلق ، فاستدعى وردان ذات يوم وقال له : «ما قولك في اهل فرغانة ؟»
فهم وردان قصده وقال : «أتعني مولاتي جهان ؟»

قال : «أعني اني كنت على موعد معها هنا بعد انقضاء الحداد ، ولكنها
لم تأت ولا سمعنا عنها خبرا ، فما رأيك ؟»
قال : «أتريد ان اذهب للبحث عنها ؟»

فأعجب صاحب بتفانيه في خدمته وابتسم وقال : «بورك فيك يا
وردان ، لا أكلفك هذه المشقة ولكنني استشيرك في الامر» .
فأطرق وردان يفكر ثم قال : «الرأي عندي ان نصبر مدة اخرى حتى
يأتي مولانا الافشين من فرغانة» .
قال : «ومتى يكون هذا ؟»

قال : «جاءت البشائر بقرب وصوله ، فاذا جاء سألناه او سألنا
بعض رجاله» .

فاستحسن ضرغام ذلك ، وقال له . «ارى ان تتولى انت امر البحث
من بعض رجال الافشين» .
قال : «فهمت مرادك» .

فضحك صاحب (ضرغام) وقال : «لا تكتم رأيا ترى فيه نفعا لي .
واعلم اني أعدك رفيقا لي لا خادما فأنت ارقى من ذلك كثيرا» .
فأطرق وردان احتراما وقال : «انا خادمك أتفانى في خدمتك . اتأذن
لي في ان اذهب للقاء حملة الافشين قبل وصولها ؟» . قال : «افعل ما
يبدو لك» . فودعه وخرج .

ومكث ضرغام ساعة في القصر ، ثم جاءه رسول المعتصم يدعوه اليه ،
فلبس سواده وذهب الى القصر فقبل له ان الخليفة في خلوة مع قاضي
القضاة احمد بن ابي دؤاد في دار الخاصة .

وكان ضرغام يعرف منزلة ابن ابي دؤاد عند الخليفة . وانه لا يختلي
به الا لامر ذي بال ، فاستأذن ودخل فرأى الخليفة جالسا على سريره في
صدر القاعة ، وأحمد بن ابي دؤاد على كرسي بين يديه .

وكان احمد هذا معروفا بالمروءة وبمعصيته العريية اذ كان ينتسب الى
بني اباد ، ولكن المعتصم وان أبعد العرب من مجلسه وقطع اعطياتهم
وحط من أقدارهم واختص الاتراك ببطاته . كان شديد الثقة به لا يمضي
امرا الا بمشورته ولا يشاور وزراءه .

وكانت نشأة ابن ابي دؤاد في قرية من أعمال قنسرين . تم هاجر
ابوه الى الشام للتجارة فأخذه معه اليها وهو غلام ، فنشأ في طلب العلم
ولاسيما الفقه والكلام حتى فاق معاصريه ، واصبح معتزليا فصيحاً فوي
الحجة ، وناز عند المعتصم حظوة ودالة لم يسبقه اليهما احد . حتى صار
يفتح الكلام في حضرته وكانت العادة عند الخلفاء ألا يبدأهم احد
بالكلام . ومن أمثلة دالته هذه ان المعتصم غضب مرة على خالد بن يزيد
الشييباني وأشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال طلب منه وأسباب
اخرى . فجلس المعتصم لعقوبته وكان قد طرح نفسه على القاضي احمد
فشفع فيه فلم يجبه المعتصم . فلما جلس لعقوبته حضر القاضي احمد
فجلس دون مجلسه الذي اعتاده فقال له المعتصم : « يا أبا عبد الله لم
جلست في غير مجلسك ؟ » قال : « ما ينبغي لي ان أجلس الا دون
مجلسي هذا ! » فقال له : « وكيف ؟ » قال : « لان الناس يزعمون ان
ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع » قال : « فارجع الى
مجلسك » قال : « مشفعا او غير مشفع ؟ » قال : « بسل مشفعا » .

فارتفع الى مجلسه • ثم قال : «ان الناس لا يعلمون رضى امير المؤمنين عنه ان لم يخلع عليه» • فأمر بالخلع عليه فقال : «يا امير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة اشهر لا بد ان ينالوها ، وان أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة» • فقال : «قد أمرت بها» • فخرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه وكان الناس في الطرق ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل : «الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب» • فقال له : «اسكت ، سيد العرب والله احمد بن ابي دؤاد» •

ولم يكن نفوذ ابن ابي دؤاد خافيا على ضرغام ، فلما دخل على المعتصم وهو عنده عام انه دعي لامر ذي بال ، فلما أقبل على الخليفة حياه بتحية الخلافة فائلا : «السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» •

فهش له المعتصم وناداه وأمره بالجلوس بجانب ابن ابي دؤاد وهو يقول : «مرحبا بالصاحب» • ثم التفت الى القاضي وقال : «أظنك نستغرب نسميتي هذا القائد بغير اسمه فاعلم اني عملت بحسن رأيك فيه فقد ظالما اثبتت على شهامته واخلاصه وقد رأيت منه فوق ما وصفت حتى عرض نفسه للسوت لاجلي • انه اتقذني من برائن الاسد يسالته فقربنه وسميته الصاحب وأسكنته بعض قصوري» •

وكان ابن ابي دؤاد في نحو الستين من عمره وقد خط الشيب لحيته وعارضيه ، فازداد اجلالا ووفارا وهو يلبس زي القضاة : العمامة الطويلة ، والطيلسان الرقيق ، فلما سمع اطراء المعتصم وترحيبه بضرغام هش له وحياه ، والنفت الى المعتصم فقال : «ألا يرى امير المؤمنين حسن ظني في محله ؟• اني أنزلته من نفسي منزلا رفيعا يوم رأيت ، وتوقعت له مستقبلا مجيدا • أعانه الله على خدمة امير المؤمنين» • فقال المعتصم : «وبناء على ذلك ارى ألا نخفي عنه ما يدور بيننا» •

وكان ضرغام جالسا متأدبا ينتظر امر الخليفة فقال الخليفة : « اعلم يا صاحب اني كنت والقاضي تتشاور فيما بلغنا من أخبار ذلك المجوسي في أرمينيا » .

فأدرك ضرغام انه يعني بابك الخرمي القائم على الدولة في أردبيل . وكان عالما باتتقاضه وبوقائع جرت بينه وبين جند المسلمين ولم يظفروا منه بطائل حتى استفحل امره فقال : « وهل أحدث هذا الرجل حادثا جديدا ؟ »

فقال القاضي : « لا يخفى عليك ان بابك الخرمي تورد على امير المؤمنين بأرمينيا . فرماه بالافشين ورجاله مرة . وبغيرهم مرة اخرى . والشقة بيننا وبين أرمينيا واسعه فكافت الحرب سجالا ولا يزال الرجل معتصما هناك وأمير المؤمنين .. » . وسكت ونظر الى المعتصم فأتهم هذا كلامه قائلا : « فلت لك يا صاحب اني لا أثق بالافشين هذا ولا أعلم كيف أسنغي عنه وقد رأيته انت في بلاده بين اهله وعشيرته فكيف وجدته ؟ »

قال : « ان لهذا الرجل سطوة عظيمة في تلك البقاع ، فهم يعدونه ملكا كبيرا ويسمونهم ملك الملوك وبعضهم يخاطبه باله الآله كما كانوا يفعلون قبل اسلامه ، ولعله الان يستنكف من هذا . وقد رأيت يا امير المؤمنين من سلطانه شيئا عظيما حتى يجتمع لندائه ألوف الالوف من الرجال . واذا رأى امير المؤمنين ان يخلعه فانه فاعل ما يشاء ، واذا شاء ان يرمي بي في مكانه بذلت دمي وروحي في خدمته . ولا أزعم اني ادرك من ذاك الرجل ولكنني طوع امير المؤمنين والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء » .

فقال القاضي للمعتصم : « ان صاحب يدي اخلاسه وتقانيه في خدمة الدولة ، ولكنه لو سئل عن عافية هذا التبديل لما جهل الخطر الذي

يترتب عليه . لا ارى ان يعلم الافشين او احد من رجاله بما يجسول بأذهانتنا عنهم ، واذا أذن امير المؤمنين أبديت رأيا لعل فيه نفعاً .

فقال : « قل ما بدا لك » . والتفت الى ضرغام وقال : « ان القاضي أحمد يحل لدينا محل الوزراء والمشيرين ، فعندنا من الوزراء والخاصة غير واحد ولكنني لا اثق بأحد منهم وثوقي به . قل ايها القاضي » .

فقال : « ان الافشين ملك في بلده وعنده الجند والاعوان ، وقد رضي ان يخدم امير المؤمنين طمعا في المال . وينحدث بعض الناس بأنه لا يخدم المسلمين الا لذلك ولو ترك لشأنه لانضم الى بابك وحاربنا . وهو اذا صح اسلامه فانه لا يزال حديثا فيه ، فاذا جافيناه انقلب علينا ، واذا اتحد مع بابك اصبحا خطرا علينا ما لا يخفى على امير المؤمنين . والذي اراه ان نظهر له ثقتنا باخلاصه ونشتريه بالمال هو ورجاله ونضرب بهم ذلك المجوسي المتمرد في أرمينيا ، فاذا غلبوه كفونا شره ، واذا اتضح لامير المؤمنين بعد ذلك ان الافشين خائن ، سهل علينا الاقتصاص منه اذ يكون وحيدا . واذا أخلص حقا نال ما يستحقه » .

فلما سمع ضرغام كلام القاضي ادرك ان الرجل ينطق عن تعقل ودهاء ، ولو ترك هو لرأيه لم يصل الى هذا الحكم لانه من اهل الشجاعة وليس من اهل الرأي ، ويندر اجتساع الشجاعة والرأي في واحد . ثم قال الخليفة : « ارى قاضي القضاة يغالي بقوة هذا الفارسي او الأشروسي ويخشاه ، وفاته من في جندنا من القواد العظام وكل منهم يدفع عن دولتنا برجاله وعدته » .

قال : « صدق امير المؤمنين . فعنده أشناس التركي وايتاخ وبغا وسما وغيرهم ، ولكن هؤلاء نشأوا من العامة ليس لاحد منهم ما للأفشين من النفوذ في نفوس الجند ، وقد سمعنا الآن بما لهذا الرجل من السطوة في قومه وهم ألوف الألوف ، فاذا أغضبناه لا يقوم هؤلاء مقامه . ولولا

تمرد بابك هذا لم تكن نخشى بأس الافشين ، وأنت يا امير المؤمنين شجاع باسل أيديك الله بالخلافة فلا ترى الالتجاء الى الحيلة او الصبر على المكاره ، ولكننا نعلم من الحديث المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : (الحرب خدعة) . فهذا رأيي والامر من قبل ومن بعد لامير المؤمنين ، وأنا وسائر رجال الدولة رهن ما يريد ، نبذل دماءنا وأرواحنا في طاعته» .

فالتفت المعتصم الى ضرغام كأنه يستطلع رأيه ، فقال ضرغام : «اني لا ارى ردا على قول قاضي القضاة ، ولم اكن لأفطن لما فطن هو له من حسن السياسة ، وقد سمع امير المؤمنين جوابي فاني رجل سيف أصدع بالامر ، فاذا رميت بي اذريجان او تركستان او ارمينيا ركبت اليها ودمي على كفي ، ولكن الصواب فيما قاله قاضي القضاة والرأي الاعلى لامير المؤمنين» .

فقال المعتصم : «قد استشرتكما في الامر لسبيين : الاول ان طلائع الافشين جاءت تبشر بقرب وصوله، والثاني ان قد جاءنا جاسوس من ارمينيا بأن بابك الملعون قد اسنفحل امره وربما تحرك نحونا فلا ينبغي ان نمكث هنا في انتظاره» .

قال القاضي : «لا أظنه يجسر على القدوم وانما هو يقنع بأن نركه وشأنه ، وعلى كل حال ارى ان نحتفل بقدوم الافشين ونبالغ في اكرامه حتى تفرغ من حاجتنا اليه» .

* * *

وفيما هم في ذلك سمعوا صوت الأذان لصلاة العصر ، فتخففسز الخليفة للقيام وصفق فجاء الحاجب فأمره بأن يخبر صاحب وضوئه انه

سيصلي العصر في المسجد الكبير .

قلم يبق لضرغام والفاضي بد من الذهاب الى الصلاة معه في ذلك المسجد ، وكان المعتصم قد بناء وبالع في اتقائه على شكل لم يسبق له مثيل في الاسلام . فجعل جدرانه ومحرابه من مرايا حتى اذا وقف الخليفة للصلاة رأى من يدخل المسجد من خلفه . وبنى له منارة عظيمة على شكل لولبي مكشوف يصعد اليها على درج لولبي من ظاهرها . ولعل ابن طولون بنى منارة جامعة في مصر على مثال تلك . وكان المعتصم كثيراً ما يصلي في ذلك المسجد لقربه من قصره . فلما تحفّض للنهوض استأذن احمد وضرغام في الانصراف وذهب كل منها الى منزله حيث تواً ويسم المسجد .

دخل الخليفة اولاً والناس وقوف للتبرك برؤيته . وفيهم الفواد والوزراء حتى اذا دخل المفصورة الخاصة في أثره ، وفيهم القاضي احمد . ومحمد بن عبد الملك الزيات وزيره ، وقواده الاتراك الذين ذكرناهم . اما ضرغام فدخل حتى وقف في جملة الحاشية وكانت المرايا في الجدران على شكل غريب يرى الناس صورهم فيها كأن امامهم مسجداً اخر فيه أناس يصلون ووقف ضرغام في جملة الواقفين للصلاة . وبينما ضرغام واقف يصلي وعيناه على المرايا في المحراب يرى الناس يدخلون من الباب وراءه من يعرفهم ولا يعرفهم ، وقع بصره على رجل لم يكذبته حتى أجفل ولم يتسالك ان التفت الى الورا ليتحقق ظنه فاذا هو مصيب في تخيله . وكان قد رأى بالمرآة صورة سامان اخسي جهان ، فاحتال في التقهقر رويدا رويدا حتى دنا من الباب ورآه سامان يتقهقر فسبقه الى صحن المسجد ، فخرج ضرغام في أثره وهو يحدق فيه ويكاد ينكره لما رأى في حاله من التغير . فقد فارقة في فرغاة وعليه لباس اهل الوجاهة مما يعوض عن قبح صورته بعض الشيء ، ولكنه رآه

هذه الساعة في حالة يرثى لها من الضعف وراثثة الثوب وقد ربط زنده وعصب رأسه ووقف ذليلا كئيبا ، فأثر منظره فيه وأخذته عليه الشفقة وخشي ان يكون قد اصاب جهان سوء فصاح به : «سامان ؟» • قال : «نعم انا سامان يا سيدي» •

فقال : «ما بالك ؟ ماذا جرى لك ؟ اين جهان ؟»

قال : «اذا اذنت لي في خلوة قصصت عليك كل شيء ، فقد تعبت من البحث عنك في سامرا ، وأخيرا اتيت المسجد لعلي اراك» • فأشار اليه ان يشي وراءه في صحن الجامع وقال : «يظهر انك سألت عني باسمي القديم (ضرغام) وأنا اليوم لا يعرفني احد بهذا الاسم، وانما اسمي الصاحب • اين جهان وما لي اراك رث السربال على هذه الحال ؟» • وكانا قد اتھيا من الصحن الى بناء مربع على هيئة الكعبة • فرأى الصاحب ان يدخل اليه ليختلي بسامان اذ لم يبق له صبر حتى يصل الى المنزل فدخل وأتار اليه ان يجلس على دكة هناك وهو يقول: «اخبرني اين جهان وماذا جرى لكم ؟»

فجلس ينهد ويتمسكن وقال : «أحمل اليك خبرا لا يسرك» • فاضطرب ضرغام وقال : «هل اصاب جهان سوء ؟» قال : «لم يصبها سوء ولكن ..» • وبلغ ريقه • قال : «ولكن ماذا ؟ اين هي ؟ قل» • قال : «لا أدري اين هي يا سيدي .. فقد خطفها مني اللصوص» • قال ذلك وتظاهر بالبكاء •

فزأر ضرغام كزأر الاسد وحملق عينيه ووقف شعر شاربيه وأصبح منظره مخيفا وقال : «اختطفوها ؟ من تجاسر على ذلك ؟» قال : «لا أعلم يا سيدي من اولئك اللئام الذين اختطفوها • ولكن تمهل قليلا حتى أقص عليك الخبر كما وقع» •

قال : « قل وأوجز » •

قال : « فارقتنا يا مولاي وظللنا في فرغانة بعد سفرك بضعة ايام
ذقنا فيها الأمرين » • قال ذلك وأرسل بصره الى صحن الجامع وخفض
صوته كأنه يحاذر ان يسمعه احد • فلما تحقق خلو المكان من السامعين
قال : « ان مصيبتنا امت من اقرب الناس الينا • امت من الرجل الذي
أوصاه ابي بنا • فالأفشين لم يكتف بأنه حرمني من ميراث ابي حتى مد
يده الى أختي ! »

فاقشعر جسد ضرغام من هذا التعبير مع ظنه انه يعني تعديه على
حصتها من الميراث كما تعدى على حصة سامان ، ولم يخطر له شيء وراء
ذلك فقال : « أظنه طمع في ميراثها ايضا ؟ » •

فتشاغل سامان بحك ذقته الاجرود وتنحنح وظل ساكتا ، فارتاب
ضرغام في امره فقال : « أليس الامر كما اقول ؟ »

قال : « لو انه اكتفى بالارث لكان خيرا ، ولكنه طمع فيها هسي
نفسها • ويحزنتني ان أغضبك بهذا الخبر ولكنه الواقع وعلي ان أصدقك •
فانه طلب الاقتران بأختي على علمه انها مخطوبة للبطل ضرغام وانها
يستحيل ان تقبل سواه » •

فقال ضرغام وهو يرتعد : « ثم ماذا ؟ »

قال : « تداركنا الامر بالفرار ، ففررت انا وجهان في قافلة بما خف
حملة من المال والمتاع ، ولم نخبر احدا من اهل القصر الا القهرمانسة
خيرزان ، فأخذناها معنا وركبنا مسرعين نقصد الى سامرا قبل ان يعلم
الافشين بنا ، فقطعنا البراري والقفار ، وقاسينا عذابا شديدا من الحر
والبرد والتعب حتى دخلنا خراسان ودنونا من همدان • وهناك فارقتنا
القافلة وحسبنا اننا صرنا في أمان ، فاعترضنا قوم من قطاع الطريق على
خيولهم فدافعنا عن انفسنا دفاعا حسنا جهد طاقتنا حتى كلت يدي وجرح

رأسي ، وكنت أتمنى لو أقتل وتبقى جهان سالمة ولكن ...»
فصاح به : «ولكن ماذا ؟ هل اصابها سوء . أليست حية ؟»
قال : «هي حية يا سيدي ولكنهم خطفوها وذهبوا بها وبقرماتها ،
وآخر ما سمعته منها قواها : (سلم على ضرغام وأخبره بما جرى)» .
فتعاطف غضب ضرغام حتى غلى دمه واحمرت عيناه وقال : «ومن هم
اولئك اللصوص ؟ ألم تعرف احدا منهم ؟»
قال : «كلا فقد كانوا ملثمين ولم يفوهوا بكلمة ولا سمعنا لهم صوتا
خوفا من انكشاف امرهم» .

* * *

وأطرق ضرغام برهة كان فيها بالضائع يحسب نفسه في حلم او كأنه
اتقل الى عالم آخر ، ثم اتبه لجلبة الناس اثناء خروجهم من المسجد
وتذكر ان الخليفة معهم ، فخاف ان يراه مختبئا فيشك في امره فخرج
واختلط برجال الدولة وأشار الى سامان ان ينتظره فظل واقفا في مكانه .
وبعد قليل انفرج الوقوف وشقوا طريقا للخليفة ووقفوا للتحية فمر بهم
المعتصم يتفرس في وجوههم حتى وقع بصره على ضرغام فأشار اليه ان
يتبعه ، فاستعاذ بالله وخاف ان يكون في تلك الدعوة ما يحول دون
البحث عن جهان . وتفرق الناس عن الخليفة رويدا رويدا حتى وصل الى
القصر ولم يبق معه غير ضرغام ، فدخل وأشار اليه ان يلحقه ففعل حتى
وصلوا الى غرفة خاصة فالتفت الخليفة اليه وقال : «رأيتك خرجت من
المسجد قبل الفراغ من الصلاة» .

فخجل ضرغام من هذا الاستفهام وقد فاته ان الخليفة يرى الخارجين
والداخلين بالمرايا كما رأى هو سامان ، ولكن رؤية سامان فجأة أنسته

نفسه وموقفه . فلما سأله الخليفة عن سبب خروجه اعتذر بقوله :
«خرجت لمشاهدة رجل لم اكن أنتظر رؤيته ويهمني امره ، وكان ينبغي
ان أتم الصلاة لأكون في معية امير المؤمنين ، فغفوا لمولاي واني أعد
ملاحظته التفاتا كبيرا الى صنيعته» .

قال : «اني كثير الاهتمام بشؤونك لانك صاحبي ، فأرجو ألا يكون
عليك بأس مما رأيته او سمعته» .

فراى ضرغام الفرصة مناسبة للاستئذان في الذهاب الى همذان فقال:
«لا بأس علي ما دمت في ظل مولاي امير المؤمنين ، ولكن قوما ممن
اهلي كانوا قادمين من فرغانة الى العراق فأصابهم ما آخر وصولهم
فبعثوا يستعينون بي على ذلك ، فهل يأذن مولاي بذهابي بضعة ايام؟»
فأطرق المعتصم ثم قال : «سر ولا تطل الغياب ، واذا رأيت ان تسعين
بجند او بريد فافعل» .

فانحنى ضرغام شاكرا واستأذن وعاد الى المسجد حيث ترك سامان ،
وقد سره اهتمام المعتصم بأمره ولكنه ظل مضطرب البال لما سمعه عن
جهان والافشين ، ولم يكن الافشين قد وصل الى سامرا بعد ، فراى
ضرغام المبادرة الى همذان فأمر باعداد أفراس البريد ينتقل بها هو
وسامان ، وذهب لوداع أمه وذكر لها انه ذاهب في مهمة يعود منها بعد
بضعة ايام ، فقبلته وودعته . فركب في ذلك المساء وقلبه يكاد يسبقه من
شدة القلق الى همذان ، وكلما وصل الى محطة من محطات البريد لتبديل
الركائب يسأل الناس هل سمعوا ببلصوص يلجأون الى بعض الاماكن في
ذلك الناحية . وكان يواصل السير نهارا وليلا ولا ينام الا قليلا حتى
دنوا من همذان وبجانبها جبل وعر وطريق البريد بجانب ذلك الجبل
وفيه محطة لخيال البريد ، فلما وصل الى هناك سأل سامان : «ألا تذكر
المكان الذي وقع فيه الحادث؟»

قال : « وراء هذا الجبل على ما اظن » .

وكان وصولهم الى الجبل عند الغروب وقد أعد له اصحاب البريد منزلا يبيت فيه ، ولكنه لم يستطع صبرا الى الغد . وكان في تلك المحطة غير واحد من السعاة والكوهبانية وأصحاب الاخبار التقوا هناك صدفة وكل منهم سائر في طريق ، وعلم صاحب تلك المحطة ان صاحب من خاصة الخليفة وقد جاء للبحث عن شيء يهمه ، وأنبا الآخرين بذلك فأصبحوا يتوقون الى خدمته ، وسأل ضرغام صاحب المحطة : « هل انت هنا من زمن طويل ؟ »

فقال : « من بضعة اسابيع ونحن اصحاب البريد تنتقل دائما ، فهل يأمر مولاي بخدمة نقوم بها ؟ »

قال : « شكرا لك ، هل سمعت بلصوص او قطاع طريق يعتصمون في بعض هذه الاودية او الجبال او يمرون من هذه الامكنة ؟ »
قال : « قلما نسمع بشيء من هذا ، ولكنني علمت بالامس ان جماعة من قطاع الطريق معتصمون وراء هذا الجبل ولم يصل خبرهم الى الحكومة بعد على ما اظن » .

فلما سمع ضرغام كلامه قال له : « ارسل معي رجلا يهديني الى مكان اولئك المصوص » . ومشى .

فأعجب الرجل بشجاعته ومبادرته الى الذهاب وحده فقال : « ألا ترى يا سيدي ان ترسل احدا للبحث عنهم وتمكث انت هنا ؟ »

قال : « كلا ، يكفي ان ترسل معنا رجلا يدلنا على الطريق » . ومشى وسيفه الى جانبه وقد التف بعباءته والكوفية حول رأسه ، وتبعه سامان ورجل من حراس تلك المحطة ، سار امامهما في شعاب وعرة وقد غابت الشمس وأخذ الظلام يتكاثر ، وضرغام مطرق لا يلتفت ولا يتكلم ، حتى انتهوا الى منعطف في ذلك الجبل فوقف الدليل وأشار يده الى نور

ضعيف على آكمة امامهم وقال : «هذا مقر القوم يا سيدي ، وأخاف ان يبطشوا بنا » •

- ١٤ -

المعتصم والعرب

أظهر سامان انه يود الذهاب مع ضرغام ، ولكن هذا ابقاه هناك ومشى وحده يتعثر بالحصى ويسمع لوقوع نعاله قرقة كأن غضبه أعماه عن الخطر الذي يهدده بالسير وحده ، ولكنه كان شديد الاعتداد بقوته كثير الاعتماد على بسالته • حتى اذا صار على مرمى سهم من مقسّر اللصوص ، رأى أشباحا تتراوح بينه وبين المصباح وسمع هرير الكلاب فلم يبال • وراه القوم قادما وحده فلم يخطر لهم انه عدو لعلمهم ان العدو لا يجسر على القدوم وحيدا فتصدر واحد منهم وصاح : «من هذا؟» فقال ضرغام : «قادم يبحث عن ضائع •• اين كبيركم؟»

ومضت لحظة رأى في اثنائها القوم في حركة وتهامس ، ثم تقدم واحد منهم ويده قبس وقد تلثم بكوفية والتف بعباءة ، ففرس ضرغام فيه فلم يعرفه ولكنه جعل يده على قبضة سيفه وهو يتحفز للوثوب او الدفاع ولم يكد صاحب القبس يصل الى ضرغام حتى قال له : «اهلا بضرغام ، اهلا بالصاحب» •

فلما سمعه يناديه باسمه خفق قلبه واستأنس به ولكنه لم يعرفه فقال:

«من انت ؟»

وكان قد وصل اليه فأزاح اللثام وأدنى القبس من وجهه وقال : «ألم

تعرفني ؟»

فتفرس ضرغام فيه ولما عرفه صاح : «حماد ؟ ما الذي اتى بك

الى هنا ؟»

قال : «اتى بي الى هنا ظلم صاحبك • تفضل» • قال ذلك وصفر صغيرا أبطل نباح الكلاب ، وفرق الرجال الذين كانوا مجتمعين ومشى وهو قابض على يد ضرغام يرشده الى الطريق ، وضرغام يعجب لما يراه لانه يعرف حمادا من وجوه رجال الدولة في سامرا ، وقد رآه فيها منذ اسابيع وكان صديقا حميما له ، فتبعه مطمئنا حتى وصلا الى بناء قديم حجارته فضضة وجدرانها مهدمة • ولو تفرس القادم فيما بقي من أنقاضه على ضوء القبس لرأى عليها نقوشا وصورا من آثار قدامى الفرس • ولكن ضرغاما لم ينتبه الى شيء من ذلك • واذا بصاحبه قد أوصله الى غرفة ليس فيها شيء من الاثاث او الرياش ، ولكنه شاهد في ارضها أكياسا من الحبوب وصناديق فيها الآنية والمتاع كأنها اخذت من اصحابها التجار في تلك الساعة • فأشار حماد الى ضرغام فجلس على صندوق وجلس هو على صندوق اخر وقال : «أظنك تعجب لما تراه ؟»

فقال : «كيف لا أعجب وقد بلغني عن هذا المكان انه مأوى للصوم

وأراك فيه كواحد من اهله» •

قال : «بل انا زعيم اصحابه • ولم اكن لأكشفك بذلك وأدخلك

هذا المكان لولا ثقتي بك ولتعلم مغبة ظلم صاحبك» •

قال : «أتعني امير المؤمنين ؟»

قال : «بل أعني امير الاتراك والفراغة ، واذا أخرجني قلت انه امير

الكافرين مثل اخيه المأمون» •

فشغل ضرغام بهذا الامر الغريب عن الغرض الذي جاء من اجله فقال:
«اني لا ارى مسوغا لهذه النقمة ، ولولا ما تعلمه من حبي لك ما صبرت
على ما أسمع منك ، ولكنني أذكر صداقتك وأحب ان تصرح لي بما
يكنه ضميرك عساي ان اذهب ما في نفسك من الغل على الخليفة ، ونحن
في حاجة الى رأيك وسيفك وأعداؤنا كثيرون فلا ينبغي ان تفرق» .
فاعتدل حماد في مجلسه وبان الاهتمام في وجهه وقال : «لا ألومك
على دفاعك عن المعتصم لانه صديق الاتراك والفراغنة ، وقد عادى اهله
وعشيرته من اجلهم . وأنت الان صاحبه ومن اقرب المقربين اليه . لا
اقول انك لا تستحق ذلك بل انت اهل لاكثر منه ، ولكنك لو كنت في
مكاننا نحن العرب لما قبلت ما يأتيه هذا الرجل من المظالم . لم يكفه انه
صادرنا في ديننا وجلد الامام احمد بن حنبل الرجل التقي البار حتى غاب
عن رشده وسال دمه ونقطع جلده ثم قيده وجبسه واضطهد كل من لم
يقبل بخلق القرآن ، لم يكفه ذلك حتى قطع العطاء عن العرب كافة ، ومنع
المسلمين من روايتهم ولم يفعل ذلك احد قبله . ولا أذكرك بما كان
للرب من العز والسؤدد في عهد الراشدين والامويين يوم كان الفرس
والترك وسائر الاعاجم يعدون من العبيد او الموالي ، ولا يستنكفون ان
يكون العرب سادتهم بل كانوا يتشرفون بالانتماء اليهم . وانما أذكرك
بما كان لهم من الزعامة في صدر الدولة العباسية مع انها قامت بسيوف
الفرس . حتى المأمون الذي حارب العرب وحاربوه لم ينقص شيئا من
أعطياتهم كما فعل المعتصم هذا ، مع ان المأمون كان معتزليا مثله يقول
بخلق القرآن ويضطهد الأئمة القائلين بقدمه ، ولكنه كان يعلم ان العرب
مادة الاسلام وأصل هذه الدولة وروح هذه الامة . أما صاحبك فقد
قطع العطاء عن كل عربي ، ولم يفعل ذلك عن فقر او جذب فانه ينفق
الاموال الطائلة في اصطناع الاتراك والأشروسنية والفراغنة وقد بنى لهم

سامرا وأحضر لهم النساء والجواري وأسال النصار في خزائهم • ولو كنت انت اعرايا ما صبرت على ذلك» •

فلم ير ضرغام حجة يدفع بها قول حماد ، لعلمه انه يقول الحق ، ولكن غيرته على المعتصم واخلاصه في خدمته حملاه على اتحال الاعذار فقال : «لا أنكر عليك ما ذكرته من مواضع النقد على امير المؤمنين • ولكنك حملت ذلك منه على سوء القصد فهو قطع العطاء عن بعض العرب بعد ان تحقق عداوتهم للدولة ، ومنهم من حاربه وجرد الجيش عليه • أما الذين يخلصون في خدمته فيبالغ في تقريهم والانعام عليهم • هذا القاضي احمد بن ابي داؤد لا ازيدك علما بمنزله عند الخليفة وهو عربي • وانت ؟ الم تكن مقربا ولك منصب رفيع ؟»

فهن حماد راسه وقال : «اراك تحسن الدفاع عن صديقتك الخليفة • وفد اتيت بالقاضي احمد شاهدا وهو عربي من بين الوف قد لحفهم الذل والعار والفقر • أما انا فقد كان لي منصب وبئس المنصب لو بقي • جعلني سادن الكعبة النبي انشأها في سامرا ليحول المسلمين عن كعبة مكة ويذهب بما بقي للعرب من مصادر الرزق حتى يميت عرب الحجاز لانهم يرتزقون من الحجاج فأنشأ الكعبة في سامرا ليغني المسلمين عن الحجار ••»

فقطع ضرغام كلامه قائلا : «ولكنه ليس اول من فعل ذلك من الخلفاء او الامراء فقد حاول ذلك الحجاج والمنصور ولم يفلحا» • فقال : «وهذا لن يفلح ايضا لان بيت الله في مكة فلا يسدر ان يجعله في سامرا» •

* * *

ورأى ضرغام ان الحديث قد طال فيما لا يهمنه بقدر ما يهمنه الامر

الذي جاء لاجله ، فأراد ان يختصر الكلام فقال : «ومع ذلك لا اجد فيما ذكرته مسوغا يجيز لك اللصوصية» .
فقال : «لا تقل اللصوصية . اننا لم نرتكب شيئا من ذلك على الاطلاق» .

فتضحك ضرغام وهز رأسه استخفافا بدفاع حماد . فابتدره هذا قائلا : «لا تضحك يا صديقي . اننا لا نسرق وما نحن لصوص وانما نحن نستولي على حقوقنا بأيدينا» .

فاستغرب قوله ونظر اليه وتناول بعنقه نحوه كأنه يستفهمه فقال حماد : «ان هذه الاموال التي تجدها ملقاه هنا انما هي حق الفقراء وأبناء السبيل بأمر الله تعالى في كتابه : وهي عشور الاموال او أخماس النقيء، فهذه كان الخلفاء في صدر الاسلام يأخذونها من اصحاب الاموال والتجار ويفرقونها صدقة او عطاء ، وقد قطع المعتصم هذه الأعطيات ، فهل يموت المسلمون جوعا لانهم عرب ؟» فنحن انما نستولي على حقوق الفقراء بالقوة لأن الامام اراد ضياعنا !»

فتعجب ضرغام لقوة تلك الحجة ولكنه اراد وقف الجدل فقال : «مالنا وذاك . لقد علمت انك كنت في سامرا من عهد قريب ولم يقطع الخليفة عطاءك فما الذي حملك على الخروج ؟»

فوقف حماد وتنهد وتغيرت سحته من الغضب الى الكآبة ونظر الى ضرغام وقال : «ان ما حملني على هذا الخروج وأثار فيّ هذه الضغائن امر اصاب مني مقتلا . اصاب قلبي فأذهب رشدي فأنا ناظم على الرجل الظالم ما دمت حيا» . قال ذلك وقد تصبب العرق من جبينه ، فازداد ضرغام رغبة في كشف خبره وتوسم من عبارته انه يشكو من حبيب فارقه فقال : «وما ذاك يا اخي ؟» قل وأوجز فاني اتيتك لأمر يهمني كثيرا فشغلتني بأمورك» .

قال : «مهما يكن من امرك فلست بالغا امري . احببت جارية لبعض
البغداديين وأحببني ، فلما اقدمت على الزواج بها ، تصدى لي رجل من
خاصة المعتصم اسمه الحارث السمرقندي أظنك تعرفه وطلبها لنفسه
وأخذها مني عنوة ، فشكوت امري الى الخليفة على يد القاضي احمد
الذي ذكرته فأجابني بقوله : (ابحث عن جارية اخرى فان هذه لا تكون
لك) . مع علمه بأنها تحبني حبا شديدا» . ثم تنهد وقال : «آه يسا
ياقوتة » .

فقال ضرغام : «هل اسمها ياقوتة ؟»

قال : «نعم هذا اسمها . فهب اني اغضيت عن كل السيئات التي
ذكرتها فهل أقدر ان أغضي عن هذه ؟ اني والله ناقم على الخليفة
ودولته ، وما خرجت لأكون لصا وانما خرجت لانتقم من هذه الدولة ما
وجدت الى ذلك سبيلا ، وأعداؤها كثيرون» .

فتأثر ضرغام من حكاية ياقوتة لانه واقع في مثلها . والانسان انما
يشارك الناس في المصائب التي أصيب بشلها او يخشى ان يصاب بها .
فالأعزب لا يشعر بمصاب الآباء بفقد ابنائهم كما يشعر من تزوج وله
ولد ، ولا يشارك المحب في شعوره الا الذي جرب الهوى . فقال
ضرغام لحماة : «هون عليك ولعلي أنفعك في شيء من شكواك . وقد
آن لي ان اسألك عن الامر الذي جئت في هذا الليل لاجله فأعزني سمعك
واعلم اني اول من يشاركك احساسك لاني واقع في مثل ما انت فيه» .
فقال حماد : «قل ايها البطل فاني سامع» .

قال : «لي خطيبة كانت في فرغانة وأنا في سامرا ، فركبت مع
اخيها وجاريتها ، فلما وصلوا الى همدان هجم عليهم اللصوص واختطفوا
الفتاة وجاريتها وجاء الي اخوها بالخبر فأسرت للبحث عن الجناة فأنبأني
صاحب البريد عن هذا المكان فأتيت فما قولك ؟»

قال : «اما نحن فلا نختطف نساء . وقد اخبرتك بما نفعله ، وأنا على يقين انه ليس في هذا الحوار لصوص او قاطعو طريق» .
قال : «ولكن أخا الفتاة شهد الواقعة وهو الذي نجا من المعركة وأخبرني» .

فهز رأسه هزة الانكار وقال : «نحن هنا منذ اسابيع ، ولم نسمع بحدوث شيء من ذلك وأظن الراوي كاذبا» .
فاتبه ضرغام الى ما يعلمه من سوء نية سامان من يوم عرفه فقال:
«ان الراوي واقف في مدخل هذه الشعب . وسأستقدمه اليك لتسأله» .
فأتار حساد الى بعض رجاله ان ينادي الرجل الواقف هناك فذهب وعاد يقول انه لم يجد احدا . فذهب ضرغام بنفسه فلم يجد سامان .
وسأل الدليل عنه فقال انه مضى الى حيث لا يعلم . فبعث في البحث عنه فلم يف له على أثر ، فرجع لديه ان في الامر سرا غامضا وأن الرجل قد يكون كاذبا فيما رواه حتى عن الافشين ، فقلت ثقته بما رواه عن جهان . ولم ير بدا من الرجوع الى سامرا ، فاستأنف الكلام مع صديقه ونصح له ان يرجع معه فلم يرض وقال : «لا ارى في رجوعي فائدة ولو اقتصر ظلم صاحبك علي خسارة المال لتحملته ولكنه طعنني في قلبي وأنت نقدر شعوري . فلا تلمني» .

فذكر ضرغام مصيبيته وتصور نقمته على خاطف حبيبه فعذره وقال:
«صدقت اني معك فيما ذكرت ، ولو علمت ان الخليفة صادرني فسي خطيبي لنقمت عليه مثل نقمتك وأشد منها . فافعل ما بدا لك . وعلى كل حال أرجو ان تذكرني ولك مني مثل ذلك» . وأطرق قليلا ثم قال:
«واذا حدث ما يدعو الى الاتصال بك او المجيء اليك فهل اجدك هنا؟»
فأجاب : «لا أعلم اين يكون مقري بعد الليلة ، وما قيامي هنا الا الى أجل موقت . وأنا اذا وفقت الى امر يسرك وأردت ان اراك فأين

تكون ؟ »

قال : « في سامرا » .

* * *

ودع ضرغام صاحبه وهو يفكر فيما سمعه ، وصورة جهان لا تذهب من مخيلته ، لانه في المكان الذي فيل له انها اخدت فيه والليل مظلم مثل ظلام الليلة التي خطفت فيها . فتصور حالها وهم يقبضون عليها ونوهم انه يسمعها تستغيث به ويناديه باسمه فافشعر بدنه وحرق اسنانه . وفضى في تلك الهواجس مدد وهو يلسس ذلك الطريق الوعر على هدي الدليل يسير بين يديه حتى ادرك محطة البريد فركب وعاد الى سامرا . وطريق البيت في الرجوع اليه أقصر منها في الخروج منه ولكن ضرغاما استطال الطريق واستبطأ وصوله لشدة رغبته في ملافاة وردان لكسي يستشيريه في الامر وقد تعود دكاهه وصدق فراسته .

وأشرف ضرغام او الصاحب على سامرا نحو الغروب والشمس تقابله وقد ضعف نورها وتبددت أشعتها واحمر لونها وتكور شكلها وتعظم حرمها فظهرت كأنها كرة من نار سابحة في ضباب من دم . ونظر الى ابنة سامرا وأعظمها قصر الخليفة والمسجد الاعظم ومنازله تاطح السحاب . ويخترق المدينة من الشمال الى الجنوب نهر دجلة وعلى ضفافه اشجار النخيل واقفة وقوف الجند يحصلون سهامهم في عائنهم . فشغله منظر الطبيعة عما في نفسه فأحس بارتياح فوفى هنيهة والبريدي على بغلته الى جانبه لم يدهشه ذلك المنظر لانه تعودته والنفس يختلف تأثرها بمناظر الطبيعة باختلاف حالها . والمحبون اكثر الناس مشاركة للطبيعة في أحوالها .

وأحس ضرغام بميل الى الانفراد هناك ، فأشار الى البريدي ان يسبقه الى سامرا فأطاع ، وبقي ضرغام وحده يراقب الشمس ساعة الغروب وهي تتراءى لعينه من وراء جذوع النخل عن بعد ، بألوانها القزحية وان غلب عليها لون الارجوان . حتى اذا ادركت حافتها الأفق استطالت تلك الحافة الى شبه خرطوم نزل وراء الأفق وهبطت في أثره الهويناء وقد اخذت الظلال تستطيل وتنتشر حتى توارت الشمس وخلفت مكانها أفقا اخذ احمراره في الاكتهار شيئا فشيئا ، من الدموي الى الارجواني فالبنفسجي فالازرق على اختلاف ألوانه ، حتى استحالت الظلال الى ظلام . فأحس ضرغام بانقباض نبهه الى المسير فوخز الفرس وخزا خفيفا فمشى مشيا بطيئا حتى تخال مغارس المدينة من طرفها الاسفل ، وتراءى له دجلة في مكان لا يغشاه النخيل فيممه على ان يسير على ضفته الى الجوسق .

وكان الجو هادئا فلما دنا من دجلة عاد الى تخيله فلج في نيار فكره والجواد يسير على ضفة النهر من تلقاء نفسه . وقد هب النسيم عليلًا وسكنت الطبيعة فلم يعد يسمع الا حفيف الورق ووقع حوافر الفرس . ولم يكن ضرغام يسمع شيئا لذهوله ، واذا بجلبة فاجأته من ورائه وسمع صوتا وقع وقوع السهم في قلبه وأجفله لانه صوت امرأة تستغيث قائلة : «خافوا من الله .. اتركوني .. يا ناس .. اتركوني ..» ثم اختنق الصوت . فارتعدت فرائص ضرغام لان الصوت كثير الشبه بصوت جهان ، وتذكر ما اصابها من اللصوص ، وتصور انها استغاثت بمثل هذا الكلام ولم ينجدها احد فصمم على نجدة هذه المستغيثة لعل الله يوفق جهان الى منجد ينقذها . وسرعان ما ترجل عن جواده وركض الى جهة الصوت شاهرا في يده حسامه وهو يقول : «لييك لييك . اتركوها ايها اللثام» .

قال ذلك وهو لا يرى احدا لشدة الظلام فيخاف ان تكون قد خدعته
أوهامه وان ما سمعه هاتف يمثل له جهان • لكنه ما عثم ان سمع الصوت
يقرب منه ورأى شبح امرأة تعدو من ضفة النهر باسطة يديها اليه
وتصيح : «بالله اغثنني اشفق على حياتي» • ورأى رجلين يجريان في
أثرها وقد شهر احدهما السيف ويقول : «الى اين تهريين يا خائنة •
سأقتلك لا محالة» •

فصاح ضرغام : «دعها يا رجل والا ضربت عنقك» •
فلم يبال الرجل وظل مسرعا حتى كاد يدرك المرأة وكانت قد وصلت
الى ضرغام وترامت على قدميه • فلما رآه ضرغام هاجما والسيف بيده
تناوله بضربة اطارت رأسه فوق مجندلا بدمه ، وهجم على رفيقه وهم
بأن يضربه فرآه أعزل فأمسك وصاح فيه : «من اتم ؟» • فقال : «مالك
ولنا ؟ ليس هذا من شأنك • دع الجارية وامض في سبيلك وسترى
عاقبة امرك» •

قال : «قف حيث انت والا قتلتك • او قل لي من انت وما خبر هذه
الفتاة ؟»

قال : «انها جارية هربت من بيت مولاهما فبعثنا للبحث عنها فأدركناها
هنا وأبت الرجوع فهددها رفيقي تخويفا لها • ولولاك لرجعت صاغرة
ولكنها سببت قتل رفيقي • وسوف تعلم مصيرك» •

فلما سمعت الجارية كلامه وكانت مستلقية على العشب من التعب
نهضت وصاحت : «كذبتن ايها الغادرون ليس الامر كذلك» •

فلما سمع كلامها شبه له صوت جهان واختلج قلبه في صدره
واستبعد ان تكون هي نفسها اذ لو كانت هي لعرفت صوته فقال للرجل :
«قل الحق ولا تخوفني بأحد والا ألحقك برفيقك» •

قال : «لا تغتر بما سمعته ، ان هذه الجارية هاربة من بيت الخليفة

فمن يجسر على حمايتها؟»

قال : «انا اجسر ، دعها وسر في طريقك» •

فصاح الرجل : «من انت حتى تجسر على ذلك؟»

فحول ضرغام وجهه عنه وأمسك الفتاة بيدها ومشى وهو يقول : «قل للخليفة او لسواه من يدعي السيادة على هذه الفتاة انها في حماية
الصاحب» •

فلما سمع الرجل اسمه تراجع وبهت كأنه صعق ثم قال : «عفوك يا مولاي عن جرأتي اذ لم اكن اعلم ان مولانا الصاحب يخاطبني» • قال ذلك وقفل راجعا •

أما ضرغام فترك يد الفتاة ومشى الى جواده وكان لا يزال واقفا في مكانه فقاده بلجامه وسار وقال للجارية : «امشي يا بنية لا تخافي • وأخبرني عن حقيقة امرك فقد سلمت الان من الخطر» • فقالت وصوتها مختنق : «أشكر الله اذ ارسلك لاتقاذي ، ولولاك لذهبت ضحية الظلم» •

فأثربه صوتها وأحب ان ينظر الى وجهها وفلقه على جهان يوهمه انها قد تكون هي بعينها ولكن الظلام كان يحول دون ذلك فقال لها : «فولي ما خبرك؟»

قالت : «كنت جارية لبعض الناس وأعتفني سيدي لوجهه الله . فطلبني شاب عرفني وعرفته وتحايينا وتواعدنا على الزواج ، ثم رأني رجل من بطانة امير المؤمنين يقال له الحارث السرقندي ، فنهرب اليه وخطبني لنفسه فأبيت عليه ذلك» •

فلما سمع ضرغام اسم الحارث ذكر ما سمعه من حساد فقال : «وما اسم خطيبك؟» • قالت : «حماد» • قال : «فانت اذن يا قوته؟!»

فلما سمعته يذكر اسمها دهشت وتلعثم لسانها وقالت : «كيف عرفت ذلك يا مولاي ؟ هل تعرف حمادا . اين هو ؟»
قال : «عرفته ولكن لا سبيل اليه الان . وسأقص عليك خبره فيما بعد . فأتني حديثك» .

فلم تعد تعرف كيف تتكلم لشدة فرحها فقالت : «فلما ايت على الحارث ما اراد وسط القاضي احمد لدى امير المؤمنين . فطلب الخليفة ان يراني ، فلما مثلت بين يديه نظر الي طويلا ثم أودع اذن القاضي كلاما وأمرني ان ابقى عند الحارث بلا زواج حتى يبدي رأيه فيّ . فأخذني الحارث الى منزله وحبسني وأخذ يحاول اقناعي بأن أقترن به . تارة بالحسنى وطورا بالتهديد . حتى جاءني منذ بضعة اسابيع وهو يهزأ بي ويقول : (ان خطيبك غادر سامرا) فلم أصدقه وعزمت على الفرار الى حماد وهو على مقربة من قصر الخليفة . فأدركني هذان الرجلان وهما من أعوان الحارث وأرادا ارجاعي ، ولما رفضت الرجوع هدداني فصحت الصيحة التي سمعتها وجئت لانقاذي جزاك الله عني خيرا» .

فلما فرغت من حديثها سره انه انقذها اكراما لصديقه . ولكنه تذكر ان حمادا برح همدان في الليلة التي فارقه فيها ولا يعرف مقره فظل ساكتا وهو يفكر في ذلك وصورة جهان امام عينيه وهو يناجي نفسه : «هل يناح لجهان من ينقذها يا ترى كما انقذت انا هذه الفتاة ؟» . ظل برهة يفكر في ذلك وياقوتة ماشية الى جانبه وقلبا يخفق سرورا وقلقا وهي تتوقع ان تسمع منه ما يعلمه عن حبیبها ، فلما استبطأته قالت : «وعدتني يا مولاي ان تخبرني عن حماد . هل خرج من سامرا ؟»

قال : «نعم خرج منها كما قال لك الحارث» .

قالت : «وأين هو ؟» . قال : «لا ادري . وقد لقيته منذ بضعة ايام في مكان خارج بغداد وأخبرني انه مسافر الى حيث لا يعلم ، وقد قص

علي غضبه من الحارث والخليفة من اجلك • كوني على ثقة انه شديد المحافظة على ودك» •

فلطمت خدها بكفها وقالت : «ويلاه وأين اذهب وأين ايت وكيف أعرف مقره ؟»

فقال : «لا بأس عليك ، انك تمكثين في منزلي مع امي حتى يأتي الله بالفرج ، فاني على موعد مع حماد ان يكتب الي عند الحاجة لانه صديقي» •

فقلت : «جزاك الله خيرا يا سيدي ولكن ...»

قال : «لا تخافي يا أخية انما تكونين مع امي في خير وأمان لا يمك احد بسوء ، ان امي وحيدة في البيت ولا ريب انها تتخذك ابنة لها وتستأنس بك كثيرا» •

واتجهت ياقوتة في تلك اللحظة الى انها على مقربة من الجوسق فوقت وقالت : «اراني بجانب قصر الخليفة ؟»
قال : «اني أقيم بقصر داخل هذا الجوسق» •

فتراجعت وقالت : «اكون اذن في خطر اذا عرف الخليفة بأمرى ؟»
قال : «كوني مطمئنة • انك في مأمن عندي» • وكانا قد وصلا الى باب الجوسق فلما رأى الحراس ضرغاما وسعوا له وتقدم احدهم فأخذ الجواد الى الاصطبل • وسار ضرغام مع ياقوتة حتى اتى منزله ، فلما رآه الخدم اسرع بعضهم الى أمه فبشروها وأناروا الشموع ، فدخل والفتاة في أثره حتى توسط الدار وأول شيء فعله انه تفرس في الفتاة على نور الشموع وحالما وقع بصره عليها خفق قلبه وبدأت البغلة في وجهه لشدة المشابهة بينها وبين جهان ، فقال في نفسه : «سبحان الخالق ما هذه الصدقة ؟ وأحس بارتياح الى الفتاة ، وأعجبه ما قرأه في محياها من الهية والجمال رغم ما كان يغشاها من الاضطراب • ويكفي لارتياحه

اليها مشابقتها حييته بالوجه والصوت • وزاده استثناسا بها ما قاساه في
سبيل انقاذها • والمرء بفطرته يحب الذين يشقى في سبيل راحتهم ، ولذلك
كان الرجل اكثر انعطافا الى أشد اولاده حاجة اليه • وكلما تعب الوالد
في سبيل ابنه ازداد تعلقا به • ولو لم يكن قلب ضرغام مشتغلا بجهان
لتعلق بياقوتة •

أما آفتاب فكانت قد تهيأت لاستقبال ابنها فلما سمعت وقع خطواته
أسرعت اليه وقبلته • ثم شعرت بحركة في الدار فقالت : «من رفيقك ؟»
قال : «بل هي رفيقة لك» •

فظنت انه جاءها بجهان فتوجهت ببصرها نحو الحركة التي كانت
تسمعها كأنها تستقبل الضيفة وصاحت : «هل هي جهان ؟»
فوقع قولها وفعا تديدا على قلب ضرغام فحج جراحه فتنهد وقال :
«كلا يا أماء ولكنها عزيزة علي لانها خطيبة بعض اصدقائي» •
ودنت الفتاة من آفتاب وهمت بتقبيل يدها فضمتها ورجبت بها
وفالت : «ما اسمك يا حبيتي» •
قالت : «اسمي ياقوتة يا سيدتي» •

فلما سمعت صوتها دهشت وبأن الاستغراب حول مبسمها وفي
اختلاج عينيها البيضاء وقالت : «سبحان الله كأنني أعرف هذا
الصوت !»

فقال ضرغام : «أظنك تعنين صوت جهان فانه كثير الشبه به وقد
لحظت ذلك منذ سمعتها تتكلم للمرة الاولى» •
فسكتت آفتاب ولم تجبه ، وأخذت الفتاة يدها وأجلستها الى
جانبها وجعلت تضمها وترحب بها والتفتت الى ضرغام وقالت : «كيف
لقيت هذه الياقوتة ، وأين كانت ؟»
فقال : «اتفق لي وأنا عائد من المهمة التي اخبرتك عنها اني مررت

بأسفل المدينة ، فسمعت الفتاة تستغيث من رجلين كانا يحاولان اخذها الى رجل يريد ان يتزوجها رغم ارادتها ، فألقذتها منهما وجئت بها» •
قالت : «ومن هو ذلك الرجل ؟»
قال : «يقال له الحارث السمرقندي من أعوان امير المؤمنين» •
قالت : «ولماذا لم تقبله فانه ذو جاه ومال» •
قال : «لأنها احبت رجلا اسمه حماد العربي ، ألا تعرفينه ؟»
قالت : «أظنني سمعت صوته مرة وقد جاء معك • اين هو الان ؟»
قال : «غائب ، وستبقى يا قوته هنا حتى يعود • هل يسرك ذلك ؟»
قالت : «يسرني كثيرا لأنها تكون تسليتي اذا خرجت انه في مهمة •
ولقد شعرت من هذه اللحظة كأني اعرفها منذ أعوام ، اهلا وسهلا بك يا حبيبتى» •

* * *

وأمرت مسعودة فأخذتها لتبدل ثيابها وتصلح من شأنها ثم جيء لهم بالطعام فقال ضرغام لأمه : «ألم يأت وردان ؟»
قالت : «جاء منذ بضعة ايام وسألني عنك فلم أقدر ان اخبره عن مكانك» •

قال : «هل اخبرك بشيء عن الاقشين ؟»
قالت : «أخبرني انه جاء وعسكر خارج سامرا على ان ينتقل بعد بضعة ايام إلينا ، وأظن ان وردان قد عاد إليه او لعله يريد الذهاب إليه غدا او بعد غد» •

ولم يطيلوا السهرة التماسا للراحة • وأصبح ضرغام في اليوم التالي وقد عادت إليه هواجسه وأصبح شديد الاهتمام بلقاء وردان ليسأله عما

سمعه من اصحاب الافشين عن جهمان .

وفي أصيل ذلك اليوم جاءه رسول الخليفة يطلب حضوره فلبس سواده وقلنسوته وذهب اليه في دار العامة ، فاستأذن ودخل فوجد القاضي احمد فسلم ووقف فاستدناه اليه وأمره بالجلوس فجلس . فقال له الخليفة وهو يمشي في وجهه : «متى عدت من السفر؟»

قال : «اتيت مساء البارحة يا مولاي وكنت عازما على المشول بين يدي امير المؤمنين قبل ان يأتيني رسوله» .

قال : «من لقيت في طريقك؟»

ففطن الى انه يشير الى ياقوته ، لعلمه ان الحارث لا بد من ان يشكوه فقال : «لقيت فتاة بين يدي رجلين يعذبانها» .

قال : «وهل انقذتها كعهديك ؟ بارك الله فيك» .

فعلم ان الخليفة يشير الى فضله عليه في انقاذه من مخالب الاسد ، فخبجل وتجاهل وقال : «لم أتمالك يا امير المؤمنين عن انقاذها . ثم علمت انها تنتمي الى بعض رجال الدولة فحملت تبعة عملي طمعا في حلم امير المؤمنين وهو ذنب أستغفر له» .

فضحك المعتصم وقال : «لقد اصطدت حلالا انت أولى الناس باحرازه ، كيف رأيت الفتاة أهي جميلة؟»

قال : «لا بأس بها يا مولاي» . قال : «فدوجب عليك اقرارك» .

فلم يفهم ضرغام قصده فابتدره القاضي : «أتذكر ان امير المؤمنين خطب لك جارية؟» قال : «نعم» .

قال : «هذه هي الفتاة بعينها» . فاستغرب ضرغام ذلك الاتفاق الغريب ، وتحير في الجواب فقال القاضي : «ان امير المؤمنين رأى هذه الفتاة للمرة الاولى منذ اسابيع وقد جاء بها الحارث يخطبها لنفسه ، وكان رجل اخر يدعي انها له ، وكنت حاضرا فقال لي امير المؤمنين : (انها

تصلح للصاحب) • وأمر الحارث أن يحتفظ بها حتى يطلبها • وفي هذا الصباح جاء الحارث يشكوك لأنك خطفت ياقوتة منه فقال له : (انها للصاحب ولا سبيل لك اليها) • فخرج مفحما ، ولذلك قال مولانا انك اصطدت صيدا حلالا ووجب اقرارك عليك» •

فلم يسع ضرغام الا الدعاء للمعتصم على التفاته اليه وقال : «ان امير المؤمنين يتصرف بعبده ومواليه كما يشاء» •

فقال المعتصم : «احرزت اجمل نساء سامرا بارك الله لك فيها» • ثم صفق فجاء الحاجب فأشار اليه اشارة فهمها وخرج ثم عاد غلام يحمل طبقا عليه عقد من الجواهر يتلألأ كالشمس فأشار الخليفة الى الغلام ان يقدمه الى الصاحب فقدمه فبهر ضرغام من لمعان ذلك العقد ووقف احتراما فابتدره المعتصم قائلا : «هذا عقد تلبسه ياقوتة وتتحلى به» • فانحنى ضرغام احتراما وامتنانا وقال : «قد غمرني امير المؤمنين بانعامه» •

قال : «انك اهل لاكثر من ذلك» •

فتناول ضرغام العقد ولفه بمنديله وكرر الدعاء • ثم استأذن وخرج فقصد الى منزله والهواجس تتقاذفه ، على ان أمر الزواج بياقوتة لم يزد قلقا لانه رأى استبقاءها في بيته حتى يجد خطيبها فيجمعه بها دون ان يعلم الخليفة هل تزوجها ام لا • فوصل الى المنزل ولقي أمه فسأله وياقوتة جالسة عن سبب ذهابه الى الخليفة فقال : «دعاني لأمر يتعلق بياقوتة» •

فأجفلت ياقوتة لانها كانت تخاف وشاية الحارث ، لكنها اطمأنت لما رآته يتسم ونظرت اليه مستعطفة ، ثم سأله امه عما جرى فقال : «شكنا السمرقندي الى امير المؤمنين فأرجعه خائبا ، وأوصاني بياقوتة خيرا» • فانشرح صدر الفتاة وازدادت اعجابا بضرغام وسمو منزلته عند

الخليفة ونفوذ كلمته في الدولة وأعجبت بهيبته وجلال طلعه . والاعجاب اذا اقترن بالالفة وبالعادة تحول الى غرام ، ولكن ياقوتة كانت مشتغلة القلب بحماد ورأت ضرغاما فوق ما ترجوه لنفسها . ولما سمعت قوله عن الخليفة توردت وجنتاها حياء ولم يمنعها الحياء عن الكلام لانها كانت عاقلة رابطة الجأش فقالت : «أشكر لمولاي الصاحب فضله فقد انقذني من العار والموت ، ورفع منزلتي اذ جعلني تحت حمايته» .

فمد ضرغام يده الى جيبه وأخرج العقد وقدمه اليها وقال : «هذه هدية امير المؤمنين اليك» .

فأصبحت ياقوتة لا تدري كيف تعبر عن احساسها فتناولت العقد ودفعته الى آفتاب فأخذته وتلمست حياته وقالت : «يظهر انه عقد جدير بك» . وتقدمت نحوها وقلدتها اياه .

كل ذلك لم يشغل ضرغاما عن قلقه وكل ما حدث في مساء الامس وصباح اليوم يذكره بحبيته وخاصة العقد لما لبسته ياقوتة فقال في نفسه : «لماذا لا تكون جهان هنا وتلبسه» . فلما تخيل ذلك اضطرب وترك الغرفة وخرج ليسأل الخدم عن وردان فلقيه داخلا وفي وجهه ذعر . ولما رأى ضرغاما حياه فقال ضرغام : «قد طال غيابك فما الذي أعاقك ؟» . ثم مضى الى حجرة منعزلة جلسا فيها ، فقال وردان : «قد عاقني تأخر الافشين عن الحضور لانه لم يصل الى سامرا الا منذ بضعة ايام ، ولم أتمكن من اتمام مهمتي الا اليوم» .

فقال : «وما الذي عرفته عن جهان ؟»

فتوقف وردان لحظة ثم قال : «عرفت من صديق لي في حاشية الافشين لا تخفي عليه من أحواله خافية ان جهان خرجت من فرغانة قبل خروجهم منها» .

قال ضرغام : «عرفت ذلك اثناء غيابك من سامان اخيها» .

فتغير وجه وردان عند سماع اسم سامان وقال : «سامان هنا ؟ اين هو ؟ اين هو ؟» لأقبض روحه .. لعنه الله من منافق» •
فاستغرب ضرغام غضبه وقال : «ولماذا تريد قتله ، ماذا فعل ؟»
قال : «سأقص عليك فعله وانما ارجو ان تخبرني عما قصه هو عليك» •

قال : «اخبرني انه خرج من فرغانة مع أخته فرارا من الافشين ، فلقبهم اللصوص في هذان فأسروا جهان وقهرماتها ونجا هو ليخبرنا» •
قال : «فأنت عالم بما فعل اللصوص • بقي علي ان أخبرك عما فعله هذا اللعين اليوم • سرت امس لانتم مهتمتي في البحث كما أمرتني : فلم أستطع الا صباح اليوم اذ لقيت صديقي فقص علي الخبر • وبينما هو يكلمني لمحت سامان مارا على فرسه يطلب عرض البر ولسم أتخلفه : فسألت صاحبي في شأنه فأخبرني بأنه هو بعينه وانه جاء البارحة في أواخر الليل واجتمع بالافشين وفص عليه خبر اختطاف جهان ولكنّه جعل الذنب في ذلك لك . وأساء القول فيك ، ولم أعلم ذلك الا بعد ان غاب عن بصري ولم يبق سبيل اليه ، ولولا فراره لضربت عنقه ، او قتله خنقا ، قبحه الله من أجروء لئيم» •

وكان ضرغام قد لمس من قبل نفاق سامان وسوء نيته فأصبح لا يصدق شيئا من اقواله ، ولكنه لم يستطع تكذيبه في اختطاف جهان فقال : «قد عرفت نفاق هذا الشاب من قبل ، ولكن هل تظنه كاذبا فيما رواه عن اختطاف جهان ؟»

وجاءت الاخبار اثناء ذلك بقيام بابك واستفحال امره فأصدر الخليفة امره الى الافشين بالسفر مع جنده الى اردبيل ، ولم يتسن لضرغام الاجتماع به •

فراق فرغانة

كانت جهان حين عزمت على الفرار من فرغانة مع أخيها وقهرماتها قد أعدت كل ما نحتاج اليه مما خف وزنه وغلا ثمنه . وعولت على أخيها في تدبير قافلة يسرون في ظلها تجنباً لخطر البوادي التي لا بد من قطعها قبل الوصول الى العراق . فجاءها سامان وذكر انه هياً كل شيء . فأخذوا في نقل الاحمال محتجين بالسفر الى مصيف قريب . ولما دنا وف الرحيل وغلست انها لن تعود الى بلدها بعد ذلك عظم عليها فراق مسقط رأسها وهجر قصر ابيها وفد ألفه هواءه وماءه وظلاله وغاشت بين اهله ومنازله وأسواقه ، فقضت ايامها الاخيرة منقبضة الصدر . وقد ذهبت بناشتها وأخوها يسهل علبها الخروج وقهرماتها ترى في خروجها شططاً . وأما هي فلم تردد في الامر لحظة واحدة رغم ما أحسن به من الوحشة . وفي الليلة التي فضوها على أهله الرحيل اسدعت فيتم الدار اليها وأوصنه بالقصر وأهله خيراً وأسرت اليه ان قد يطول عيائها فليكن اميناً سيطاً . فأسف لسفرها وان لم يعرف حقيقة غرضها ولو علم لبكى بكاء مرا على فراقها لانه كان يجعلها حنى العبادة . وكذلك كان احساس كل من عرفها او عاشرها لما فطرت عليه من اللطف والذكاء والهيبة والجمال .

وفي الصباح التالي خرجت على جوادها الادهم كأنها ذاهبة الى منزله او مصيف . وركب معها اخوها وقهرماتها ولم تماالك عند خروجها من باب المدينة ان التفتت ودمعت عيناها حزناً على ما خففته هناك من ثمار شبابها وجنى ابيها . لكنها تساسكت واسترجعت رشدها وعزت نفسها بما سنلقاه من اسباب السعادة بقرب حبيبها .

وكانت القافلة التي سافروا فيها قادمة من بلاد الهند بأحمال العطريات
والبهارات والانسجة قاصدة الى خراسان ، فضموا أحمالهم الى أجمالها ،
وقد اعتمدت جهان في ذلك على اخيها ولبست ثياب السفر وأقلعت
القافلة في مساء ذلك اليوم وهي مؤلفة من قطارين مسلسلين من
الجمال والبغال على بعضها الاحمال وعلى البعض الآخر الرجال ، غير
المشاة من المكارين والسياس على أقدامهم ومعهم الكلاب وأدوات الطبخ
والنوم ، فان القافلة كالبلد يمشي بأهله ودوابه وأثاثه . تمشي ساعات
من النهار وساعات من الليل تختلف مقاديرها باختلاف فصول السنة ،
حسب أوجه القمر ، يحدق بها حراس من الرجال تعودوا الاسفار
والاخطار أتداء الابدان يعرفون الطرق ولهم صداقة ورهبة عند قبائل
التركان بدو الترك المتفرقين في البادية بين نهر جيحون ونهر الشاس .
والمسافة بين النهرين تقطع في اسابيع وقد تستغرق الشهرين . ناهيك بما
فيها من اللصوص وقطاع الطرق . ولذلك لا يجسر على السفر هناك غير
القوافل الكبيرة . وتحتدي القافلة اثناء السير نظام الجند للحرب . وفي
ساعات الراحة تضرب الخيام وتوقد النيران وتذبح الاغنام او الابقار
وتنصب القدور على النار ويشغل القوم بالاكل والنوم .

ولم تكن جهان جربت هذا السفر ولا ذاقت مثله ولا سمعت به في
حياتها ، فكانت تحمل ثقله متجسلة بالصبر ، وتعزي نفسها بقاء الحبيب .
كل ذلك من معجزات الحب وان امره لعجيب .

ولو اردنا تفصيل ما لقوه في سفرهم الطويل من حر النهار وبرد
الليل وخوف قطاع السابلة وأهل الغزو وما اصابهم من عطش او جوع
لفراغ مؤوتهم من الماء او الطعام قبل بلوغ المكان الذي يتزودون منه
اضاق بنا المقام . فنقول موجزين انه لما بلغت القافلة (الري) اشار سامان
على أخته بالتخلي عنها ليسيرا وحدهما لان القافلة تمشي متثاقلة وليس

طريقها طريقهم الى العراق اذ تتوجه شمالا ، فأذعنت جهان لرأي اخيها وانفردوا بأحمالهم ودوابهم عن القافلة . وفي مساء ذلك اليوم بغتهم جماعة من الرجال على الخيول في مكان بعيد عن همدان ، وكانت جهان على فرسها فدافعت عن نفسها دفاع الرجال . وأظهر سامان دفاعا حاميا . ولكنهم غلبوا على أمرهم فقبضوا على جهان وفهرماتها وشدوا وثاقهما وفر سامان بحجة ايصال الخبر الى ضرغام .

فلما رأت جهان نفسها في الاسر صاحت بكبير القوم وهم جميعا ملثون وقالت له : «ما الذي حملكم على هذا العمل ؟» اذا كنتم تطلبون المال فهذه احبالا خذوها وأطلقوا سراحنا ولن نطالبكم بشيء منها» . فأجابها الفارس وهي اول مرة سمعت كلامه وقال : «لسنا لصوصا يا سيدتي . ولا حاجة بنا الى المال وانما أمرنا ان نحمل عروس فرغانة الى اعظم رجل في الارض لم ترض به طوعا فعساها ان يرضى به كرها» . فلما سمعت كلامه ادركت ان فخا نصب لها . وكانت تؤثر ان يكون القوم لصوصا ييغون المال على ان تكون هي بغيتهم . ليس لانها تخاف ان تغلب على امرها فانها كانت من رباطة الجأش وثبات الجنان على ما علست . ولكن تنق عليها فراق حبيبها . فأرادت ان ترداد بيانا فقالت : «ولكن ما تأتون به يا صاح لا يشبه أعمال العظماء» .

فال : «وماذا يعمل الرجل اذا اضطر ولم ير مركبا يركبه الا هذه الوسيلة ؟ ماذا يفعل اذا تقدم خاطبا فرد خائبا ، وهو كبير القدر تأبى نفسه الفشل ؟»

قالت : «يترك الخطبة والخطيبة» .

قال : «واذا كان مفتونا قد غلب على امره» .

قالت : دعنا من ذلك فاني لا اراكم الا لصوصا تطلبون المال فهذه

الاموال لديكم وأنا الكفيلة بأضعافها اذا اطلقتم سراحنا» .

قال : «اما اذا اعطينا المال فنشكر كثيرا ، ولكننا لا نستطيع ان نطلق سراحك . ولا ينبغي يا سيدتي ان تحزني على شيء أضعته بهذا الانتقال فأنت ذاهبة الى اعظم رجل في العالم فاذا احسنت معاملته ملكك الرقاب » .

فأشكل عليها فهم حقيقة ما يعنيه فقالت : «لم أفهم مرادك ، من هو ذلك الذي تعنيه ؟»

قال : «ستعلمين كل شيء بعد بضعة ايام . فاطمئني وستكونين معنا معززة مكرمة ، ثم متى وصلنا الى المكان المقصود كنت في أرغد عيش وأسعد حال» .

قضت عدة ايام مع فهرماتها وأولئك القوم على أتم ما يرام من الاعزاز والاكرام . وكانوا قد حلوا وثاقهما في صباح اليوم التالي وقموا بخدمتهما احسن فيام من الطعام والشراب والمبيت .

وقد أتيح لجهان الفرار لو أطاعها نفسها عليه . ولكنها اكبرته وخافت مغيبته . وكبير النفس لا يطاوعه وجدانه على الفرار حتى من الموت .

مرت في اثناء هذه الرحلة بسدن وبرى وجبان وأوديه وسهول وحزور . ورأت أفواما من أمم شتى فعلت من القرائن انها مرت باذريجان وجاء العريف ذات يوم واخبرها انها صارت بي ارمينيا وانها لا تلبث ان تدخل أردبيل . فعلت انهم سائرون بها الى بابك الخرمي . فذكر ان كان قد طلبها من ايها ولم تقبله ، فنحمت انها محبولة اليه فأخذت تتأهب لدفعه وعلمت انها مكيدة من اخيها فندمت على الركون اليه .

وقد اصاب ظنهما بسامان فانه طبع على اللؤم وزاده فعل اييه نفسه عليه وعلى أخته . وكان صاحب أطماع لم يسنطع تحقيقها بعلو الهمة والبسالة مثل كبار الرجال فالنمساها بالحيلة والخداع . وليس أشأم على الامة من ان يعجز رجال المطامع فيها عن نيلها بأعسال تنفق ومصلحتها . لانهم حينئذ

يضحون بمصلحتها في سبيل مطامعهم . فانتظم سامان في سلك الخرمية . وهي جمعية سرية قامت على مقاومة اصحاب السيادة ، وزعيمها في ذلك العصر بابك الخرمي صاحب أردبيل . وكان الخرمية يسعون في تأييد سلطته سرا . وكان شديد البطش يبالغ في اقتناء النساء لا يسمع بامرأة جميلة الا سعى في استجلابها فاذا لم ينسطع ذلك بالجاه طلبها بالمال فدا أعجزه احضارها بالمال حملها بالقوة . فشاع خبره في الآفاق ، وسمع بجهان فبعث يخطبها على يد سامان فلم يرض ابوها فدرس الى سامان انه اذا اناه بها رفع قدره وأغناه وقلده مصبا عاليا . ولم يكن سامان قادرا على شيء في حياة ابيه فلما توفي ابوه وجد حرمة من الارث ازداد رعبه في الانتقام ، ولقي الاصبهذ نائب بابك في فرعانة ايام التبرور في بعض جلسات الخرمية التي كان يحضرها سرا فيغيب عن البيت اياما وابوه لا يعلم وانما كان يقضيها في الكيد والتواطؤ . فتواطأ معه على ان يحتال في حمل جهان الى أردبيل وهو لا يبالي عواطف المحبين لدناءة طبعه وهو نافض الرجولة . وعزم على ذلك خاصة بعد مقابلته للافشين واملائته على وصية ابيه ، فأصبح همه الانتقام من الافشين فوجد في تنفيذ المؤامرة مع الاصبهذ سبيلا لنيل ما يساه من التروء والنقود والانتقام من عدوه . فاتفق مع الاصبهذ على ان يهيب رجالا يكسبون نبي الطريق بين الري وهمذان ليأسروا جهان اثناء سفرها الى العراق ليظهر للسلطانهم اخذوها منه قهرا . وبعد ان اخذوها لم يكن غرضه من الذهاب الى العراق الا لقاء الفتنة بين ضرغام والافشين . وهو يعام بسالة ضرغام وتفانيه في سبيل جهان فان علم ان الافشين أسرها أسرع الى قتله . وكان سامان ضعيف العزم قليل الدهاء . فلم يحسن سبك حيلته ، فلم ينطل امر اختفائها على ضرغام . فرجع من العراق وهو يعتقد انه انهم مهتة وفار بمرامه .

أما جهان فلما علمت انها على مقربة من أردبيل قصبة أرمينيا في ذلك
الحين اخذت تنهياً لدفع ما يهددها • وكانت تسمع بيابك وتعرف انغماسه
وتهتكه وتعلم انه مقيم بأردبيل • وما عثم الركب ان وصلوا الى غيضة
كثيرة الادغال والاشجار اذا دهم اهل أردبيل امر لجأوا اليها فتمنعهم
وتعصمهم ممن يريد أذاهم فهي معقلهم ومنها يقطعون الخشب الذي
يصنعون منه الصواني والقصاع ، واستغرقت جهان في تفكيرها وهي
تنظر الى تلك الغيضة فيما تخاطب به بابك لتدفع أذاه ، وذكرت ضرغاما
وقالت في نفسها : «ماذا هو فاعل اذا بلغه ما انا فيه ؟»

وفيما هي في ذلك رأت الركب يتحول عن الطريق المؤدي الى أردبيل
ويدخلون الغيضة • وأتاها رجل منهم اوماً اليها ان نحول شكيمة جوادها
الادهم نحو الغيضة ففعلت وهي لا تعرف السبب • وساروا في طريق
وعر يخرقون الاشجار المشتبكة وجهان تلتفت يمينا وشمالا لعلها تعرف
سبب هذا السير ، واذا بعريف الركب جاءها وزاملها بجواده وخاطبها
قائلاً : «اراك تستغرين اتجهنا الى هذا الطريق او لعلك تخافين ؟»
فالت : «اني لا اخاف شيئاً ، ولكنني أستغرب دخولكم هذا الطريق
الوعر بعد ان كنا على مقربة من أردبيل» •

فأكبر العريف جرأتها وكبر نفسها وقال : «أظنك لم تشاهدي الراية
المنصوبة على مقربة من الطريق» •

قالت : «كلا وأين هي ؟»

فأوماً اليها ان تنظر وصعد بها الى آكسة هناك فلما صعدا قال لها :
«ألا برين هذه الراية ؟»

فلما وقع نظرها عليها خفق قلبها لانها راية الافشين فقالت : «انها
راية المسلمين» •

قال : «نعم وقد جاءنا احد الكوهبانية (وهم اصحاب الاخبار عند

قدامى الفرس يشبهون قلم المخابرات في هذه الايام) وأخبرنا ان مولانا قد غادر أردبيل واحتلها المسلمون بعده» .

قالت : «أظنك تعني بابك . والى اين ذهب ؟»

قال : «أخبرنا الكوهباني انه أوغل في ارمينيا وتحصن في بلد منيع يقال له «البذ» عند نهر (ارس) ونحن ذاهبون اليه» .

وآنست من الرجل لطفًا واکراما كثيرا فطمعت في ان يطلق سراحها بعد ان شغل القوم بالحرب فقالت : «فأتم اذن ذاهبون بنا الى البذ ؟»
قال : «نعم يا سيدتي وهي على بعد ايام من هنا» .

قالت : «وهل ختم ان أذهب معكم ؟»

فأدرك الرجل انها تشير الى امكان تسريحها فقال : «ان امر مولانا قضاء لا سبيل الى نقضه ، هذا ولو اتنا اخيلنا سبيلك هنا لكنت فسي خطر شديد ، ان لم يكن من اللصوص فمن الوحوش» .
وكانت خيزران على فرس وراء فرس جهان : فالتفتت جهان اليها فابتدرتها خيزران فائلة : «وما الذي تخافينه عند (بابك) ومثلك لا يخشى عليه ؟»

فتشجعت جهان بكلام خيزران وأدركت انها لم تقل ذلك اعتباطا .
ثم عادوا الى المسير صعدا وجهان تلتفت الى ما حولها تتأمل وحشة ذلك المكان وسعة تلك الفيضة ، فوق بصرها من بعد على مدينة أردبيل ، ورأت ساحتها الكبرى غاصة بالجند وبالرايات الاسلامية ، وهي تعلم ان الافشين نفسه ليس هناك لانها تركه في فرغانه . وان النازلين بأردبيل فرقة من جنده .

وكان الوقت ظهرا فحث الركب خيولهم للخروج من الفيضة فبل دخول الليل خوفا من المبيت فيها . ولما اجنازوها وواصلوا السير بعدها مروا بمدن كثيرة منها ارشق وخش وبرزند . ورأت جهان رايات

المسلمين على أسوار هذه المدن التي ليست الا محطات لاختزان مؤونة الجند اثناء انتقاله لمحاربة بابك . فكانت كلها تقدمت أحست ببرد الطقس حتى اشرفوا على البذ . فرأتها أشبه بالمعقل او القلعة منها بالمدينة لانها مؤلفة من قصور عدة كالقلاع يحيط بها كلها سور هائل عليه الابراج والابواب وفوقها أعلام الخرمية : والارض في تلك الجهات جبلية وعرة يصعب مرور الجند فيها بأثقاله وأحماله . فعلمت ان بابك التجأ الى ذلك المعقل لمناعته حتى يكاد يستحيل على المسلمين اخذه .

وسبق واحد من الركب الى البذ يستأذن في الدخول ويسأل اين ينزاون جهان ، ثم عاد وأتار بالدخول من باب غير الذي كانوا عازمين على الدخول منه . ولما صارت جهان داخل السور شعرت كأنها في نفص فاستوحشت ، وأحست خيزران بوحشتها فساقت فرسها الى جانبها وسألت كبير القوم : « اين اتم ذاهبون ؟ » . فقال : « ان مولانا الان في خارج البذ وقد أمر ان نأخذ عروسه الجميلة الى قصر النساء هنا فتمكث فيه مكرمة معززة حتى يأتي » .

فأجفلت جهان عند سماعها قوله : « عروسه » . ولكنها بجلدت وظلت ساكنة حتى اقبلوا على القصر . وله سور خاص ورجبة وحديقة . وكأنه حصن فائم بنفسه . فوقف لهم الحراس ووسعوا . فدخلت جهان وفهرماتها على فرسيهما من الباب الكبير . حتى اذا دنت من الباب الصغير المؤدي الى المساكن ترجلت وترجلت خيزران معها ، وأسرع بعض الخدم لتناول الفرسين وفد ادهشهم ما رأوه في تلك القادمة من الجمال والهبة لانها لا تتحجب .

وأسرع عريف الركب الى الوقوف بين يدي جهان باحترام وقال : « ارجو ان تكون سيدتي قد أغضت عن جرأتي في حملها على غير ما تريد فاني مكره على هذا بأمر سيدنا ومولانا ، ولكنني بذلت جهدي فسي

راحتها ، وأرجو ان تذكرني بالخير لدى الامير : فلا شك في انها
سكون الآمرة الناهية !»

قالت : «ما اسمك ؟» • فقال : «بهزاد يا سيدتي» •
قالت : «والى اين تذهب الان ؟» • قال : «الى قهرمانه القصر وهي
يوم بسا تحتاجين اليه من اسباب الراحة» •
وكانت خيزران واقفة تسع ما دار بينها فقالت للرجل : «ألا تعرف
من اهل هذا القصر امرأة صديقة ؟»

فقال : «أعرف اكثرهن ، وهن من امم شتى ولكنني اظن مولاتنا
ستأنس بالسيدة هيلانة فانها من بيت الامراء . وقد عرفت بيت زوجها
بأرمينيا قبل ان أمر مولانا بابك بضها الى اهله . وكنت من حملوها
اليه وتعارفنا في اثناء الطريق . فرأيتها عاقلة لطيفة وأظن مولاتنا تستأنس
بها . والآن أسأذن في الانصراف فقد اقبلت القهرمانه . وأنا أسسى
بهزاد يا سيدتي !» • وانصرف •

ظلت جهان واقفة هادئة رزينة وقوف الملكة بباب قصرها ، حتى
وصلت القهرمانه اليها ، وهي عجوز طويلة القامة ، تدل ملامحها على ما
كانت عليه من الجمال في شبابها . وقد لبست ثوبا يبلأ بالوششي
والنطريز ، وحول جيدها العقود وفي يدها الاساور وفي أذنيها الاقراط .
فلما وقع نظرها على جهان اكبرت ما هي عليه من المهابة والجمال رعم
آثار السفر الطويل : ورأت في عينيها معاني لم تعهد مثلها في واحدة من
عشرات النساء اللاتي عندها . واستغربت رباطه جأشها مع انها جاءت
مكرهة ، وكانت تعلم علو منزلتها وكيف طلبها بابك من ايها فلم ترض
به ، فتوقعت ان تراها منكسرة القلب باكية حزينة • فلما رأتها رابطة
الجأش هادئة ظلتها راضية بسا قسم لها • ولما دنت منها رحبت بهسا
وقالت : «مرحبا بعروس فرغانة • يشق علي ان تحملي الينا قسرا وأرجو

ان تكوني قد غيرت رأيك» .

فلم تجبها جهان ، ولكنها ابتسمت ومشت معها في دهليز القصر مطرقة . ولو تلفت لرأت نساء القصر يتشابحن ويتزاحمن للنظر السيئ ضرتهم . فلما شاهدن جمالها وهيئتها حسدنها لأنها سيكون لها المقام الاول عند بابك . اما هي فما زالت سائرة لا تبالي حتى أدخلتها القهرمانة الى حجرة مفروشة بالطنافس فرشاً حسناً وقالت لها : «هذه غرفتك يا حبيبتى فاستريحى فيها» .

قالت : «وأين ثيابي ؟» فقد اخذوها في جملة الاحمال» .

قالت : «ستكون عندك بعد قليل» . وخرجت وأرسلت اليها

صناديقها .

ولما خلت جهان الى خيزران في تلك الغرفة ، أيقنت انها وقعت في الفخ فانقبضت نفسها ولم تتمالك عن البكاء برغم تجلدها ، فوقفت خيزران بجانبها تواسيها متجلدة ، ولكنها لما رأت دموعها تنحدر على خديها انفطر قلبها وترامت على قدميها وأخذت تقبل طرف ثوبها وتقول : «آه يا سيدتي ما الذي اصابنا ؟» كيف جئنا وكيف أخذنا ؟ وأين نحن ؟» اين ضرغام الان ؟» . واسترسلت في النحيب ، وجهان تبكي ولا تتكلم . ثم شعرت خيزران بأنها اخطأت باظهار ذلك الضعف بين يدي سيدتها فتماسكت وقالت : «ولكنني واثقة بتعلقك وقوة جنانك ، وأنا رهينة اشارتك» .

قالت : «سمعت بهزاد يشي على امرأة من نساء هذا القصر اسمها هيلانة ، فلعلها تؤنسنا اذا عرفناها . هل لك ان تبخني عنها وتأتيني بها؟ وقبل ذهابك هيني لي ثيابي» .

فأعدت لها ما تحتاج اليه ومضت ، وكانت الشمس قد آذنت بالزوال وأخذ الخدم في انارة القصر بالشموع ، فبدلت جهان ثيابها واستلقت

والتفتت الى ما حولها ، فلما رأت نفسها في تلك الحيرة وبينها وبين
فرغانة سير بضعة اشهر ، وكذلك بينها وبين سامرا ، فكرت في ضرغام
وساءلت نفسها : ترى هل علم بما اصابها ؟ او هل من سبيل الى انبائه
بمكانها وما هي فيه فلعله يستطيع انقاذها . ثم تذكرت اخاها سامسان
وساءلت نفسها ما دهاه ؟ وهل قتل في المعركة ام فر الى مكان آخر ؟
وفيما هي في ذلك قرع الباب ودخلت خيزران تقول : «قد جئتك
بالسيدة هيلانة يا مولاتي» .

فهت جهان بالوقوف لملاقاتها ، فأسرعت هيلانة وأجلستها وجلست
الى جانبها وهي تهش لها وترحب بها كأنها تعرفها من قبل . واستأنست
جهان بها وأحست كأنها في قصر ابيها بفرغانة بين اهلها لانها آنست في
وجه تلك المرأة لطفا ومودة واخلاصا ، فضلا عن الجمال . وكانت هيلانة
شقراء الشعر زرقاء العينين بيضاء البشرة لا يسارح الابتسام فيها ،
فابتسمت جهان لها وشكرت تلتطفها ، فقالت هيلانة وهي تبتسم تشجيعا
وايناسا : «مرحبا بعروس فرغانة ، لقد طالما سمعت بجمالك وتعقلك ، وقد
مضى وقت ونحن في انتظارك» .

فقالت : «ما زلت أحسبني ذاهبة الى الجحيم حتى رأيتك فخفت
المصيبة عني» .

فأحست هيلانة عند سماع صوتها بلذة ، وشعرت بجاذب نحوها
وكانها تذكرت بلواها هي فانقبضت نفسها وقالت : «هكذا اراد المولى يا
حبيبتى ، ولو انك قست بليتك بيلة سواك لهان عليك امرك . لو عرفت
ما فعلوا بي لرأيت انهم رحموك» .

فسألتها جهان ان تقص حديثها عليها عسى ان يخفف ما بها ، فتنهدت
هيلانة وقالت : «لا بد انك عرفت من وجهي وضعف لغتي الفارسية اني
غير فارسية ، وما انا تركية ولا ارمنية وان كنت اخذت من ارمنيا ،

ولكنني يونانية نشأت في بيت ابي في عمورية ، وخطبني بطريق من بطارقة ارمينيا وتزوجني وحملني الى بلده . ولم أكد أقيم معه عامين حتى بلغ هذا الخرمي خبري (وخفضت صوتها) فبعث يطلبني من زوجي فلما أباني عليه بعث قوة من رجاله اغتصموا غياب زوجي وحملوني الى بالقة فحبسني هنا منذ بضعة أعوام فلا انا أعرف اين زوجي ، ولا ما فعله بعدي . وهو يعرف مقري طبعاً ولكنه لا يجد سبيلاً الى . هذا اذا كان لا يزال حياً» . قالت ذلك وشرقت بريقها ثم مسحت دموعها وابتمت وقالت : «ما قصدت ان أكدرك بهذا الحديث ، ولكنني اردت ان أخفف مصابك» .

أما جهان فأعظمت مصاب هيلانة وهمت بأن تقص عليها حديثها فأرجعها الحياء . فتهتت وأحبت تغيير الحديث فقالت : «اين هو بابك هذا ، وكيف تعيشون هنا ؟»

قالت : «ان الرجل يقيم بقصر غير هذا قريب من أسوار هذا البلد ، وذلك ليراقب تحصيناته ، وهو ينقل من يشاء من نساء هذا القصر اليه لنقيم عنده يوماً او بضعة أيام على ما يتراءى له» . قالت : «بلغني انه اليوم في شغل عن هذا القصر وأهله بأمر ذي بال» . قالت : «نعم انه يتأهب لحرب شديدة» .

قالت : «مع من ؟» . قالت : «جاء جواسيسه بالامس ، وكان قد ارسلهم ليتجسسوا أحوال المسلمين في العراق ، فأخبروه ان المسلمين يتأهبون لارسال حملة عظيمة عليه ، يقودها الافشين صاحب أشروسة بنفسه» .

فلما سمعت اسم الافشين ارتبجت وتذكرت انه علة بلواها ، ولو اتبعت هيلانة لرأت أثر ذلك التغير في عينيها ، ولكنها لم تكن تعرف عن جهان الا انها بنت مرزبان في فرغانة طلبها بابك ولم ترض به فاخطفها

قسرا . فقالت جهان : «وهل جاء الافشين نفسه ؟»
قالت : «لا أدري ولكنه آت ولا شك في ذلك ، وقد خرج بابك من
البذ في جماعة من رجاله ليقيم العراقيين وينصب الارصاد في الطريق .
وقد لا يعود الينا قبل بضعة ايام» .
ففرحت للخبر ونبهها ذكر الجواسيس الذين عادوا من العراق
فسألت : «هل تعرفين احدا من الجواسيس الذين عادوا من العراق ؟»
فالت : «خادمتي تعرف واحدا منهم» .
وكانت خيزران قد ذهبت وعادت بالعشاء الى سيدتها ووقفت تسمع
الحديث ، فلما سمعت هيلانة تقول ان خادمتها تعرف احد الجواسيس
ابتدريتها قائلة : «أي خادمة يا سيدتي ؟»
قالت : «التي دلتك علي» .
قالت «عرفتها ، حقا انها لطيفة كأنها اقتبست من سيدتها» .
فقالت هيلانة وهي نضحك : «لذا وقع الجاسوس في هواها ولا يزال
يحمل اليها الهدايا ويأتمر بأمرها ويريد ان يتزوجها» .
فسرى عن جهان عند سماعها ذلك ، ونظرت الى خيزران فرأتها تنظر
اليها فتفاهمتا فقالت خيزران : «أريد ان أقترح عليها امرا تكلف خطيبها
به في طريقه الى العراق . هل تساعدني في ذلك ؟»
قالت : «حبا وكرامة ، أعدي ما تريد من اعداده» .
فتهلل وجه خيزران فرحا لعلمها انها تستطيع ارسال خبر سيدتها الى
ضرغام . ثم وضعت المائدة فتناولن العشاء معا ، وتذكرت هيلانة ان
جهان في حاجة الى الراحة من تعب السفر فاستأذنت في الذهاب على ان
تعود في الصباح فتأخذها الى غرفتها .

بين بابك وجهان

باتت جهان ليلتها تتقاذفها الهموم من كل جانب ، فأرادت ان تكتب الى ضرغام كتابا ولكنها خافت ان يقع الكتاب عمدا او سهوا في يد غريبة فتكون العاقبة وخيمة . فصمت اخيرا ان تبعث الرسالة شفاهها . فلما نهضت في الصباح اخبرت خيزران بما استقر عليه رأيها : فاستحسنته وقالت : «يكفي ان نخبر سيدي ضرغام بأن جهان في البذ عند بابك» . قالت : «هذا الذي اراه» .

فقلت : «آلا تزورين هيلانة ؟» ومتى كنا عندها أقابل الخادمه وأفهمها ما تصنعه ؟»

فالت : «حسنا» . وأخذت في اصلاح شأنها وهمت بالخروج واذا بأحد الخصيان قد دخل وقال : «اين السيدة جهان ؟» فلما سمعت جهان اسمها أجفلت وظنت بابك اتى او انه بعث يطلبها . فسكنت وتصدت لخيزران للرسول وسألته عما يريد فقال : «ان اخاها يريد مقابلتها !»

وما سمعت جهان ذكر اخيها حتى تنازعها عاملا الفرح والغضب — فرحت لعلها تسمع منه خبرا عن ضرغام ، وغضبت لانه خدعها ، فقالت للرسول : «اين هو ؟» فليدخل .

فدخل سامان وعيناه تذرفان الدموع وقد احمرتتا من البكاء ، ولما أقبل عليها ترامى بين يديها وهو يبكي ، فشغلها بذلك عن تعنيفه . ولم تفهم سبب بكائه فابتدرته قائلة : «ما بالك ، ما الذي يبكيك ؟» قال وصوته مختنق من البكاء : «لا ادري ..»

قالت : «كيف لا تدري .. قل .. قل» .
فلم يجيبها وسكت وجعل يمسح دموعه بكفه وهو مطرق ، فقالت :
«من اين اتيت ؟» . قال : «من سامرا» .
فقالت : «وكيف ضرغام ؟ هل لقيته ؟» . فلما ذكرت ضرغاما عاد الى
البكاء فاختلج فابها في صدرها ووقفت فجأة وصاحت فيه : «قل ما بالك؟
كيف ضرغام .. اين هو ؟»
فتراجع وأمسك بيدها كأنه يستمهلها حتى يسكن روعه ثم قال : «لا
أعلم اين هو» .
قالت : «ألم نقل انك كنت في سامرا ؟»
قال : «نعم كنت فيها . ولكنه ليس هناك» .
فقالت : «ضرغام ليس في سامرا ؟»
قال : «نعم يا أخي ليس هناك ، وقد سألت الناس كافة فلم اجد
بينهم من يعلم اين هو» .
فاخذتها الدهشة ، وبقيت تنظر اليه متسائلة ، فعاد الى الكلام فقال:
«ماذا اقول ؟ ان ضرغاما ليس في سامرا ، ولم يره احد رجع اليها بعد
ذهابه الى فرغانة» .
فلما سمعت قوله على الدم في عروقها ، وكاد الغضب يغلب على
رشدتها ، لكنها تجلدت وأمسكت نفسها ، فتقدمت خيزران وأخذته بيده
نحوها وقالت : «صرح . ما الذي سمعته ؟»
فقال وهو يخفض صوته محاذرا ان تسمعه أخته وهي واقفة تسمع :
«لما سطا علينا اللصوص وقبضوا على حبيتي جهان وعليك رأيت حتما
علي أن أبلغ الامر الى البطل ضرغام ، فأسرعت الى سامرا وقصدت الى
بيته فيها فوجدته خاليا خاويا ، فسألت عنه كثيرين فلم اقف له على خبر .
وأخبرني احدهم ..» . قال ذلك وبلغ ريقه وسكت مطرقا . فلما توقف

عند هذا أصغت إليه جهان وتناولت بعنقها وأشارت إليه خيزران أن يصرح بما سمعه فقال : « أخبرني أن عدونا الأكبر سبب مصائبنا جميعا قد بعث إليه جماعة من رجاله كمنوا له في منحني الطريق وغدروا به » . قال ذلك وبكى .

فلما سمعت جهان قوله ورأته يبكي أمسكت نفسها حتى كف عن البكاء ، ثم تفرست في وجهه تفرس ناقد وهو مطرق لا يستطيع النظر إليها كأن أشعة نارية تنبعث من عينيها فتبهر بصره — والمتافق لا يستطيع تثبيت بصره في عيني أحد ولا سيما إذا كان في غضون ثقافته — فلما لاحظت ذلك تنبه ذهنها إلى احتمال كذب سامان . وبدلاً من أن يقيمها الخبر ويقعدها حتى يخرجها عن الصواب ، كما توقع . أخذت تراجع أعمال أخيها السابقة ، فرجعت أنه يكذب عليها لحاجة في نفسه فقالت : « هل تقول الحق يا سامان ؟ »

قال : « وهل أخلق الأخبار من عندي ؟ لقد قصصت عليك ما رأيته وسمعته ، وأتسنى من صميم قوايدي أن يكون كذبا » . فأطرقت هنيهة ثم قالت : « من الذي أنبأك أنني هنا ، ومن أدخلك القصر ؟ »

فلما سمع سؤالها ارتج على عليه وأخذ على غرة ، لأن معرفته مكانها يدل على علاقة بينه وبين اللصوص ، فتوقف حينا . ولكنها لم تسهله حتى يصيء الجواب فقالت : « لا اطلب منك جوابا . ويكفي ما فهمته فاذهب الآن إلى أصحابك الخرمية لعلهم يكافئونك على صنيعك . اذهب » . قالت ذلك وخرجت من الغرفة وكانت قد تهيأت للذهاب إلى هيلانة . فخرج سامان وهو يهز رأسه ويتظاهر بتعجبه من تصرف أخته وانكارها ما يقول .

فلما خلت خيزران إلى جهان قالت : « أرى يا سيدتي ألا نستخف بما

ذكره سامان وأن نرسل من يأتينا بحقيقة حال ضرغام» .
قالت : «لا ريب عندي في كذب سامان . ولكنني أرى أن تكلفني
الجاسوس أن يذهب إلى سامرا ويسأل عن ضرغام رئيس حرس الخليفة» .
وذهبتا معا إلى زيارة هيلانة فرحبت بهما . وجلست السيدتان
للحديث وأست خيزران مهمتها مع الجاسوس .

* * *

كانت قهرمانة بابك سيدة قصره الآمرة الناهية فيه . وكان جميع من
يضمهم من النساء والخصيان يحتسون بأسها ويخفون لخدمها لأنها
الوسيلة بينهم وبين بابك . إلا جهان فأنها بفيت على سليقتها منلطفه
متحفظه . ومع هذا كانت القهرمانة تجل قدرها وبألف في إكرامها . وبعد
أيام جاءت إلى جهان ووجهها يهلل بشرا فحينها وقالت : «أبشري أن
العربس قد جاء !»

فاجفلت جهان ولم نجب ، فحملت القهرمانة ذلك منها على محمل
الحياء فقالت : «جئتك من قبل مولانا بابك . فانه رجع من سفره ولما علم
بسجيتك سر سرورا عظيما وأمرني أن ادعوك إليه» .
فأجابتها جهان بهدوء وسكينه : «إلى أين ؟» . قالت : «إلى قصره» .
قالت : «أليس هذا الذي نحن فيه قصره كذلك ؟»
قالت : «بلى ولكنه ألف أن تنتقل نساؤه للإقامة معه هناك» .
فهزت جهان رأسها إنكارا وإباء وقالت : «لا» . ولم تزد .
فعمجت القهرمانة لجوابها وهي في الأسر بين مخالب الأسد . وقالت
لها : «إن بين هذا القصر وقصر بابك دهليزا مسفوقا تسير فيه المسراه
مكشوفة كأنها في غرفتها ولا يراها أحد . فيها ولا تخشي شيئا» .

فطلت جهان جالسة لا تبدي حراكا ، فغضبت القهرمانة لهذا الاستخفاف وقالت بصوت عال : «أنصح لك يا بنية بأن تنهضي ولا تستخفي بهذا الرجل فانه فتاك لا يبالي احدا اذا غضب» • ثم خفضت صوتها ودنت منها ووضعت يدها على كتفها تتحجب اليها وقالت : «انتي شديدة الحرص عليك لاني احببتك منذ رأيتك - قومي يا حبيبتسي قومي» • فرفعت جهان بصرها اليها وقالت : «أشكر لك شعورك ، ولكنني لست بخارجة من هذه الغرفة» •

فنفرت القهرمانة من الجواب وتحولت نحو الباب وخرجت ، وكانت خيزران واقفة تسع ما دار بينهما ، وساءها ما أبدته سيدتها من الانفة والشدة وهمت بلومها بعد خروج القهرمانة . فسبقتها جهان قائلة : «لا نقولي شيئا يا أماء - فاني لا أبالي ما يكون من هذا الجلف العاتي • انه يريد ان اذهب اليه مختارة • ولكنني لن اذهب وما قدر يكون • على اني رغم وحدتي وأسري هنا أشعر بأني لي قوة وسلطانا ، كما لو كنت في قصر ابي بين اهلي وأعواني • ذريه يفعل ما يشاء فان عروس فرغانسة وخطيبه ضرغام لا تذلل لانسان !»

ونفضت فالتفت فوق ثوبها بمطرف من الخز ، وتخمرت بشمال مزركش التماسا للدفع لانها في اقليم بارد • ومشيت في ارض الغرفة مطرقة تفكر فيما عسى ان يفعل بابك اذا بلغه ابائوها ، وعزمت على الدفاع والثبات لآخر لحظة في حياتها •

وفيما هي في ذلك وخيزران واقفة لا تبدي حراكا ، سمعت سعالا قويا لم تسمعه في القصر من قبل ، فعلمت انه سعال بابك • وآنست فسي القصر حركة وجلبة لان اهله لم يألفوا دخول بابك عليهم ، ثم سمعت صوت القهرمانة تخاطب بابك ونظرت من نافذة صغيرة تطل على الرواق فرأت بابك قادما ، والخدم على كل من الجانبين يخرون سجدا ، والنساء

يحنين رؤوسهن احتراماً ، والجميع يحيونسه كما يحيون معبودهم ،
وأكثرهم من المجوس ، وهو يمشي مشية المختال الفخور .

فلما وقع نظرها عليه ارتجفت غضبا ، وكانت قد ألفت منظر سجود
الناس في قصر ايها فلم تستغربه ولكنها ابت ان تكون هي ايضا في جملة
الساجدين . بل غالت في الترفع شأن الانسان اذا كان في رفعة وانحطت
منزلته بعض الشيء فانه يصبح اكثر محافظة على مقامه .

وكان بابك ضخيم الجثة ، عظيم الهامة كبير الوجه . جاحظ العينين
ضخم الشفتين ، كبير الكتفين بارز الصدر اذا مشى ترنح في مشيته
برنح الخيلاء والكبرياء . وفد عتاد الصدارة في موقفه او مجلسه حتى
لو اراد الالتناء لتناول شيء وقع منه لم تطاوعه اعضاؤه . ولا غرابة في
ان يكون هذا شأن من لا يفتح عينيه الا على المسبحين باسمه ، المنافين
في طاعته ، مثل بابك رئيس الخرمية وفائدهم في حروبهم . فضلا عن انه
كان شجاعا شديد البطش قوي العضل أبي النفس . ولولا انغماسه في
الملذات والشهوات لكان من اعاظ الرجال . ولكنه أدمن الخمر وأسرف
في احتسائها ولاسيما في ايام السلم . وكان في هذا اليوم قد أعد مائدة
التراب في قصره وبعث في طلب جهان وجلس في انتظارها يشرب . فلما
جاءته القهرمانة بخبر رفضها كانت الخمر قد لعبت برأسه فأكبر اباءها
وجاء غاضبا ليعاقبها .

فلما دنا من غرفتها تقدمت القهرمانة وفتحت الباب وقالت : «هي هنا
يا مولاي» . ورجعت وأشارت الى خيزران ان تخرج معها فخرجت
وتباعدت .

وكانت جهان واقفة فلما رأتها داخلا قعدت فاستنكر استخفافها به ،
ولكنه لم يكذب يرى جمالها الرائع ومهابتها وما ينجلي في عينيها من الذكاء
والسحر حتى دهش . وعلى كثرة من رأى من جميلات النساء ، الفارسيات

منهن والكرجيات والشركسيات والروميات ، وبعضهن اجمل من جهان
تكويننا وأصنى لونا . شعر بأن عينيه لم تقع على فتاة في مثل جاذبيتها
فخف غضبه ، وان اخذته العزة بالاشم ، لتعوده خضوع الناس له على
طول الخط فقال : «وتقعدين ايضا في حضرتي ؟»

أما جهان فالتفتت كالعصفور بلله القطر : لفرط تأثرها رغم رباطة
جأشها ، ثم تشاغلت باصلاح شعرها ورفعت بصرها اليه وحدقت وهو
ينظر في عينيها ، فأحس بسهم اخترق صدره وكأن الغضب تسرب من
صدره حتى خرج من اطراف انامله وسرى عنه . وقالت : «هل ينفعك
وفوفي ان لم تسلك فؤادي ؟»

فتوسم من جوابها فرجا فقعد على وسادة بجانبها وقال : «ارجو ان
يكون لي نصيب من ذلك الفؤاد . فلا اظن احدا اجدر به مني . وأنت
تعلمين من هو بابك صاحب الحول والطول زعيم الخرمية قاهر جنود
المسلمين . وانه ليحزنني ان حملتك الي قهرا ولكنني لم أقدم على ذلك
الا بعد ان فشلت في نيلك بالحسنى . فكيف نريني ؟»
فلما رأت تطلقه وتقربه قالت : «اراك بطلا باسلا قاهرا ، وما انت الا
اسير» .

فأجفل وقال : «اسير؟! ماذا تقولين ؟»
قالت : «نعم انك اسير شهواتك . فمن كان ملكا عظيما قاهرا لا يليق
به ان يكون عبدا لشهواته . . اني أشتم رائحة الخمر منبعثة منك» .
قال : «يلوح لي انك من اولئك اليهود الذين يسون انفسهم
مسلمين فيحرمون الخمر . وهل في ملذات العالم اشهى منها بل هي أم
الملذات لانها تشحذ القوى وتستحث مطالب الجسد فتضرم الرغبة فبسا
تشتهيه النفوس من الطيبات» .

فقلت : «كيف تكون صاحب السلطان وقاهر المسلمين ، ثم ترى

هذه الشهوات زينة الحياة ؟ • ان هدف البطل هو ان يكون سيدا جليلا

نافذ الكلمة يهابه البعيد ويحبه القريب» •

فقطع كلامها قائلا : «ألست كذلك ؟»

قالت : «كلا • فقد يخافك البعيد ولكن القريب لا يحبك • والذين

حولك يسبحون باسمك ويعطسوك تسلقا • فاذا غبت قالوا فيك كل فيبح

لأنك لم تفعل ما يحبك اليهم» •

فصل بابك في امر هو معلوب فيه • ورأى من الجهة الاخرى انه بالغ

في التزلف لتلك الفتاة ، وأكبر ان نكون منه بسنله الواعظ او المرشد

فقال : «مالنا ولهذا الجدال الا ؟ هيا بنا يا جهان» • ووقف وهو يمد

يده ليمسك بيدها ويعينها على النهوض • فجذبت يدها منه وظلت فاعده

فسد يده ثانية ليمسكها فوقفت ويدها وراء ظهرها وقالت : «قف عند

حدك يا بابك ، انك بهذا العمل تؤيد فولا انت تنكره على الناس • لا

ندن مني» •

فقال : «ومن يدنو منك اذن غيري ؟ اب عروسي وقد بعثت فأيت

بك من أقصى بلاد الترك لأجعلك سعيدة ، فلا تجعليني شقيا !»

قالت : «من كانت مطالبه جسدية وكان ذا سلطان ففد لا يشمى • لأر

يده تنال ما يريد ان لم يكن بالمال فبالسيف ، فكيف تشقي لاني لم أرضخ

لك وفي قصورك مئات من النساء الجيلات ، فافرض اني لست هنا

واتركني وشأني» •

قال : «لو لم اكن أتوقع السعادة بقربك • او لو كان لي غنى عك

ما تكبدت المشقة في استقدامك ، ولم اكن لأنال ذلك لولا حبيبتنا

سامان» •

فتحققت عند ذلك ان اخاها هو الذي أسلمها • فتحولت نغمها اليه

وأصبحت لا تدري ممن تنتقم ولا كيف تنتقم ، فتجاهلت ما فهمته عن

سامان وقالت : « تكبدت كل ذلك من اجلي لتجعلني مثل نساء قصرك ؟ »
قال : « بل أبالغ في اكرامك وأهدي اليك الجواهر وألبسك احسن
الملابس وأختصك بالتقرب والمحبة ، وأجعلك سيدة هذه المدينة ، ولا
أمنعك شيئا تطلبينه » .

قالت : « تلبسني الجواهر ؟ ما الجواهر عندي الا حجارة لامعة لا ترفع
نفسا ولا تعلني مقاما ، وهذا صندوقي مملوء من الجواهر ، وقد تركت
قصري وعقاري في فرغاة . ولو بقيت هناك لكنت ملكة من الملكات
ولكنني رأيت هذه الاموال من اسباب شقائي فتركتها ! »

فقطع كلامها قائلاً : « بلغني ان أباك المرزبان اقام عليك الافشين
صاحب أشروسنة وصيا . ما لنا ولكل ذلك تعالي تتناول الطعام معا » .
ودنا منها فتراجعت مغضبة فنظر اليها شزرا وقال : « اذا كنت لا تأتين
طوعا اخذتك كرها ، وأنت تعلمين اني اذا قلت فعلت . فقد كنت في
فرغاة وأتيت بك الى أرمينيا . فهل يشق علي ان انقلك من قصر الى قصر
وبينهما مائة خطوة ؟ »

قالت : « أظنك تحسبني وانا على مرأى منك اقرب اليك مني يوم
كنت في فرغاة . أعلم انني لا ازال بعيدة عنك كأنسي في فرغاة او
ابعد منها ! »

قال : « تقولين ذلك وأنت بين يدي . ولو شئت لقبضت عليك بيد
من حديد او أمرت رجالي فحملوك الي موثقة ؟ ولكنني لا ازال ارجو
رجوعك الى رشدك » .

فنظرت اليه نظرة حادة ملؤها التوبيخ والترفع وقالت : « قد نبض
على عنقي ، وربما استعنت برجالك فأوثقني او قتلتي . ولكنك تنال كل
ذلك قبل ان تستطيع لمسة او نظرة مما كنت ترجوه مني . اقتلني اذا
شئت ، واذا جبنت عن قتلي فأنا لا أجبن عن قتل نفسي فلا تحتقرني او

تهددني ، واعلم انك تخاطب فتاة اكبر منك نفسا وأربط جأشا وأقوى
جنانا ، واذا كنت تحسبها كسائر من في قصرك من اللقيطات او
المسيبات او الرقيقات فقد اخطأت . انك تكلم ابنه مرزبان فرغانه .
وقد قادتها المقادير اليك فاكسب صداقتها ودع غير ذلك . او فامض في
سبيلك وأرحني وأرح نفسك» .

وكانت تتكلم كمن له سلطان ، وبابك يشعر بأنه يكاد يغلب على
امره بين يديها وكلما ارسلت اليه نظرة حلت من عزائمه عفة فقل :
«والآن .. ماذا تريدن ؟»

فالت : «أريد ان تتركني وشائي» .

فال : «اتركك اياما تفكرين في امرك لعلك ترجعين الى صوابك
وتعلمين انك اذا أطعتني نلت السعادة» . فال ذلك وتحول حتى خرج من
الغرفة وقد امتقع لونه . وكانت القهرمانة وخيزران وافقتين تسعيان
شيئا من الحديث وكتاهما معجبة بيسالة جهان وأنفتها . وبعد ان كانت
القهرمانة ضدها اصبحت معها ولم تتظاهر بذلك لكنها صارت تلاحظها
وتراعيها من ذلك الحين .

اما جهان فلم تقل ما قالت لبابك تهديدا ، ولكنها كانت قد اخذت
عدتها للدفاع او الانتحار عند اليأس . وقد فتحت باب الاستمهاال قصدا
ريثما يعود الجاسوس وتعلم ماذا جرى لضرغام ثم تنظر فيما يكون .
ولم ينقض ذلك اليوم حتى شاع حديث جهان في القصر ولم تبق
واحدة من النساء الا أعجبت بها . وأصبحن ينظرن اليها نظر الصغير
الى الكبير او نظر الجاهل الى العاقل ، ولا سيما صديقتها هيلانة فانها
حينما علمت بخروج بابك من القصر هرولت الى جهان وأخذت نساها عما
جرى وجهان تتواضع في التفسير وتتلس الاعذار لبابك على جرأته . فلم
يكن ذلك الا ليزيد هيلانة احتراما لها وتقديرا .

وهكذا أصبحت جهان حديث اهل البذ ومضرب أمثالهم . وهي لا
تعباً بشيء من ذلك وكل ههنا ضرغام وابلاغ خبرها اليه ولم تعد ترى
سامان .

مكثت حيناً في انتظار رجوع الجاسوس وكانت فد بادأت هيلانة ودا
بود . فقصت عليها متاعبها : فشاركته هذه آلامها وأصبحت تتدبّر
الاهتمام بأمرها . ولم تكن أقل شوقاً لرجوع الجاسوس من جهان
نفسها . وعاد الجاسوس واتفق يوم رجوعه ان كانت جهان عند هيلانة
في غرفتها وخادمتها قائسة على الخدمة وخيزران غائبة . فلاحظت جهان
في وجه الخادمة تغيراً فقالت لهيلانة : «اسألها ماذا قال لها خطيبها ؟»
فدهشت هيلانة لتلك المفاجأة وقالت : «وهل نظننه جاء ؟»

فالت : «نعم جاء ، ويظهر انه لم يأتنا بخبر مفرح» .
فاستغربت تكهنها وأشارت الى خادمتها قائت فقالت لها : «هل عاد
صاحبنا من سامرا ؟ ومتى ؟»
فالت : «نعم يا سيدتي اتى منذ ساعتين» .
فالت : «ولماذا لم تخبرينا» .
وكانت جهان تسمع ذلك . فاضطربت فصعدت الدم الى وجنتيها وقال :
«ماذا فص عليك ؟»

قالت : «قال لي انه سأل عن الرجل الذي طلبت منه البحث عنه في
سامرا فلم يقف له على خبر» .
فالت : «هل يمكن ان نراه ونسأله» .

فالت : «لا ادري هل تأذن القهرمانة في ذلك أم لا ؟»
فالت هيلانة : «هي تأذن بكل ما تريده جهان عروس فرغانة لانها
سحرناها . فاذكري للقهرمانة انها تطلب مقابلة صاحبك لتسأله في امر» .
فذهبت الخادمة وعادت به ، فسأله جهان عما علمه فقال : «سألت

- عن ضرغام يا سيدتي فلم اجد احدا يعرفه» .
- قالت : «ألم تسأل عنه في قصر الخليفة ؟»
- قال : «سألت عنه فلم اقف على خبره» .
- قالت : «أظنك لو سألت عن رئيس الحرس لوصلت اليه» .
- قال : «سألت عن رئيس الحرس ف قيل لي ان اسمه الصاحب» .
- قالت : «هل انت واثق مما تقول ؟»

قال : «نعم يا سيدتي وقد دفقت البحث عن رئيس الحرس نظرا الى ما رأيت ما اهتمام الناس به ، ف قيل لي انه رجل شجاع باسل وان الخليفة يحبه حبا جما وقد زوجه فتاة جسيمة من بنات قصره وأهداه هدايا ثمينة» .

فثبت عندها انه صادق فيما يقول ، وقد كان من الجائز ان يبادر الى ذهنها ان الصاحب هو ضرغام نفسه لولا حديث زواجه وهي لا تتخيل ان ضرغاما يتزوج ويتركها ، فتأكد عندها ما قصه عليها اخوها من ان الافشين سعى في قتله ، فازدادت ميلا للنقمة وغلب اليأس عليها ونسيت موقعها ، ولم تتبها الا وخيزران تدعوها فخرجت ونهضت تقصد الى غرفتها للاختلاء فيها . ونسيت ان خيزران نادتها ، فلما خرجت من عند هيلانة لقيتها خيزران فقالت : «الى اين يا سيدتي ؟»

قالت : «أظنك دعوتني وقد نسيت . ماذا تريدن ؟»

قالت : «كنت في حديقة القصر فرأيت بابك خارجا من قصره فظننته خارجا الى الحصون والمعاقل ، واذا به دخل هذا القصر وذكر للقهرمانة انه يريد ان يراك الان ، فأوعزت الي ان ابلغك ذلك» .

فأجفلت وقالت : «بابك يطلب ان يراني ؟»

قالت : «نعم وهو في غرفتك» .

قالت : «وفي غرفتي ايضا ؟ ما العمل يا أرمزد ساعدني . انسي

اراني في ورطة يصعب التخلص منها • أعلمت الخبر الذي جاء به
الجاسوس ؟»

قالت : «نعم يا سيدتي علمته» •

قالت : «وما رأيك ؟» • قالت : «يظهر ان مولاي ضرغاما ليس في
سامرا» •

قالت : «لا يخيفني غيابه عنها ، وانما يخيفني ان تصدق رواية اخي
سامان ألم تسمعيها ؟»

قالت : «سمعتها ولكن من يعلم الصحيح ؟»

كانت جهان وخيزران تتكلمان وهما تمشيان على مهل ، حتى اشرفتا
على الغرفة فتراجعت جهان وقالت : «والآن لا بد من مقابلة بابك ؟ ماذا
اقول له ؟» • لعل عنده خبرا جديدا» •

وسمعت صوت بابك ينادي من داخل غرفتها : «جهان • جهان» •
فأسرعت وركبتها نصطكان ولكنها تتجلد ، حتى اقبلت على باب الغرفة
فأطلت على بابك ، وكان جالسا فوقف لها واستقبلها وهو يش ويتسم ،
فلما رأت ابتسامه اطمأن قلبها ولاسيما عندما وقف لها ورحب بها •
وابتدرها فائلا : «اني اف لعروس فرغانة وان كانت هي تحقر بابك ولا
تقف له» •

قالت : «ان جهان لم تحقر بابك وانما احتقرت خصالا فيه ذكرتها» •
قال وهو يجلس ويدعوها الى الجلوس : «واذا نزع تلك الخصال منه
هل تحببته ؟»

ولاح لها من خلال كلامه انه جاد فيما يقول ، فأظهرت ارتياها قائلة :
«اراك تسخر من فتاة اغضبتك فأحببت الشفي منها ، ولكنني اخلصت
لك النصيحة وعرضت نفسي للخطر» •

وقال والاهتمام باد في محياه : «لا يا جهان • اني لا أسخر منك

ولكنني أعملت الفكرة فيما قلته لي فقضيت مدة غيابي عنك وأنا أفكر في اقوالك وحقيقتها تتجلى لي رويدا رويدا • وكلما انجلت شعرت بالخجل من نفسي وندمت على ما فرط مني • كنت منغمسا في الملذات والاكثار من النساء لاني لم اجد واحدة تملأ عيني وتملك قلبي • ولا أدري ما الذي غيرته انت من وجداني •• اراني قد حدث لي انقلاب لم أعهد مثله من قبل ، كأنك روح مرسله الي من عند أورمزد • وانما أربي الان ان تقولي لي انك تحبيني ••» • قال ذلك والعرق يتلأأ على جبينه •

فاستغربت انقلابه ولم تخف مداجاته او خداعه لانها قرأت الاخلاص في عينيه وأكبرت ان ترى ذلك الرجل اللفظ يتقرب اليها بمثل هذا الكلام • قالت : «هل تعني حقا ما تقول ؟»

قال : «نعم • وأنت تفهمين اني لا أداجي • وقد عملت بنصيحتك بعد ان نزلت منزلة الدم من قلبي والسواد من عيني ، فهجرت الخمر وسأترك النساء من اجلك • صدقت يا جهان ان العيشة الهنيئة في الحب المتبادل • وها أنذا احبك فهل تحبيني ؟•• لا عذر لك في الرفض الان» • فأطرقت ، وفكرت فيما سمعته من امر فقد ضرغام ويأسها من وجوده • ورأت ان هذا الجبار يخطب ودها ويعاهدها على الانقطاع لخدمتها وهجر الخمر والنساء لاجلها • فحدثتها نفسها بأن تجيبه بالايجاب ، فاعترضها خيال حبيبها فتصورت انه كان ضالا فوجد فكيف نقابله وبأي عين تنظر اليه • فظلت حيناً تتردد وبابك صابر ينظر اليها ويراقب حركة عينيها ، فلما استبطأ جوابها قال : «أظنك تفكرين فسي الافشين » •

فلما سمعته يذكر الافشين ظنته يعلم شيئا عنه فقالت : «وكيف عرفت اني أفكر فيه وما علاقته بي ؟»

قال : «أليس هو الوصي عليك ؟» • قالت : «وماذا في هذا ؟»

قال : « لا اخفي عليك ما سمعته وان كنت تحاولين اخفائه . علمت ان الافشين بعد ان جعله ابوك وصيا عليك طمع في زواجك فرفضت ، أليس كذلك ؟ »

فأطرفت وبدا الحياء في محياها ولاح الغضب في عينيها ولم تجب ، فقال بابك : « وان فتاة ترفض الافشين ملك أشروسنة ، ثم ترفض بابك صاحب أرمينيا عفاها ورغبة في الفضيلة لجديرة بالعبادة . وقد بلغت ان الافشين اتقم منك انتقاما جارحا . ولسوف أتقم لك منه أشد الانتقام » .

فلما سمعته يلوح بالانتقام من الافشين مالت الى القبول ، ولكنها بقيت في قلبها ترجو لقاء ضرغام فقالت : « اذا كنت تعني ما تقول وانك تتقم لي من الافشين فاسمح لي ان أنبهك الى امر . انت تعلم انسي فارسية مثلك وان ابي مرزبان كبير لم تكن تخفى عليه خافية من نوايا الفرس على العرب . فأنت متآمر مع الافشين والمازيار صاحب طبرستان على قلب دولة المسلمين . أليس كذلك ؟ أصدقني » . قال : « صدقت هذا هو الواقع » .

قالت : « فما معنى ان يحاربك الافشين بجيش من المسلمين ؟ » قال : « انه يتظاهر بنصرته للمسلمين ليجمع اموالهم ويرسلها الى بلده ومتى توافر المال اتحدنا جميعا وقلبنا هذه الدولة » .

فنظرت اليه نظرا نافذا والارتياح باد في عينيها وقالت : « أتكون قائد هذا الجند وزعيم العصبة الخرمية والناس يجلون قدرك ويسجدون لك ، ثم تنطلي عليك هذه الحيلة ؟ »

قال : « ولماذا تعدينها حيلة ؟ . اني أعرف الافشين من قبل . وقد اجمعنا وأقسمنا على هذا الامر منذ بضع عشرة سنة ومعنا صاحب طبرستان ، وما زلنا نجدد العهد كل عام فأني نفع له في خداعنا ؟ »

فتفرست في عينيه وقالت : «ان الافشين يخدعك ليكسب المال ، لانك ان لم تقم لحرب المسلمين لا يبقى له باب للارتزاق ، أما المازيار صاحب طبرستان فقد يكون أخلص طوية ولكنه لا شأن له في عملك . فاذا شئت ان اجيبك الى ما طلبته مني فلا أريد لك ان تكون مخدوعا تحارب برجالك فاذا فزت طالبك الافشين بحق الشركة واذا هزمت استفاد من هزيمتك » .

فاتبه بابك كأنه هب من رقاد ، وراها قد ازلت غشاوة عن عينيه، وشعر بسلطانها عليه فقال : «بورك فيك . نعم الرأي رأيك . لا شك ان الافشين مداج» .

قالت : «فمثلك يجب ان يكون صاحب الامر واليه المرجع لا شريك له يقاسمه ولا منازع ينازعه . فاذا رأيت ذلك كنت انا عونك في سراء السلم وضراء الحرب ، على ألا يتم زواج بيننا الا بعد الفراغ من هذه الحرب ، وعند ذلك أفخر بأني حظيت بأكبر رجل في فارس» . فتوقدت حماسة بابك وقال : «ولكن قولي قبل كل شيء . هل تحبينني منذ الان ؟»

وقالت وفي شفيتها ابتسامة الظفر : «ومتى كان الحب يهلك ؟» قال : «عندما وجدت المرأة التي تستحق محبتي ، فأرجو ان أستحق محبتها . فهل تحبينني ؟»

فأمسكت نفسها لحظة ثم قالت : «نعم .. لا ..» . ولم يطاوعها لسانها فقالت : «احبك محبة الاخ حتى تفرغ من هذه الحرب» . قال : «يكفيني ذلك يا جهان» .

فاستدركت وقالت : «وأرجو ألا يعرفني الناس بهذا الاسم لاني قد أخطب في الجند وربما شاع ذكري ، فلا احب ان يعرفني الافشين او غيره . فليكن اسمي منذ الان جلنار» .

قال : «اتفقنا يا جلنار» • وشعر لساعته براحة ولذة فكأنه انتقل من زمرة الاشرار الفاسقين الى صحبة الابرار المحبين • وليس من حافز على هذا الانقلاب الخير الا نعمة الحب الصادق ، فانه لم يكن يعرف من اللذة الا الانغماس في شهوات الجسد ، ولم يذق طعم الحب العذري المتبادل بينه وبين فتاة تملك قلبه وتملا عينيه • فتبدلت حاله وعادت اليه أريحته وأصبح منقادا لجهان لا يقطع امرا الا برأيها ولم يعرفها اهل البذ الا باسم «جلنار» لانهم لم يكونوا قد عرفوها من قبل •

وتحفز بابك للذهاب وهو يقول : «اليوم بدء ايام سعادتي يا جلنار ، فاني لم اكن اسعد حالا مني في هذه الساعة» • ووقف وأتم حديثه فقال : «انما لي رجاء لا أظنك تخالفيني فيه ، ذلك ان خاصتي تعودوا مجلس الشراب ، وفيهم المولعون بالخمير ، ولم يوفقوا الى من يهديهم الصراط المستقيم بعد ، وأخشى ان فاجأتهم بإبطال هذه العادة ان يغضبوا • وأنا في حاجة اليهم في هذه الحرب ، فأرى ان أسايرهم وأجالسهم وأوهمهم اني أشرب معهم حتى نرى ما يكون» • قالت : «لا بأس ، على ان تتلطف في جعلهم يقلعون عما ألفوا بالتدريج » •

فأشار مطيعا ، وتمت المعجزة اذ انقلب مثال الاستبداد والعنف الى مثال لين العريكة • وفي هذا ما يدل على قوة سلطان المرأة العاقلة اذا هي احسنت الاسلوب في رد الرجل عن النقائص • ولن تستطيع شيئا من ذلك الا بأن تجعله يحبها فتمت ملكة قلبه ملكة زمامه • اما اذا ارادت اصلاحه بالانتقاد فقد تزيده تمسكا بزيالاته •

ولا تسل عن فرح جهان بما حدث لبابك وقبوله ما اشترطته ، لما فيه من صيانة نفسها حتى تتحقق امر حبيهما والانتقام من الافشين • وتذكرت في تلك اللحظة اخاها سامان فاستوقفت بابك وقالت : «لي

طلبة ارجو ان تقضيها» •
قال : «لك ما تريدن» •
قالت : «سامان • اخي • انت تعرفه وتعرف انه خائني وغدر بي •
لا اطلب الانتقام منه ولكنني أريد ابعاده عن هذه المدينة ، لان في وجوده
خطرا على الجيش • لا أطلب قتله او سجنه بل أكتفي بإبعاده لتأمن
شره •»
قال : «هذا ما كنت عازما عليه ، وان كنت قد أفدت من حياته ••
اذ لولاه لم أحظ بعروس فرغانة ، وقد يخونني كما خان اخته ، وسأفنيه
من هذه الديار ، والآن ألا تريدن الإقامة معي بقصري ؟»
قالت : «دعني في هذا القصر كما انا ، فاني مستأنسة بأهله ، وان
اردتني لمشورة او تدير فانا نلتقي على موعد» •
فأذعن وهو يتسم وينظر في وجهها نظير المحب المتهيب • فوقفت
وهشت له فودعها وهو يقول : «نحن على وفاق منذ الان • فهل انت
نحبيني ؟»
قالت : «اننا اخوان • انت اخي بابك احبك محبة الاخ لأخيه وأرعاك
رعاية الاخت لأخيها ، وسترى اني أبذل نفسي في سبيل راحتك» •

- ١٧ -

ياس فرغام

كان ضرغام قد بث العيون والجواسيس يبحثون عن جهان في انحاء

المشرق ، وفيهم من سافروا الى فرغانة ، فلبث حقبة من الدهر ينتظر رجوعهم فعادوا وما فيهم من سمع خبرا او عرف شيئا يهديه الى مكانها فضاقت الدنيا في عينيه بما رحبت وغلب عليه اليأس وأخذ يفكر في المجرم الذي سبب فقدانها ، فلم يجد غير الافشين ، ثم تذكر ما عرفه عن سامان وثقافة وغدره فارتاب في أمره . وكان يقضي ايامه وحيدا في منزله الا اذا خرج المعتصم واصطحبه للصيد او الرياضة او الصلاة ، وكان يستأنس بياقوتة استثناسا كثيرا لكمالها ومشابقتها لجهان ، وكلما نظر اليها تذكر صاحبه حمادا وود من صميم فؤاده ان يجمعها به لعله يوفق الى من يجمعه بحبيته .

ولما طال انتظاره وانقطعت أخبار جهان عنه ويش من وجودها ، استولت عليه السويداء ولم يعد يرى للحياة معنى ، وود لو انه يشغل نفسه بحرب او نكبة او مرض ، او ان يموت ويتخلص من عذاب الشوق والقلق . وسبيل الموت الاتحار وهو يعده جبا لا يقدم عليه غير الضعفاء اذا غلبوا على امرهم او خولطوا في عقولهم . ومع هذا فان في نفسه بقية امل في العثور على جهان . وكبر عليه ان يموت ولا يثار لها فوق في حيرته وظهرت حيرته في وجهه فلم يكن يراه احد الا تبين في محياه القلق رغم ما يحاوله من التكنم ، ولاسيما امام أمه لئلا يحزنها ، ولم تكن هي لتخفي حاله عليها . فكان اذا سأله عن جهان وأخبارها قال : «انهم لم يبقوا لها على خبر وقد أرسلت آخرين لجهات اخرى ، فلعلهم ان يعثروا عليها» . وكانت أمه توهمه انها صدقت قوله وتزيده املا بلقائها فأصبح ولا تعزية له غير وردان ، وأصبح على طول العشرة اقرب الناس اليه . فكان اذا سئم او قلق شكا اليه حاله واستشاره في أمره ، فيخفف وردان عنه . فسمعه مرة يتذمر ويسأم الحياة وهو يتمشى في حديقة القصر معه فقال له : «مثلك لا يجوز ان يضعف الى هذا الحد يا مولاي» .

قال : « لا تقل مولاي . لآنك صديقي يا وردان . ولذا تراني اشكو اليك هني وأكشف لك نفسي ، اني لا ارى معنى للحياة مع اليأس من لقاء جهان» .

قال : « لكل نفس أجلها لا تؤخر ساعة ولا تقدم ساعة . فاصبر ان الله مع الصابرين» .

قال : « لقد مللت الصبر ، ولا ارى راحة الا في الموت . ولكنني أحتقر المنتحرين» .

فأحب وردان ان يبدي رأيا يرتاح اليه ضرعام ويصادف هوى في نفسه هو منذ جاء العراق فقال : « أمثلك يكره الحياة ويعجزه السبيل الى الموت وهو من خاصه المعتصم وكبار فواد المسلمين والحرب فانه لا يخمد سعيها بينهم وبين جيرانهم من الفرس او الروم او العرب ؟ »
فنه كلامه ضرعاما . وكان ينبغي ان يتبه من قبل فقال : « صدقت ان الموت في ساحة الوغى ميسور لمثلي ، ولكن امير المؤمنين يلزمسي صحبته . فقد جعلني صاحبه ومنعني من السفر» .

فقال : « لا أظنه يسنك بعد الآن» . قال : « ولماذا ؟ »

قال : « لان الاخبار تتوالى باسئجال امر الخرميه في ارمينيا حتى ضاق الافشين ذرعا بيابك وحصونه» .

قال : « من أنباك بهذا ؟ . كنت أحسب الامر على عكس ما تقول والخليفة لا يخفي علي شيئا» .

قال : « ان الخليفة لا يخفي عليك امرا يعرفه ، ولكنه لا يعرف ذلك ! »

قال : « هل تعرف شيئا عن هذه الحرب لا يعرفه الخليفة ؟ »

قال : « نعم يا سيدي . لان الوزراء ورجال الخاصة يرون من حسن السياسة كتمان بعض الاخبار عن الخليفة» .

قال : « صدقت ولكنني من الخاصة ولم يبلغني شيء مما تشير

اليه » •

قال : «ولا أظنه يبلغك من سواي لاني سمعته من مصدر لا علاقة له
برجال البريد الذين يحملون الاخبار الى الخليفة» •

فاستغرب ضرغام ذلك وقال : «ماذا سمعت ؟»

قال : «سمعت ان بابك الخرمي تضاعفت قوته بعد ان اتقل مسن
اردبيل الى البذ واتخذها حصنا له» •

فقطع ضرغام كلامه قائلا : «هذا سعنائه بالامس» •

قال : «وهل عرفت سبب فوته بعد ان كاد يعمد الى الفرار ؟»

قال : «نعم • انه استقوى بمن انضم اليه من الاقوام النافمين على
المسلمين » •

فابتسم وردان وقال : «هذا هو السبب الفرعي ، ولعله يبلغ الخليفة
اليوم على يد صاحب البريد • أما السبب الاصيلي فهو غير ذلك» •

قال : «وما هو ؟» • قال : «أخبرني بعض القادمين من ارمينيا خبرا
كدت أنكره لولا ثقتي بالناقل • ذلك ان بابك المشهور بالتهتك والانغماس
بالمسكر والفحشاء قد تاب وأتاب وأصبح اذا جالس رجاله لا يشرب
معههم ، وقد انقطع الى تدبير أمور جنده واستجماع قسواه واستنهاض
الناس على المسلمين • اخبرني بذلك رجل يعرف دخائل البذ • وهم
ينسبون هذا التغيير الى امرأة من نساءه ذات عقل وتدبير اسمها جانار
ملكته فياده وتصرفت في أموره» •

فأطرق ضرغام لحظة وقد ساءه رجوع بابك عن رذائله لانه كان يرجو
ان تكون عوناً لهم عليه • وكان يفكر في ذلك وهو واقف بجانب شجرة
من التفاح يتلقى بضرب ثمارها المتدانية بخيزرانة في يده ووردان واقف
بجانبه • واذا بغيلام من غلمان الخليفة جاء مسرعاً • فلما رآه ضرغام علم
انه قادم من عند الخليفة يدعو ، فالتفت الى وردان وقال : «اظن الخليفة

يدعوني لاطلاعي على أخبار الحرب» •

قال : «إذا رأى مولاي ان يكون في هذه الحرب فليأمر ان اكون في خدمته ، لاني أعلم أحوال تلك البلاد وطرقها وقد أنفعه» •

قال : «حسنا» • واتجه الى المنزل ولبس قلنسوته وسواده ، وفصد الى دار الخاصة في قصر الخليفة ، فوسع له الحاجب وأدخله بلا استئذان. فلم يجد عند الخليفة الا القاضي احمد ، ولكنه قرأ في مجيئه القلق والغضب • فلما أقبل وحى بش له الخليفة وأمره بالجلوس فجلس ، فقال له الخليفة : «ارى الصاحب قد مل القعود في هذا القصر وثبتت نفسه نرفا فاشتاق الى ميدان الوغى وحوض المعامع» •

فأدرك ضرغام ان الخليفة يهد له طلب السفر الى الفان ، وانه لم يفعل الا وهو يرى الحاجة ماسه الى نجدة فقال : «ان البقاء الى جوار امير المؤمنين نعمة وبركة ، ولكن الضرب بسيفه فرض مقدس • وفد طالما حدثت نفسي ان ألتس من امير المؤمنين ان يرمي بي في هذه الحرب القائسة بأرمينيا ، فاذا أدن لي في ذلك فانه يغرنى بفضله وأنا في كل حال صنيعته وريب نعمته» •

فاستحسن الخليفة ذكاءه ونظر الى القاضي احمد فالتفت القاضي الى ضرغام وقال : «ان امير المؤمنين ضنين بك حريص على قربك ، ولكنني لحظت منك في هذه الايام انقباضا حسبه ناتجا عن هذا الانحباس ، فان القائد الشجاع لا يسر الا بخوض المعامع والظفر في الحرب . ونحن الان في حرب بأرمينية ، وقد صبرنا على ذلك المتسرد لاعتصامه في حصوته • فأشرت على امير المؤمنين بأن يوجهك اليه فيأتي النصر على يدك» •

فقال : «اني على ما يريد امير المؤمنين وأنا على أهبة السفر هذه الساعة» •

فقال الخليفة : «انت تعلم ان جند المسلمين في أرمينية بقيمادة

الافشين ، فهل يشق عليك ان تكون من قواده» .
قال : «انما انا سيف من سيوف امير المؤمنين ، فليستلني رئيسا او
مرؤوسا» .

فهمش له الخليفة وقال : «بورك فيك : وسأبعث السى الافشين ان
يعرف قدر صاحب قبل سائر القواد» .

فوقف ضرغام وقال : «يأذن لي مولاي في ان أسافر مصحوبا بدعائه
وبركته ، وأرجو ألا اعود اليه الا وقد فتح البذ وقتل بابك الطاغية» .
فابتسم له الخليفة وأمر ان يخلع عليه ، فخرج وفد زال قلقه .
وكان وردان في انتظاره بباب القصر . فأخبره بما تم ، وقال له :
«كت احب ان تبقى فريبا من أمي هنا» .

فقال : «لا بأس عليها فهي في قصر الخليفة وبين يديها الخدم
والموالي» .

ومضى الى أمه فأخبرها بأن الخليفة أخصه الى ميدان القتال .
فاستحسنت الامر وشجعته وقالت : «اطلب الى الله ان يعيدك ظافرا» .
ثم تهدم الى يافوثة وحياتها . فلما علمت بأنه يتأهب للسفر دمعت
عيها فقال : «ادعي لي بالتوفيق لعلني ارى حمادا في طريقسي ، لا
تحسيني غافلا عن امره» . فان ذلك وتهد تنهدا خفيا وتذكر مصيبتة
بفقد حبيبته .

فأجابنه يافوثة بدمعتين ارسلتهما على خديها وهي مطرفة لا تنكلم .
فتركها وخرج فأمر وردان بالاستعداد للسفر ، وبعد ايام ودع امه
واوصاها يافوثة خيرا ، وسافر في فرقة من خاصة رجاء الفراغنة
الأشداء .

* * *

جرت بين جند المسلمين والخرمية مواقع عديدة في أردبيل وغيرها انتهت بتخلي الخرمية عن أردبيل ، واستقروا في البذ مدينة بابك وهي مدينة حصينة او قلعة كبيرة مؤلفة من قصور وفلاع حولها سور ضخيم له الابواب الكبيرة وعليه الابراج الكثيرة والطريق اليها وعبر بين الجبال والالودية . واقتفى جند المسلمين اثر بابك عندما فر الى البذ . وبين البذ وأردبيل محطات عدة جعلها المسلمون نقطا عسكرية تحفظ لهم خط الرجعة ، وتضمن الاتصال مع سامرا مقر الخليفة . فكانت الميرة القادمة من العراق اذا دخلت أرمينية أنزلوها في أردبيل . ومن هناك ينقلونها الى نقطة عسكرية اسمها «حصن النهر» ثم يعود حراسها الى أردبيل ويتولى حراسها جند آخرون من «حصن النهر» الى أرشف وهكذا الى خش فبرزند الى «روز الروذ» وهي آخر محطة قبل البذ وبينهما بضعة فراسخ .

وكان الافشين قد كلف جواسيسه ان يختاروا مكانا حصينا يعسكر فيه ، فاختاروا في «روز الروذ» ثلاثة جبال عليها أنقاض ابنة قديمة . فأقام عسكره عليها وسد الطرق الموصلة بينها وبين البذ بالأحجار الضخمة حتى صارت كالحصون ، ثم حفر خندقا وراء الحجارة عند كل طريق ما عدا طريقا واحدا يخرج منه رجاله اذا اراد الهجوم ، وقد بذل في هذا العمل جهدا شديدا فكان الرجال ينقلون الحجارة ويحفرون الخنادق ، والعساكر يحرسونها ليلا ونهارا .

وكان «روز الروذ» واد بين آكام وعرة . فعصى رجاله وعهد الى كل قائد من قواده ، بفرقة منهم ، وهم ثلاثة : جعفر الخياط ، وأبو سعيد ، وأحمد بن الخليل . اقامهم في محطات بينه وبين البذ قبل السوادي الفاصل بينهما ، فأصبح معسكر الافشين كبيرا جدا اذا اراد النهوض او السير به جعل الاشارة ضرب الطبول لبعده المسافات واحتجاب الفسرق

بعضها عن بعض بالجيال واللاودية . فاذا سار ضرب الطبول ، واذا وقف أمسك . فيقف الجند جميعا او يسرون جميعا في مصافهم وعلى ترنيهم . وكان للأفشين معسكرا اقامه على أكمة يشرف منه على «البذ» ويرى قصر بابك وغيره من قصور المدينة .

وكان بابك كثير الاعتماد في حروبه على طوائف من رجاله يرسلهم ليكنوا في اللاودية وراء التلال ليفاجئوا جند المسلمين ويغدروا بهم . وكان الأفشين يهتم كثيرا بقطع دابرهم فيرسل الجواسيس او الكوهبانية للبحث عن الكمين .

قضى في ذلك الحصار مدة طويلة وهو يشاغل الخرمية فيأمر قواده فيقطع الواحد منهم الوادي الى الجانب الاخر ازاء البذ في كردوس من رجاله فيقف بهم هناك فيخرج بابك فرقة من جنده تحمي باب السور وتمنع الاعداء منه ، فاذا انقضى النهار أمر الأفشين رجاله بالعودة الى معسكرهم وراء الخندق ويبيتوا هناك ، فتضايق الخرمية من هذه المناورات فعزموا على الفتك بهم فراقبوا رجوع كراديس الأفشين من جانب الوادي ذات يوم كالعادة حتى لم يبق منهم الا جعفر الخياط بكردوسه فخرجوا عليه وارتفعت الضجة فرجع جعفر ورد الخرمية بنفسه الى باب البذ ونصايح الجند حتى بلغت الضجة الأفشين فرأى جعفر وأصحابه يقاتلون فخاف ان يفسدوا عليه خطه .

أما جعفر فجاءته نجدة من المتطوعة وهي فرقة تنصر المحاربين رغبة في الغنائم والسبي فاشتد أزره وهجموا على السور وتعلقوا به وكادوا يصعدونه ويدخلون المدينة فبعث اليه الأفشين يقول : «انك افسدت علي تديري فتخلص قليلا قليلا وخلص اصحابك وانصرف» . ثم تحركت كمناء بابك فاضطر جعفر الى الرجوع أسفا لضياع الفرصة . وبقي المتطوعة بعد ذلك اياما يقاتلون وحدهم حتى قلت علوفتهم

ومؤوتهم وهم يتدمرون ويقولون : «لو أنجدنا الافشين لدخلنا البذ» .
وضج سائر الجند وطلبوا ان يبادروا بالقتال فكان يماطل خشية الفشل .
او لعله كان يطاول رغبة منه في جمع المال . لان المعتصم كان قد جعل
له على كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم ، وعن كل يوم لا يركب فيه
خمسة آلاف درهم ، ما عدا العدة والمؤونة . فجمع من ذلك مالا كثيرا
كان يرسله الى أشروسنة .

وكان الافشين جالسا ذات يوم في فسطاطه المطل على البذ . فوقع
نظره على جماعة من رجاله يفودون رجلا عليه لباس اهل تلك المنطقة ،
وما وصلوا به اليه حتى عرف انه سامان اخو جهان . فأجفل ولكنه توفع
ان ينتفع به فصاح بالرجال ان يتركوه ، فتقدم سامان مطأطئ الرأس وجثا
بين يدي الافشين ، فأمره هذا ان يقف وبش له وقال : «من اين اتيت ؟»
قال : «من البذ يا سيدي» .

فأشار اليه ان يقعد فقعد متأدبا . ثم سأله : «ما الذي أدخلك هذه
المدينة ؟»

فهمز رأسه وقال : «اتيت اليها في خدمة مولاي الافشين» .
قال : «وكيف ذلك ؟» . قال : «ما زلت منذ تشرفت بلقيا مولاي في
سامرا أبحث عن جهان عملا بأمره حتى علمت انها عند بابك !»
فدهش الافشين لقوله وصاح به : «جهان هنا الان ؟» . هنا في البذ ؟
قال : «نعم يا سيدي» .

قال : «وما الذي جاء بها الى هذا البلد البعيد ؟»
قال : «اخبرتكم يا مولاي ان اللصوص خطفوها مني بقرب همذان .
وما زلت أجد في البحث عنها حتى علمت ان بابك هذا هو الذي بعث
رجالهم لاختطافها لانه سمع بجمالها ، وكان قد خطبها من ابي فرده خائبا .
وكأنه اقام الكمءا يترقبون خروجها حتى تمكن من غرضه» .

فقال : «ثم ماذا ؟ ألا تزال هنا ؟»

قال : «ان امر أختي يحيرني ، فهي لا تستقر على حال فبعد ان رفضت نعمة صاحب أشروسنه ، رضيت ببعض رجاله . ثم عادت فرضيت ببابك وأصبحت اقرب نسائه اليه وتتفانى في نصرته . وكم نصحت لها ان ترجع عن غيها وحسنت اليها المجيء الي الافشين لانه ولي نعمتها فأبت . فلما رأيتها مصرة على عنادها تركتها وجئت اليك» .

قال : «بورك فيك ، لكنني علمت من بعض الجواسيس ان أعز نساء بابك اليه امرأة اسمها جلنار يقولون انها حازمه حسنة التدبير ، وانها أعانتته وشدت أزره كثيرا» .

فقال : «هي جهان نفسها يا سيدي وفد غيرت اسمها تمويها . ووعدن صديقها الجديد ان تنصره على جند المسلمين فهي تتفانى في نصرته . ولولاها لقضي عليه من زمن مديد» .

وكان الافشين يعلم خبت طوية سامان ولكنه جراه رغبة فسي الاستعانة به على امر لا يصلح له غير الخبثاء ، ولم يفته ان سامان يكرهه ولو استطاع قتله لقتله . فعمد الى المداجاة وهز رأسه وحك ذقنه وأصاح قلنسونه وتحرك في مقعده وقال : «بئس ما كافأنا به هذه الفتاة على احساننا فقد اغضبناك لاجلها فعقتنا . وعسى يا سامان ان نكره شيئا وهو خير لك» .

ثم سكت عن الكلام قليلا وعاد فقال : «ألم يعلم ضرغام ان جهان هاهنا؟» قال : «كلا ، ولا هي تعلم بأنه على قيد الحياة» . فلم يصدق قوله وسأله : «وكيف هذا وضرغام لا بدخر وسعا نسي البحث عنها» .

قال : «قد ساعدني على هذا تغيير الاسماء . كن على يقين انها تؤمن بما قلته لها من انه قتل ، وهو ما يزال يعتقد انها خطفت الى مكان مجهول» .

وقد فعلت انا ذلك حسبة لوجه مولاي الافشين رغم ما فاسيته من اعراضه وحرمانني» . قال ذلك ونظر الى الافشين وعيناه ترقصان حولا . فقال الافشين : «لقد وثقت الان باخلاصك . فاذا زدني يقينا باكمال سعيك كنت من الغانمين» .

قال : «اني طوع الاشارة ، سل ما تشاء ابذل نفسي في خدمتك» . قال : «ذكرت انك كنت في البذ فما الذي تعرفه عن اهله وحصونه وجنده ؟»

قال : «ان المدينة منيعة كما ترى وفيها الجند والاسلحة ، والخرمية يتضامنون في أموالهم وأنفسهم ، يتفانون في خدمة زعيمهم . ولكنني ارجو ان يغلبوا على امرهم» . قال : «بماذا ترجو ذلك ؟»

قال : «أرجوه مما أعلمه من دخائل هذا البلد . فأنا أعرف ان فيها من الاسرى المسلمين وغيرهم عددا كبيرا ، منهم سبعة آلاف وسنمائة من النساء والاطفال ، ويقدر عدد الذين قتلهم بابك بنحو ٢٥٥ الف نفس . وأعرف ان الناس قد ملوا سيادته حتى المقيمين ببلده ، فاذا تمكن عشرون رجلا منكم ان يدخلوا المدينة ويراهم الناس فأهلها جميعا يستسلمون» .

قال : «ما رأيك في الجهة التي نهجم البلد منها حتى نضمن الدخول اليها ؟»

فوقف سامان وأشار بيده الى جبل في طرف البذ وقال : «من هنا يا سيدي . أرأيت هذا الجبل ؟» ان بابك يقيم الكمناء في سفحه لعلهم ان العدو اذا تجاوزه سهل عليه دخول المدينة ، فاذا احتال مولاي فسي الاتيان من ورائه ظفر» .

فسر الافشين من قدوم سامان ، وهم بأن يستزيده ايضا فاذا

بالحاجب دخل يقول : «ان يريد امير المؤمنين بالباب» • قال : «يدخل» •
فدخل البريدي وعلى وجهه أمارات السفر والتعب وعلى صدره
صفيحة البريد النحاسية وعليها علامة خاصة • ووقف فناداه الافشين :
«تقدم • ما وراءك؟»

فتقدم البريدي ودفع اليه لفافة حريرية عليها خاتم الخلافة ، فتناولها
وقبلها ثم فض خاتنها فاذا داخلها أنبوبة من فضة مختومة ففتحتها وأخرج
منها كاغدا ملفوفا نشره وأخذ يقرأه وسامان يراعي حركاته وملامح وجهه
فرآها تغيرت ، حتى اذا فرغ من تلاوته اشار إلى البريدي فانصرف ،
والتفت الى سامان وابتسم ليزيده استئناسا وترغيبا في خدمته ، وكان
سامان واقفا فأمره بالجلوس وقال : «أتعلم ما في هذا الكتاب؟»
قال : «من اين لي علم الغيب؟»

قال : «انه كتاب المعتصم يحثني فيه على الثبات ، ويشرنني بأنه أرسل
الي نجدة بقيادة صاحبه ضرغام» •
فقال سامان : «أترى صاحب أشروسنة في حاجة الى النجدة وهو
الملك والقائد ، وجنده يملأ السهل والجبل؟»

قال : «كلا • وأمير المؤمنين يعلم ذلك • وأخشى ان يكون الرجل
قادم لغير الحرب • أخشى ان يكون قد عرف امر جهان • • وسواء
أعلى علم ام لم يعلم فجهان لا يسها احد سواي ، ان لم يكن جبا لها
وافتانا بها فانتقاما من كبريائها وقحتها • اني لا انسى ذلك اليوم في
فرغانة» •

فقال سامان : «أما ضرغام فلا شك انه لم يعلم بأن أختي هنا ، بل
هو لا يعتقد انها على قيد الحياة • وقد يكون كره الحياة بعدها لكلفه بها
فأتى الى ساحة القتال رغبة في الموت ، فاني ارى في الناس جنونا لم
أجربه • اراهم اذا أحب احدهم فعل فعل المجانين حتى يجازف بحياته

غراما بحبيبه واذا توفي الله احدهم اراد الاخر ان يتبعه» .
فضحك الافشين حتى بانت نواجذه وقال : «ان كان قد جاء يطلب الموت فأهلا به ومرحبا . له علينا ذلك حبا وكرامة . أما ما تراه من جنون المحبين وهيامهم فأنت معذور لأنك أجروا لا تشعر شعورهم» .
ثم أطرق هنيهة وقال : «اذا هجمنا غدا على البلد ودخلناه فأين تكون أختك ؟»

فوقف سامان والتفت الى البذ وأشار بيده وقال : «أرأيت هذا القصر الفخم عند الباب الشرقي ؟ هذا قصر النساء وبه تقيم جهان . ومن اراد الوصول اليه حالا فليأته من ذلك الباب» . ثم اشار بيده الى قصر في الغرب وقال : «وهذا القصر عند الباب الغربي قصر بابك نفسه ، وهو أمنع القصور ولا يهاجمه احد الا قتل . فاختر لنفسك» .
وتحرك الافشين في مقعده ، فنهض سامان واستأذن . فقال له الافشين : «تمكث عندنا لنستأنس بك ولا تخرج من هذا المعسكر الا للضرورة» .

ففهم سامان قصده فقال : «احب ان اكون اسيرا عندك حتى تتحقق من اخلاصي وأتقدم اليك ان تبقي خبري مكتوما عن ضرغام وغيره والا فسد تدبيرنا» .

فأشار الافشين برأسه موافقا ، ثم نادى غلامه وأمره ان يكسرم سامان ويحتفظ به ، فخرج سامان من حضرته وقد سره ان الافشين أحسن لقيه ووعد به بارت ابيه انتقاما من أخته . واستبشر بقرب الانتقام من أخته متى جاء ضرغام فيكيد له ويسعى في هلاكه . ونسي انه كان ناقما على الافشين وقد استعان بضرغام عليه وان أخته صاحبة الفضل الاكبر عليه . ولكنه يجري في اعماله على هوى منافعه فهو لا يفتض من الافشين لانه تعدى حدود الوصاية او لانه اراد السوء بأخته ، وانما

أبغضه لانه حرمة من الارث • ولم يحب ضرغاما لشهامته وأريحيته او
نسبه وانما أظهر حبه له ليستعين به في نيل مرامه • ثم انه لم ينقلب هذا
الانقلاب في الحالين الا جريا وراء ما يفيد فلم يكن له قلب يحب ولا
وجه يخجل • ولكنه ملتفت بكل جوارحه الى حب المال ، وزاده حبا
فيه يأسه من احترام الناس له لسجاياه او مناقبـه فأراد ان يكسب
احترامهم بالمال ظنا منه انه متى صار غنيا احتراموه وأجلوا قدره • وسيان
عنده أحبوه ام أبغضوه !

- ١٨ -

سقوط البذ

لما خلا الافشين الى نفسه بعد خروج سامان فكر مليا فيما سمعه منه
فصادف هوى في نفسه ، وسيان عنده فعل سامان ذلك حبا له او خوفا
منه او طمعا في تغيير الوصية ، وأعاد ما سمعه عن جهان وتذكر جمالها
وكبرياءها فسرر انه ظفر بها ، وأنها منى وقعت في يده هذه المرة فلا مفر
لها منه ، ثم تذكر ان ضرغام هو العقبة الوحيدة في سبيله ، وفكر فيما
لمح اليه سامان من الاحتيال لايقاعه ، فاعتزم ذلك •

وقضى اياما في مثل هذا المنى حتى جاءه صاحب الخبر منبئا بقدم
الصاحب مع رجاله • وفي صباح اليوم التالي جاء ضرغام فرحب به
الافشين وأثنى على رغبته في نصر الدولة • فأجابه الصاحب شاكرا ،

ولحظ الافشين في وجهه تغيرا مما أحدثه يأسه من جهان ، فلم يبال
وجعل يبالغ في اطراء بسالته وعلو همته فقال ضرغام : « لا فضل لنا في
خدمة الدولة ونصرة الدين الحنيف » .

قال : « صدقت وقد جئنا في ابان الحاجة اليك فاني لا اري بين
قوادي من يركن اليه في المهمات غيرك ، وقد خبرتك وعلمت شجاعتك
وصبرك » .

فقال ضرغام : « كنت قد استطلت الحرب واستبطأت الفتح فلما رأيت
هذه الحصون ووعورة الارض ايقنت ان الافشين قد اتى بما لا يستطيعه
الا الابطال وما انا من يزيد في اقدامه او يسهل فتحه ، ولكنني مللت
الفعود وأحببت ان يكون لي في هذه الحرب نصيب . فارم بسي
حيث تشاء » .

فتأكد الافشين من يأس ضرغام ، وأحب تغيير الحديث ليهيئ له
مهلكا فقال : « بورك فيك . لا بد ان تستريح اولا من عناء السفر . .
اخبرني عن اهل سامرا كيف هم وكيف امير المؤمنين » .
قال : « كلهم في قلق من امر بابك هذا ولكنهم يشنون على ثبات
الافشين وحسن تدبيره . . وقد آنست من الخليفة رغبة في انتهاء هذه
الحرب فجئت لألقي نفسي في اقرب السبل الى ذلك عسى ان أتعجل
الشهادة » . قال ذلك وأبرفت عيناه بريقا حادا قرأ الافشين خلاله حديثا
طويلا فقال : « غدا ننظر في ذلك . وأما الان فاخرج بنا نطلعك على
معسكرنا ومواقع القواد ونظام الخنادق والحصون والمكامن » . ونهض
وأمر ان تهيأ الافراس .

فنهض ضرغام وهو يقول : « قد رأيت بعض هذه المعازل فعلت ان
مولانا الافشين قد اتى في تنظيمها بالمعجزات » .
وقضى الرجلان بقية اليوم في التجول بين الحصون والاستحكامات .

فرأى ضرغام جندا كبيرا وتدييرا حسنا ، وسره اهتمام الافشين باطلاعه على ذلك من تلقاء نفسه فقال له : «ان مثل هذا الجند لا ينبغي ان يصبر على فتح البلد طويلا» •

قال : «غدا أقص عليك سبب الابطاء» • وافترقا •

فذهب ضرغام الى فسطاطه وكان وردان في انتظاره وفد اصبحا صديقين حميمين • فلما اجتمعا قص ضرغام عليه ما لقيه عند الافشين الى ان قال : «وقد وعدني الافشين ان يسرع في القتال ، وألححت عليه ان يرمي بي في أخطر المواقع فاذا لم أرجع فاني أعهد اليك منذ الان في العناية بأمي المسكينة» • قال ذلك واختق صوته فتنحجح حتى يخفسي اختناقه وعاد الى اتمام الكلام فقال : «وأنت نعلم ما قاسته في محبتي» • اما يا قوته فأحتفظ بها ريثما يمن الله عليها برجوع خطيبها • وأظنك تعرفه • وأما جهان فاذا كانت على قيد الحياة ولقيتها بعد موتي قبلغها ما نعلمه من وجدي !»

فقطع وردان الحديث وقال : «لا توصني فاني لن ابقى بعدك ، وما صحبتك الا لأكون معك حيثما ذهبت» •

قال : «اني ألقى بنفسي الى الهلاك فرارا من حياة لم يعد لي لذة فيها ، فما خطبك انت ؟»

فتهد وردان وأطرق وذرفت عيناه دمعين تقطرتا من مآقيه ، وكأنه خجل فرفع بصره ، وقال : «ان نصيبي من اليأس كبير جدا ، ولو علمته اطلبت لي ان اسير الى الهلاك امامك واذا بقيت حيا قصصته عليك • ومهما يكن من شيء فمصري رهن بمصيرك» •

فأعجب ضرغام بأريحيته ، وكان قد شعر بشيء مما يجول بذهنه ، ولم يشأ ان يستطلعه الا اذا هم هو بنفسه بأن يكشف عما به ، فقال : «لك ما تريد يا وردان ، وغدا نرى ما أعده لنا الافشين من المهام» •

اما الافشين فقضى تلك الليلة مع سامان يكيدان نضرغام . وفي صباح اليوم التالي زار نضرغام الافشين ومعه وردان ، فوجداه وحده ، وسأله نضرغام عما استقر عليه رأيه فقال : «لا ازال ارى التريث فسي الحصار برهة اخرى» .

فأجفل نضرغام لهذا التغير وساءه تأجيل الهجوم فقال : «ولماذا؟» قال : «اني ارى هجومنا اليوم مجازفة لا تحمد عقباها . فقد قضيت ابراحة وأنا أقلب الامر على وجوهه فلم أوفق الى تعبئة تضمن لنا النصر» .

قال : «هل لك ان تطلعني على ما نخشاه؟»

فنهض الافشين ومشى حتى وقف بباب الفسطاط وأطل على البدو حصونها ثم قال: «أرايت هذه المدينة ، انها أمتع من عقاب الجو ولاسيما من جهة الغرب حيث هذا القصر الفخم فانه فصر بابك الذي يقيم به ، فاذا وصلنا الى باب السور الذي يليه اخذنا المدينة» . ثم قال : «ألا ترى هذا التل الشاهق المشرف على المدينة من غربيها؟ لا سبيل الى القصر الا من ورائه ، والطريق هناك. وعمر لا يسلكه الجند الكثير ولا يجسر الجند القليل على سلوكه لما يلقاه من نبال الخرمية ومجانيتهم . وبابك كثير الاعتماد على الكمء فنخاف ان يكون له كمين او اكثر وراء ذلك التل او في واديه» .

فقال نضرغام : «انا اذهب الى ذلك التل مع رجالي الفراغنة» .

قال : «اذا فعلت ذلك فاني أعبىء الجند حول الاسوار من جميع جهاتها فنضمن الفتح باذن الله» .

فقال نضرغام : «ومتى الهجوم؟»

قال : «متى شئت» .

قال : «الليلة . دعني أدهم القوم ليلا فاذا أصبح الصباح ودخلت

البذ حيا ، فاهجموا اتم على سائر جهات البلدة فيكون فتحها امسرا
مقضيًا .

قال الافشين : «بل ارى ان تنهيا جميعا للهجوم ليلا ، على ان تذهب
انت برجالك من وراء التل وتمكث تجاه المدينة حتى ترى نارا او قدما هنا
بعد نصف الليل ، وعلامتها انها مثلثة اي تكون ثلاث فيران منحاذية فاذا
رأيتها علمت ان الجند كله مهاجم المدينة من كل جهاتها فاهجم انت برجالك
من ناحيتك ، ولا يخفى عليك يا ولدي انك في أشد المواقع خطرا» .

قال : «لا أبالي بالخطر .. انا ذاهب الان لأعد رجالي وأرجو ان
نلتقي جسيما في قصر بابك غدا» . قال ذلك وتضاحك مكشرا عن اسنانه
كما يكشر الاسد اذا هم بالوثوب . وكان الغضب واليأس قد زادا وجهه
هبة وقوة فازداد شارباه وقوفا وحاجباه خشونة وعيناه بريقا وحده حتى
تهيب الافشين النظر اليه والتفرس في عينيه فقال له : «لو كان لنا عشرة
مثلك لفتحنا البذ من زمن بعيد» . اراد بذلك ان يشبهه في عزمه وهو
على يقين انه لا يستطيع تجاوز التل الى السور لما وضعه بابك هناك من
آلات الدفاع الخطرة فضلا عن الكساء . واغرب من هذا ان ضرغاما ودع
الافشين ليذهب وينتهي للهجوم وهو لا يعرف شيئا عن الطريق ولم
يسأل عنه . وفد فرح الافشين لذلك لان جهله الطريق يؤكد فشله .

فخرج ضرغام وهو يقول للافشين : «غدا نلتقي هناك» . وأشار بيده
الى قصر بابك ، والافشين يهش له حتى اذا توارى عن الخيمة لقيه وردان
فماشاه وسأله : «ما الذي استقر الرأي عليه؟»

قال : «الليلة نهاجم البذ» . قال : «من اين؟»

قال : «نأتيه انا والفراغة من وراء ذلك التل حتى ندخل من الباب
الغربي وبجانبه قصر بابك ، فنكون اول من يدخله او نموت تحت
الاسوار» .

فوقف وردان والتفت اليه وقال : «هل تعرف الطريق الى التل ؟»

قال : «لا .. لا أعرفه .. ولكن ..» .

قال : «ولكن ماذا ؟» انه طريق طويل ينبغي لسالكه ان يسير من وراء التل مسافة تستغرق ساعات حتى يأتي الى سفحه تجاه السور» . وكأنه نبه ضرغاما فقال له : «وهل تعرف الطريق انت يا وردان ؟» . قال : «نعم أعرفه» .

قال : «اذن انت دليلنا بل انت فائدنا ، هلم الى رجالنا ليتأهبوا من الان . ثم نتقل بهم أصيل اليوم الى الطريق الذي تعرفه حتى نصل في العشاء الى تجاه المدينة» . قال : «حسنا» . ومشيا وكلاهما ساكت يفكر . يريان الخطر الذي يهددهما واليأس يعزيهما عنه حتى وصلا الى معسكر الفراغة . وكانوا فليلين لا يتجاوز عددهم بضع مئات لكنهم اشداء منتخبون يتفانون في طاعة ضرغام لو قال لهم ادخلوا النار لتسابقوا اليها .

اما الافشين فجاءه سامان بعد خروج ضرغام فقص عليه ما فعله وقال : «والبافي عندك يا سامان» . فقال : «سعا وطاعة» . وخرج . وعبا الافشين جنده للهجوم في ذلك الليل ليأخذوا القوم على غرة ، وجعل فرفته بحيث نهاجم المدينة من جهة الباب المؤدي الى قصر النساء الذي تقيم فيه جهان او جلنار ، حتى اذا فتح البلد ودخل الناس للنهب استولى هو على قصر النساء وأعطى جهان الى من يحفظ بها وانصرف الى قيادة الجند .

اما ضرغام فجهز رجاله ومشى بهم ووردان دليلهم ، وداروا حول التل حتى وصلوا الى مكان فيه يشرف على البذ من الغرب ، فمكثوا هناك حتى اظلمت الدنيا فأمرهم ضرغام ان يتربصوا ويكونوا على أهبة الهجوم ، وخلا الى وردان على أكمة ونظر الى البذ فرأيا فيه أنسوارا

متفرقة كما يطل القادم على بلد في الليل فانه لا يرى الا انوارا ويندر ان يتبين شيئا من ابنيها او قلاعها . فقال وردان : « ان اقرب هذه الانوار الى السور وأكثرها اشعاعا انوار قصر بابك ، وهو الذي سنفتحه او نموت دونه ، وترى أنوارا بعيدة في الجانب الآخر من البلد فهناك قصر النساء : ولا أظنك تجهل استكثار هذا الرجل من النساء وانغماسه في الملذات » .

قال : « وقد رويت لي ما طرأ عليه من التغيير من عهد بعيد بفعل امرأة من نسائه ذات عقل وتدير . ما أكبر عقل تلك المرأة ! » فقال : « انها عاقلة ولذلك تسلطت عليه ، فأصبح لا يقطع بأمر الا برأيها » .

فتنهذ ضرغام وقال : « مالنا ولهذا الان . دعنا ننظر في الطريق الذي نسلكه في الهجوم . ما الذي يحول بيننا وبين المدينة الان ؟ » . قال : « بيننا وبينها واد » .

قال : « وكيف نقطعه ؟ » . قال : « نقطعه من مكان فوقه فائمه كالجسر ، ومتى صرنا في الجانب الآخر اصبحنا قريبين من السور فنهجم وتتسلقه ، ولا أظننا نجد عليه حامية لان الخرمية لا يخطر لهم ان عدوهم يأتيهم من هذا الطريق الوعر او يجسر على النزول هنا » . قال : « اذن هلم بنا ننزل » .

قال : « تسهل يا مولاي حتى تطمئن القلوب ويهجم الناس فلا يجدر بنا ان نرحف قبل نصف الليل وبعد ان نرى نيران الافشين » . قال : « حسنا » . وتحول الى رجاله وأوصاهم بالسكون والتربص وبألا يوفدوا نارا ولا يسمعوا صوتا حتى يأمرهم بالتقدم ثم نركهم وأشار الى وردان فلحقه فقال له : « تعال تتجسس المسر الذي قلت عنه لنرى هل هو سالم او لعل فيه عقبة » .

ومشيا مسافة طويلة في ارض صخرية كثيرة الحجارة يتلمس الماشي ارضها ، تلمسا وكان الظلام مخيبا لا يكاد الناظر يرى ما بين يديه . وقد ساد السكون فلم يكن يسمع هناك أي صوت سوى حفيف الثعابين والحيات المناسبة بين الصخور او رفرقة طائر يحلق بجناحيه في الجو . فكان لوقع أقدامهما صوت بذلا الجهد في اخفائه لئلا ينم عن مكانهما . ولما اقتربا من الوادي رأيا فوقه شبه جسر من الصخور يمر عليه الاثنان والثلاثة معا . فقال ضرغام : «تحدثني نفسي ان اسير توا الى السور فأصعد عليه والناس في غفلة ومتى صرت داخله يشتد أزر المسلمين بي فيكون هجومهم أدعى الى الظفر» .

فقال : «اخاف عليك كسينا . وأرى ان نعود معا او اعود انا وحدي فأدعو الرجال وتتعاون على العمل» .

قال : «اذهب انت واتركني هنا حتى نعود بهم» .

فقال : «احذر يا مولاي ان تبرح مكانك او تظهر أي حركة» . ثم عاد وردان الى الفراغة ، وظل ضرغام وحده . فلما خلا الى نفسه نظر الى السور فوجده على بعد مائتي خطوة منه فسوات له نسه ان يشسى الهويناء حتى يصل الى السور فينظر ما وراءه ثم يعود . فسنى وهو لا يعرف الطريق وانسا جعل وجهته السور . وكان ينقل قدمه محاذرا سماع وقعها . ويرفع السبف بيده حتى لا يقعقع . ولما دنا من السور وجده عاليا وعليه الابراج ، ولم يسمع هناك صوا ولا رأى نورا الا في برج كبير فوق الباب رأى فيه ضوءا ضعيفا . ولما ازداد قربا من السور سمع حركة فوفف ويداه على قبضة حسامه . واذا بعشراب من الرجال خرجوا من وراء الصخور وأحدقوا به وسيوفهم مشرعة كأنهم كانوا يسطرونه فأدرك انه وقع في كمين ، فاستل حسامه وصاح فيهم صيحه أجفلتهم ووثب ووثب الاسد يضرب ذات اليمين وذات اليسار ضرب رجل شديد

البأس قوي القلب لا يهاب الموت ، وكانوا يفرون امامه فرار الظباء من الاسد ، وهو وراءهم لا يخترس ، فسا درى الا وهو يهوي في حفرة فانقلب وسقط السيف من يده ، وشدت الجبال حول قدميه وكنفيه وأخذوا في اخراجه من الحفرة • وسمع جلبة وقرقعة ودبابة وصوت وردان ينادي ليك يا سيدي • فتحول الكمين نحو الصوت وتركوا عند ضرغام من يخفّره • وفهم ضرغام ان رجاله اتوا لنجدته من بعيد فزار زئير الاسد ونادى : «وردان اقطع هذه الجبال» •

فما كان الا كلسح البصر حتى قفز وردان اليه وفتح الجبال • فلما أفلب ضرغام اخذ سيفه وهجم على الخرمية وأعمل فيهم سيفه فقتل من قتل وفر الباقيون وام تمض ساعة حتى خلت الساحة منهم فصاح ضرغام في رجاله : «هلم الى السور» • وما اتم كلامه حتى سمع صوتا هائلا كأنه دبابة جبل يتدحرج • ثم ناداه وردان : «تنح يا سيدي انهم يرمون بعجلات من اعلى الجبل عليها صخور كبار لا نلبث ان تدحرج علينا ولا نغني الشجاعة في دفعها» •

فتنحى ضرغام وقد كلت دراعه من الضرب والطعن ، ولو لم ينبهه وردان لهرسته واحدة منها اذ لم يمض الا يسير من الوقت حتى وصلت كالسيل الجارف او كالرجم المتساقطة او هي كجلسود صخر حطه السيل من عل •

ولما استقرت العجلات في آخر انحدارها التصق بعضها بالسور بحيث يسكن التسلق عليها الى سطحه • وشاهد ضرغام ذلك فصاح برجاله : «الى السور» • وركض امامهم وسيفه مشرع ولم يكذب يفعل حتى رأى ظهر السور قد امتلأ بالرجال وفي أيديهم النبال فأخذوا يرمون الهاجمين بها وهؤلاء لا يبالون وفي مقدمتهم ضرغام وقد وقعت فلنسونه ونسزى قبائوه وتقطعت سراويله • ورآه وردان يصعد احدى العجلات بقرب الباب

ويهم بتسليق السور ففعل فعله واذا يباب السور انفتح وخرجت منه فرقة من الخرمية احاطت بالعجلة ومن عليها وألقوا الحبال على ضرغام ووردان فتحولا وأعمالا السيف في الحبال فتقطعت وصاح ضرغام : «ما بالكُم تحاربوننا بالحبال اين سيوفكم ايها الاندال ؟»

فلم يجبه احد وهو واقف على العجلة يعمل السيف فيهم فزلت قدمه فجأة عن خشب العجلة فوقع وارطم رأسه بحجر . . فلما رآه وردان شغل به عن نفسه فتكاثر عليهما الرجال فشدوا وتافهما وحملوهما الى داخل السور وصعدوا بهما الى البرج فوق الباب وألقوهما بين يدي رئيس الحامية ، فأمر بالقاء فرش به ضرغام . فلما سحبا نحفز ليقبض على سيفه ويهم بالوتوب فادا هو موثق بين يدي صاحب الحامية ، والتفت فرأى وردان الى جانبه في مثل حاله . فعظم عليه الاسر فصاح في القوم فاثلا : «عار عليكم ان تلجأوا في قتالكم الى الحبال فان كنتم رجالا فحكموا السيف . اقتلوا ولا تأسروا» . والتفت فرأى فائد الحامية جالسا وعليه القلنسوة والسرراويل من لباس الخرمية . ونأهده بين يديه جماعة من رجال الحامية الذين نجوا من المعركة وعليهم آثار القتال وسمعهم يتكلمون الفارسيه وهو يعرفها فحاطب الرئيس بتل ما قال بالعربية فلم يجبه . وأشار الى رجاله فخرجوا وأغلق الباب وتقدم الى ضرغام فحل وثاقه ثم وثاق وردان وقاء بالعربية : «فم يا ضرغام . قم واجلس » .

فلما سمع ضرغام الصوت أجفل والتفت الى الرجل ونفّس في وجهه فعرفه فصاح : «حماد ؟» . قال : «نعم حماد» . فنظر اليه والدهشة بأدية في وجهه وقال : «ما الذي جاء بك الى هنا ؟»

قال : «جئت بعد ان تركتني قرب همدان لسبب لا بجهله . وقد جندت في جيش هذا المجوسي للانتقام من صاحبك الظالم ، أما كان

الاجدر به ان يدخر هذه السيوف للدفاع عنه بدلا من ان تكون عليه ؟
فابتسم ضرغام رغم ما هو فيه من القنوط وقال : « ليس صاحبني ظالما » . ثم تذكر ما وعده به من البحث عن جهان فقال : « خفف عنك اني حامل اليك نبأ يسرك فعسى ان تكون حاملا مثله لي » .
فاضطرب حماد وبدأت الدهشة في عينيه وقال : « ماذا ؟ هل وجدت ياقوتة ؟ وأين هي ؟ »

قال : « نعم وجدتها وهي الان بسامرا عند أُمي معززة مكرمة » .
فطن حماد نفسه في حلم ، ولم ينمالك عن النهوض وقال : « ياقوتة في منزلك الان ؟ » . وأكب عليه وقبل رأسه ووجهه وهو يقول : « هل هي في خير وصحة ؟ » . اني أشكر لك فضلك » . ثم تراجع وتغيرت سحنه كأنه تذكر امرا أزعجه وقال : « ولكني لسوء الحظ لم أوفق الى خدمتك مثل توفيقك في خدمتي » . على اني لم أدخر وسعا في السعي والاستفهام ، ماذا فعلت انت هل وقفت على خبر جهان ؟ »
قال : « لم اجد وسيلة من الوسائل لم أتبعها وذهب سعيي عبثا » .
ثم تنهد وقال : « ليتك تركت رجالك يجهزون علي ، اذن لأحسنن الي : لانني لم آت هذه البلاد التماسا للفخر بالفتح او الكسب بالغزو وانما اتيت لألقى حتفي وأتخلص من هذه الحياة » . قال ذلك وهو يحرق أسنانه ويتململ .

فشاركه حماد شعوره وأخذ يخفف عنه فقال : « لا تيأس يا صديقي من الفرج فانه يأتيك وان حسبته مستحيلا . فقد تعلم ما كان من امري مع ياقوتة وكيف تركت وطني وأهلي يأسا من العثور عليها ، وهذا انت تحمل لي نبأ سلامتها ، فأتاني الفرج من حيث لا أتوقع . ولا اخفي عليك اني صممت بأن أفعل مثلك وعرضت نفسي للقتل ، ولكنني وفقت الى امر هدا روعي وساعدني على الصبر ، فلو وفقت الى مثله لصبرت صبري » .

لقد وفقت الى فتاة تشبه ياقوتة فتعزيت برؤيتها وخفف ذلك كثيرا من
لوعة البعد» •

فتذكر ضرغام مشابهة ياقوتة لجهان فقال : «لكنني وفقت الى من
تشبه جهان ولكنني لم اشعر بما يخفف اللوعة ، بل زاد ذلك فسي
أشجاني !» فاستغرب حماد وقال : «أما انا فاني أستأنس بشبه ياقوتة
استئناسا يكاد يذهب بقنوطي ، وان لم يكن لي سبيل اليها • فقد رأيت
لياقوتة شبةا في هذه المدينة هي أعز نساؤها جانبا وأسماهن حسنا
وأمنعن مقاما ، وهي لا تحتجب فتخرج سافرة لا تبالي ان يراها الناس ،
وكنت كلما نظرتها تيمنت بطلعتها وارتويت برؤيتها» •

وكان وردان جالسا يسمع ولا يشترك في الحديث ، فلما سمع
حمادا يذكر فتاة تشبه ياقوتة تذكر شبه ياقوتة لجهان • وهم بأن
يستوضح حمادا فرأى ضرغام قد سبقه الى ذلك وقال بلهفة : «اين رأيت
شبه ياقوتة ؟»

قال : «رأيتها في هذه المدينة في قصر بابك نفسه • لا أظنكم تجهلون
الفتاة التي قامت بنصرة بابك وقومت أخلافه ودفعته من الرذيلة الى
الفضيلة » •

قال وردان : «أظنك تعني جلنار ؟»

قال : «نعم اياها أعني • انها تشبه ياقوتة شبةا عجيبا ، فكنت اذا
رأيتها حسبت ياقوتة امامي • وكانت تردد على قصر بابك او تخرج معه
على فرسها سافرة ، فلم أشاهد في حياتي اجمل منظرا ولا اكثر هيبة
وجلالا منها» •

فأحس ضرغام باختلاج قلبه ، ولولا الظلمة المخيمة لرأى حماد الدم
يتصاعد الى وجنتيه • فأطرق لحظة راجع فيها ما يذكره عن ياقوتة وشبهها
لجهان فقال في نفسه : «لعلها جهان» • والتفت الى حماد وقال : «ومن

هي جلنار هذه ومن اين انت ؟»

قال : «هي من جملة نساؤه ، حملت اليه من بلد بعيد كما حمل
عشرات من أمثالها ، لكنها كانت اكثرهن سلطانا عليه فكأنها سحرته .
فبينما ترى رفيقاتها مختبئات في قصر النساء اذا رأين بابك سجدن له
تراها راكبة فرسها الادهم تجول في المعسكر تأمر وتنهي وأمرها نافذ على
الكبير والصغير» .

فلما سمع ضرغام قوله : «فرسها الادهم» انتفض كالعصفور بلله
القطر او هي قشعريرة المفاجأة فهب ناهضا وقال : «فرسها أدهم ؟ اين
هي بربك أرينها يا حماد . انها جهان ولا شك» . فأخذ حماد بنلفسه
وقال : «ليتها كانت جهان يا صاحبي ، ولكنها اخرى اسمها جلنار» .

قال : «قلبي يحدثني بأنها هي ، وما دامت تشبه يا قوته . فاني أعرف
ان هذه شديدة الشبه بجهان . تم انك ذكرت ان جوادها أدهم ، وانها
حملت من بلد بعيد ، وهذه الاوصاف كلها تنطبق على جهان ، ولا عبرة
بتغيير الاسم . فأنت تعرفني مثلا بضرغام وليس في سامرا احد يناديني
بهذا الاسم ، فاسمي عندهم الصاحب . هذه جهان لا شك . لقد ذهب
اليأس من قلبي . ففل اين هي الان ؟»

قال : «أظنها في قصر النساء ، فانها نبيت هناك ونخرج عند الحاجة
الى قصر بابك» .

فتنهذ ضرغام تنهد الفرج بعد الضيق ، وتحول يأسه الى امل ، ونظر
الى ثيابه المزقة وهو يهم بالخروج فاستوقفه حساد وقال : «اخلع ثيابك
والبس ثياب الخرمية حتى لا ينكرك الناس . وكذلك يفعل وردان ، وفي
صباح الغد نخرج معا الى قصر النساء» .

فقطع ضرغام كلامه قائلا : «أصبر الى الغد؟ . كيف أصبر؟ . وهب
اني صبرت فهل تصبر المدينة وفد أحرق بها المسلمون من كل جانب ولا

يلبثون ان يفتحوها • وهل يخفى ذلك عليك ؟»

قال : «لا أستغرب ذلك لاني من جملة قواد بابك ، وقد ندبني في الليلة لحراسة هذا الباب لان بعض الجواسيس أنباء بعزمكم على الهجوم من هذه الناحية ، فأتيت في المساء وأقمت الكمناء حتى رأيناكم قريبين ، فأمرتهم بالهجوم عليكم وكان ما كان ، فها بدل ثيابك » • ثم التفت الى وردان ليقول له ان يبدل ثيابه هو الآخر ، فوجده مطرقا غارقا في تأملاته ، فقال له «ما بالك يا صاحبي . أمصاب انت بمثل مصابنا ايضا؟» فتنهد وردان وقال : «نعم يا سيدي • وستعلم ذلك متى وصلنا الى

قصر النساء وأنا ارى ضرغام رأي ان نسرع الان بالخروج» •

فأطاعهما ، وبعد ان ارتديا زي الخرمية خرج بهما ، وأوصى رجاله ان يحرسوا الباب حتى يعود ، موهما اياهم ان الاسيرين عنده في جملة الاسرى الذين اخذوا تلك الليلة • وأطل حماد من السور فرأى البذ مضاعة وسمع الضوضاء وسطها فصاح في رجاله فلم يجد منهم احدا فنادى خادمه فأسرع اليه فقال : «اين الرجال ؟»

قال : «ألم تسمع يا مولاي طبل الهجوم ؟»

فقال : «كلا» • وكأنه شغل عنه بضرغام ووردان •

فقال الغلام : «ضربت الطبول وصدر الامر بأن يجتمع الرجال للدفاع عن الباب الشرقي لان المسلمين هجموا عليه بقيادة قائدهم الاكبر على ما يقال» •

فقال : «الافشين نفسه ؟» • قال : «لا ادري» •

فالتفت وردان وضرغام معا الى معسكر الافشين فرأيا النار المثلثة

موقدة فتأكدا من الهجوم ، فقال ضرغام : «هلم بنا الى القصر» •

* * *

ركب كل من حماد وضرغام ووردان جوادا من جياد الخرمية ، وأركضوها الى قصر النساء ، فلقوا اهل البلد في هرج وخوف وليس فيهم رجل لم يحمل سلاحه ليدافع عن نفسه ، وقد ظنوا حمادا ورفاقه من المغيرين ، ثم رأوا نفرا من المسلمين وسط المدينة ينهبون وأصبحوا كلما اقتربوا من الباب الشرقي رأوا المسلمين يتكاثرون فتحققوا ان البلد قد أخذ ، فلم يبالوا . ولما وصلوا الى القصر رأوا جنود المسلمين يخرجون منه حاملين الامتعة والرياش ، ورأوا بعضهم يقود نساء فاختلج قاب ضرغام خوفا على جهان ان تكون في الاسرى ، فدخل القصر مع وردان ، فقال لهما حماد : «تمهلا حتى أعرف الخبر اليقين من مصدره» . قال ذلك واتجه الى غرفة بقرب الباب رآها موصدة ، فقرعها فلم يسمع جوابا فكلّم الذين في داخلها بلسانهم ففتحت لهم امرأة كهلة أدخلتهم وأغلقت الباب خلفهم وهي ترتعد من الخوف ، فقال لها حماد : «ما الذي جرى يا خالة ؟»

قالت : «ألم تر ما جرى ؟ فتحوا المدينة ، وجاءوا الى هذا القصر فدخلوه ونهبوه وسبوا نساءه ولو لم أختبئ هنا ، او لو كان لي بقية من جمال او مال لاخذوني فاكتفوا بأخذ حليي وانصرفوا» .

فلما سمع ضرغام قولها : «سبوا نساءه» ، ارتعدت فرائصه ولم يكن وردان أقل منه اضطرابا ولكنه كان أصبر منه على كتم شعوره ، وأدرك حماد لفهتهما فسأل القهرمانة : «اخذوا كل النساء ؟» . قالت : «نعم» .

قال : «وجلنار ايضا ؟» . قالت : «لا .. جلنار لم يأخذوها» .

قال : «اين هي ؟» . فنظرت الى رفيقه وترددت في الجواب كأنها تكتم شيئا تخاف ظهوره ، فقال لها : «قولي ولا تخافي» .

قالت : «ان مولاتنا جلنار ورفيقة لها رومية من نساء بابك خرجتا منذ بضعة ايام في مهمة الى بابك» .

فتصدي لها وردان مستفهما فقال : «وما اسم تلك الرومية يا خالة ؟
هل تعرفينها ؟»

قالت : «كيف لا أعرفها وأنا قهرمانة هذا القصر أعرف تاريخ نسائه
واحدة واحدة ؟ فجلنار مثلا لا يعرف اهل البذ عنها شيئا وأما انا فأعرف
اصلها وفصلها منذ حملت الينا من فرغانة واسمها يومئذ جهسان بنت
المرزبان ، ثم تسمت بجلنار ، وأحبت هذه الرومية وصادقتها وتوافق
ذوقاهما حتى ذهبتا في هذه المهمة معا» .

فثبت لديهم ، ان جلنار هي جهان نفسها ، ولم يبق مكان للشك .
أما وردان فلم يشف غليله فقال : «سألتك عن المرأة الرومية ما اسمها وهل
كان لها اسم غيره ؟»

قالت : «اسمها هيلانة ولم تغيره منذ سرقوها من زوجها البطريق في
أرمينيا» .

فاضطرب وردان وارتجف وصاح : «هيلانة ؟ هي .. هي .. هي ..
زوجتي !»

وأدرك ضرغام ان وردان بطريق من بطارقة ارمينيا ، وان بابك سلبه
امراته فالتفت ضرغام اليه لفتة تهنة وعتاب وقال : «أتكون بطريقا
وتحمانني على ظنك خادما ؟ والله اني رأيت في برديك نفس الرجل الكبير
منذ عرفتك» .

فقال : «لجأت اليك ودخلت في خدمة المسلمين في انتظار هذه
الساعة حتى أتتكم من ذلك الفاسق الظالم ، فأرجو ان يكون قد اخذ
ونال جزاء فعلته» .

فقال حماد : «ان لم يكن قد فر فانه مأسور لا محالة ، لان المدينة
سقطت وقضي الامر» . ثم عاد حماد فقال للقهرمانة : «لم تخبرينا يا
خالة عن الجهة التي سارت اليها جلنار وهيلانة» .

قالت : «سارتا معا الى بلاد الروم يستنجدان اهلهما على المسلمين •
ارتأت جلنار هذا الرأي لنصرة بابك وصحبته هيلانة لانها من تلك البلاد
وتعرف لسانهم» •

قال حماد : «ومولانا بابك اين هو ؟»

قالت : «ليس في البذ الان ولا هو اسير» •

قال : «فأين هو ؟» اخبرينا لا تخافي فان البذ دخل في حوزة
المسلمين ، وهم أبقي لنا من سواهم • وأنا أعلم انك أخبر الناس بما
يعمله بابك» •

قالت : «بقي بابك في المعركة يناضل ويدافع حتى تحقق سقوط
المدينة فأتاني واصطحب من شاء من نسائه مع أحبال من الطعام
والشراب ، وأظنه غادر المدينة وأوغل في ارمينيا» •

فنظر حماد الى ضرغام كأنه يسأله عما يفعلون فقال : «تصرف» • ثم
خرجوا يلتمسون مكانا يتشاورون فيه ، وقد لاح الصباح • فقادهم حماد
الى مكان يعرفه وشاهدوا في طريقهم جند المسلمين ينهبون المدينة
ويهدمون بيوتها ويحرقون قصورها حتى لا يبقى فيها ملجأ لعدو او
صديق •

ولما وصلوا الى المكان قال ضرغام : «ماذا يرى البطريق وردان فيما
نحن فيه ؟» لقد ذكرت القهرمانة ان جهان وهيلانة ذهبتا الى بلاد الروم •
وهي بلاد واسعة ، فلو عرفنا البلد الذي تنزلانه لقصدنا اليه» • فضحك
وردان لتسميته بالبطريق وقال : «لا حاجة بي الى هذا اللقب ، يكفيني
اني صديق ضرغام • وأما جهان وهيلانة فأذن لي ان أضرب في البلاد
طولا وعرضا أبحث عنهما ولا اعود حتى أعرف مقرهما» •

فقطع حماد كلامه وقال : «كلا • لا يذهب احد في هذه المهمة
سواي ، ان لضرغام يدا عندي ، فقد أنقذ خطيبي واحتفظ بها في يته

مكرمة معززة ، فاذا لم أجازره على عمله كنت لثيما • دعني أذهب وحدي
أبحث وأفتش ومتى وقفت على شيء بعثت اليكما» •
فقال ضرغام : «ليس من العدل ان تكون عالما بمكان ياقوتة وهي في
لهفة للقياك وتذهب في مهمة اخرى» •

قال : «لا تجادلني . لست راجعا الى اهلي قبل ان آتيك بأهلك وأهل
هذا الصديق الارمني • لقد سررت بمعرفته سرورا كثيرا • وأما ياقوتة
فتبقي عندك في سامرا . ويكفي ان تبشرها باللقاء القريب» •
فقطع وردان كلامه وأخبره بما كان الخليفة قد أمر به ضرغام من
التزوج بها . وبأن ضرغاماً أوهم الخليفة بأنه تزوجها • فصاح حساد وقد
نار الاريحية في رأسه قائلاً : «وهل بعد هذا يستعظم ان أبحث عن
عروسة ؟» •

فقال : «اذن أسير معك لاني أعرف البلاد ولغتها وطرفها» • فقال :
«لا حاجة بي الى احد منكما ، أستودعكما الله من هذه الساعة» • قال
ذلك وخرج •

فلما خلا ضرغام الى وردان قال : «أحسبني في منام يا وردان ، ان
الفرق بين اليوم والامس كالفرق بين الرجاء واليأس ولكن ...»
فقطع وردان كلامه وقال : «وأنا أحسبني انتقلت من الجحيم الى
النعيم • لاني كنت شديد الشغف بأمرأتي ، وبلغ من قحة ذلك الوحش
الكاسر ان طلب مني ان أطلقها ليتزوجها ، فلما أيت بعث جندا حملها
اليه بالقوة ! • قبحه الله من مجوسي فاسق • والله لو ظفرت بسـ
لأشربن دمه» •

فقال ضرغام : «لعل الافشين ظفر به ونحن لا ندري فهل بنا الى
المعسكر» •

مصرع بابك

كان الافشين قد أحسن اعداد الهجوم حتى فتح البذ وقتل الخرمية على بكرة اييهم وأخذ اولاد بابك وعياله ، الا جهان وهيلانة لانهما كاتتا غائبتين وبعد ان احرق المدينة وتحقق فرار بابك عاد الى معسكره في «روذ الروذ» وقد ساء انه لم يظفر بجهان ولا علم مكانها . فارتاب في أفوال سامان ، وخطر بباله انه فر بها .

وكان بين الاسرى كثيرون من العرب والفرس وأبناء الدهاقين ، فأمر بهم فجعلوا في حظيرة كبيرة وأمرهم ان يكتبوا الى اوليائهم فكان كل من جاء وعرف امرأه او صبيها او جارية وأشهد شاهدين اخذه . فأخذ الناس منهم خلقا كثيرا .

وكتب الافشين الى ملوك ارمينيا وبطارقتهم بأن بابك هرب ، وأمرهم بحفظ نواحيهم ومراقبة طرقة ، وندم على تفريطه في ضرغام وهو يظنه قتل لان بعض الفراغة الذين كانوا معه أخبروه انه أخذ اسيرا او مات لانهم رأوه محمولا بين حي وميت ولم يجدوه بين القتلى .

وفي اليوم التالي عاد ضرغام مع وردان الى معسكر المسلمين فرحب به الافشين وهناك بالسلامة وأطرى ما سعه عن بسالته ليلة الهجوم وبانغ في الاطراء حتى يبعد عنه مظنة السوء . واختصه بالشورى في الشؤون الهامة وأهمها يومئذ فرار بابك . وأخبره بما فعله في سبيل القبض عليه . فقال ضرغام : «ان خادمي وردان أرمني الاصل والوطن ، وهو يعرف هذه البلاد فاستخدمه لهذا الغرض . واذا شئت اتيتك به الساعة » .

قال : «افعل» • فنأدى غلاما أمره أن يستقدم وردان ، وكان خارج القسطنطينية ، فلما دخل حياى ووقف فقال له الافشين : «أعرف طرق أرمينيا ومسالكتها يا وردان ؟»

قال : «نعم يا سيدي» •

قال : «أين تظن الخرمي يختبئ والى من يلتجئ ؟»

قال : «لا أعلمه يلتجئ الى بلد لأن أهل أرمينيا يكرهونه ويريدون قتله ، ولكنني أحسبه يختبئ في بعض الغابات أو الأودية وأشهرها الوادي الأكبر المسمى الغيضة ، وهو كثير العشب والشجر بين أذربيجان وأرمينيا لا يمكن الخيل نزوله ، ولا يرى من يخفي فيه لكثرة شجره» • فاستفاد الافشين من هذه المعلومات ، وبعث جواسيسه للبحث في تلك الغيضة فعادوا اليه وأكدوا له اختباء بابك هناك • وكان الافشين قد بعث الى المعتصم ليستكنبه كتاب أمان لبابك • فلما جاء كتاب الأمان دعا الافشين بعض الذين أمنهم من أصحاب بابك وأعلمهم بذلك وأمرهم أن يسيروا اليه بالكتاب وفيهم ابنه ، فلم يجسر أحد منهم خوفا منه • فقال : «انه يفرح بهذا الأمان» • فقالوا : «نحن أعرف به منك» • فقام رجلان فقالا : «أضمن لنا رزق عيالنا اذا هلكنا ونحن نذهب اليه» • فضمن لهما ذلك ، فسارا بالكتاب حتى أتياه وأعلماه بما قدما فيه ، فقتل أحدهما وأمر الآخر أن يعود بالكتاب الى الافشين • وكان ابنه قد كتب اليه معهما كتابا فقال لذلك الرجل : «أبلغ ابن الفاعلة انه لو كان ابني للحق بي ، ولكنه ليس ابني ولأن تعيش يوما واحدا رئيسا خير من أن تعيش أربعين سنة عبدا ذليلا» • وقعد في موضعه • فلم يزل في تلك الغيضة حتى فني زاده وخرج من بعض تلك الطرق ، ومعه بعض رجاله ، فلم يجد أحدا من الجند الذين أرسلهم الافشين لمحاصرته ، وظن بابك أن القوم يئسوا من القبض عليه فرحلوا • فسار هو وعبد الله أخوه ، وأمه

وامرأة اخرى ، يريدون ارمينيا ، فرآهم بعض الحراس فأرسلوا السي
الجند المكلف بتعقبه . وكان ابو الساج هو المقدم عليهم ، فلحق بهم وقد
نزلوا على ماء يتغذون . فلما رأى بابك العساكر ركب هو ومن معه فنجأ
وأخذ ابو الساج أم بابك والمرأة الاخرى فأرسلهما الى الافشين ، وسار
بابك في جبال ارمينيا مستخفيا ، وكان بطارقة ارمينيا يراقبون سبله
فاحتال بعضهم حتى خدعه وأدخله حصنه ، وأرسل الى الافشين يعلمه
بذلك ، فبعث لافشين يعده ويمنيه وهو يأبى الاستسلام . ثم احتال
صاحب الحصن عليه حتى أخرجه بحجة الصيد وأنبأ الافشين بخروجه
فتمكنوا من القبض عليه ومعه اخوه عبد الله وحملوهما الى الافشين .
فلما قرب بابك من المعسكر صعد الافشين وجلس ينظر اليه ، وصف
عسكره صفين ، وأمر بانزال بابك من فوق دابته فنزل ومشى بين
الصفين فأدخله بيتا في برزند ، ووكل به من يحفظه وأنعم على الذين
أسلموه وكتب الى المعتصم بذلك . فأمره بالقدوم اليه به وبأخيه ،
فاتقل بهما في جنده وحاشيته من برزند الى سامرا (سنة ٦٢٣ هـ) .
وكان المعتصم يوجه الى الافشين في كل يوم رسولا يحمل اليه خلعة
وفرسا ، فلما صار الافشين بقناطر حذيفة تلقاه هرون الواصل بن المعتصم .
وأنزل الافشين بابك عنده في قصره بالمطيرة فأثاء احمد بن داؤد متكررا ،
فنظر الى بابك وكلمه ورجع الى المعتصم فوصفه له فأثاء المعتصم ايضا
متكررا فرآه . فلما كان الغد قعد المعتصم واصطف الناس من باب العامة
الى المطيرة ، فشهره المعتصم وأمر ان يركب على الفيل فركب عليه
واستشرفه الناس الى باب العامة . فقال محمد بن عبد الملك الزيات :

قد خضب الفيل كعادته يحمل شيطان خراسان
والفيل لا تخضب اعضاؤه الا لذي شأن من الشأن

ثم أدخل بابك دار المعتصم فأمر باحضار سياف بابك فحضر ، فأمره المعتصم ان يقطع يديه ورجليه فقطعهما ، فسقط فأمره بذبحه ففعل .
وشق بطنه وأنفذ رأسه الى خراسان ، وصلب بدنه بسامرا . وأمر بحمل أخيه عبد الله الى اسحق بن ابراهيم ببغداد ، وأمره ان يفعل به ما فعل هو بأخيه بابك ففعل وضرب عنقه وصلبـه في الجانب الشرقي بين الجسرين . وكان ذلك آخر العهد بالخرمية .

وكان ضرغام ووردان في جملة الذين رجعوا مع حملة الافشين وشاهدا قتل بابك فاشتفيا بقتله ، وود ضرغام لو انه قتله بيده فسي المعركة . وحال وصولهم الى سامرا سار ضرغام الى منزله وقبل يد امه وسلم على يافوثة وبشرها بلقاء حماد . فلم نعد تعرف كيف شكره . ثم أخبر امه بطرف مر خبر جهان وبأنها ذهبت الى بلاد الروم وان حمادا ابي الا ان يبحث عنها بنفسه . قال ذلك ويافوثة حاضرة ونظر اليها وابتسم وقال : « اظن هذا الخبر يسوؤك . ولكنه ابي الا الذهاب » .

فتوردت وجنتاها خجلا وأطرقت وقالت : « مهما تفعل فانا لا نفي ببعض فضلك ، فقد انقذتني من القتل والعار وكفلتني » .
فقطع كلامها قائلا : « لم آقم الا ببعض ما وجب ضبقا لاشارة امير المؤمنين فنحن عبيده وعلينا طاعته » .

ورأى ضرغام في وجه يافوثة تغيرا وفي عينيها ارتباكا كأنها نهم بشيء يمنعها الحياء من ذكره فسألها عما بها فقالت : « أذكرني تفانيك في نصره امير المؤمنين شيئا لحظته خلال اقامتي بيت الحارث السرقندي ، وأخشى منه على حياة امير المؤمنين . فقد فهمت ان هناك قوما يتآمرون على حياته » .

فلم يشأ ضرغام ان يعير الامر اهتماما فقال : « انا لا نحفل بما يكيد به بعض الخونة لامير المؤمنين فمعظم ما يأترون به لا يترك اثرا ،

وسببه على الغالب جهل بعض اهل الخليفة الاقرين فيزين لهم ذوو المطامع من الوزراء او القواد ان يسعوا الى الخلافة ليستفيدوا هم من اتقالها من يد الى يد ، وهذا العباس ابن المأمون قد حسن له بعضهم ان يطالب بالخلافة لنفسه ولا ينالها الا اذا قتل المعتصم فهم يتآمرون ويتواطأون على قتله ولكنهم لا يفلحون ، وسيرد كيدهم الى نحورهم» •

فلما سمعته أمه أشرق وجهها وابتمت وقالت : «بورك فيك يا بني هكذا الامانة وهكذا الرجال» •

ثم لبس سواده وذهب للسلام على المعتصم وعنده الافشين وغيره من كبار القواد ، فلما دخل عليه هش له وقال : «مرحبا بالصاحب البطل الهام • بلغنا ما كان من بلائك في الاعداء وما أبدينه من البسالة والهمه بورك فيك • ألا تزال ترى لقب صاحب كثيرا عليك ؟» • وأشار اليه بالجلوس قريبا منه •

فأطرق خجلا وقال : «ان العبد لا يستأهل اجرا اذا قام بخدمة مولاه ، ويكفيه رضاه عنه» •

فالتفت الخليفة الى الافشين فقال هذا : «يندر يا امير المؤمنين ان نرى مثل صاحب في الشجاعة وصدق الخدمة» • وأخذ يطري اعماله يريد ان يسحو ما يخشى ان يكون قد خامره من اساءة الظن به • وعاد الخيفة نفسه الى الثناء عليه ، وأمر له بالهدايا والخلع • ولما انفض المجلس عاد ضرغام الى منزله وعادت اليه هواجسه في شأن جهان • ولبت في انتظار ما يأتيه من حماد ، فكان يقضي اكثر ايامه مع وردان ينحادثان فيما عسى ان يكون من امر جهان وهيلانة •

وشاع في هذه السنة في سامرا ان (تيوفيل) ملك الروم خرج الى بلاد الاسلام • وسمع بذلك ضرغام • فأرسل الى صديقه وردان فجاء ، فأخذا في قلبب الرأي فيما هو حادث وما قد يحدث ، فقال له وردان:

«اني ارى فتح البذ سبب خروج الروم لقتال المسلمين ، فقد أنبأني بعضهم ان بابك لما ضيق عليه الافشين وأشرف على الهلاك كتب الى ملك الروم بأن جنود المسلمين مشغولون به ، فالفرصة سانحة امامه لاكتساح مملكة الاسلام ، وربما كان لجهاز يد في هذا التوجيه» .

قال : «تحدثني نفسي انها مع هيلانة هناك» .

قال : «لو كاتنا هناك لجاءنا الخبر من حماد فانه يبحث عنهما حيث

يكون ملك الروم . ولا بد من الصبر» .

قضى ضرغام في ذلك اياما على مثل الجمر حتى جاءه وردان ذات يوم مهرولا ، وأوماً اليه ان يتبعه فتبعه حتى انفردا في بعض جوانب الحديقة ، ثم دفع اليه اسطوانة ملفوفة بمنديل من الحرير فحل المنديل وفتح الاسطوانة فرأى فيها كتابا من الكاغد قرأ في صدره اسم حماد فخفق قلبه ، وأخذ يتلوه وهذا نصه :

«من حماد في عمورية الى صاحب ضرغام في سامر .

«لقد طال سكوتي عليك وأظنك مللت الانتظار ولكني مكره على

هذا فاني قضيت اشهرا أبحث على غير هدي الى ان بلغني ان يوفيل ملك الروم قادم على (زبطرا) فهممت بأن ألقاه هناك لعلني اجد ضالطنا ، فما كدت أبلغ البلد حتى علمت ان الروم اكتسحوه وخرّبوه وسبوا النساء والاطفال . ثم اغاروا على (ملطية) وغيرها من حصون المسلمين وسبوا المسلمين ومثلوا بمن أخذوا من المسلمين فسلموا أعينهم وقطعوا أنوفهم وآذانهم ، وقد شاهدت بعض اولئك المجدوعين ورأيت الناس قد خرجوا من بلادهم في الشام والجزيرة فرارا من وجه الروم الا من لم يكن له سلاح او دابة . فلما رأيت ذلك عدلت عن الذهاب الى (زبطرا) وتذكرت ان (ناطس) بطريق عمورية كان قد زار البذ في عهد بابك وعرف جهازه ولعلها ذهبت اليه . وقد صدق حدسي لاني علمت عندما دخلت عمورية

ان جهان وهيلانة جاءتا رأسا من البذ للسعي في حمل البطريق ناطس على ان يتوسط لدى ملك الروم في نجدة بابك ، فأنزلهما ناطس في قصره ووعدهما خيرا ، ثم جاء الخبر بسقوط البذ وقتل بابك ، فلم يبق لهما مأرب في أرمينيا كلها فبقيتا في عمورية . وقد حرص عليهما هذا البطريق حرصا شديدا ولاسيما جهان ، وضيق عليهما فلا يسمح لهما بالخروج . ولعل جهان رضيت بالاسر عن طيب خاطر اذ يئست من لقاءك . وقد حاولت الاتصال بها لأطلعها على حالك وأبشرها بقرب لقاءك فلم ييسر لي ، لان القوم هنا شديدا الحذر من المسلمين ، واذا اساءوا الظن بأحد منهم قتلوه ومثلوا به كما فعلوا بأهل (زبطرة) . فجهاز وهيلانة مسجوتان الا في قصر (ناطس) بطريق عمورية ، وسأبذل جهدي فسي ابلاغ خبرك اليهما وان كنت لا أتوقع نجاحا عاجلا .

«وقد علمت ان الروم ينوون اكتساح مملكة الاسلام ، فالذي اراه ان يسبقهم المسلمون ويكتسحوا بلادهم ، وهذه عمورية التي تعد أمنع حصونهم لا اراها تمتنع على المسلمين لعلمي بمواضع الضعف فسي أسوارها ، ولا اخالك بعد كتابي هذا الا محرضا صاحبك على فتحها ، فاذا فعلت فاجعل رايتك قطعتين مستطيلتين حتى أعرفها اذا نزل معسكرهم امام عمورية وأعرف مكانك والسلام» .

وما فرغ ضرغام من قراءة الكتاب حتى تصبب العرق من جبينه وهاجت أشجانه وثارت عواطفه ، ودفع الكتاب الى وردان فقرأه وقال: «ارى ان قد تحتم المبادرة الى العمل ، ولا بد من ذهابي الى عمورية» . قال : «لا فائدة من ذهابك فان المرأتين في اسار أضيق مما قرأه في هذا الكتاب ، وقد اراد صديقنا حساد تخفيف الخبر . ألم تقرأ قوله : (ان ناطس حرص عليهما حرصا شديدا ولاسيما جهان) . انه يعني ان هذا البطريق أحب جهان فاستبقاها لنفسه ، فلا تجدي الحيلة في انقاذها منه

ولا بد من القوة • وقد اشار حماد الى ذلك تلميحا في أواخر كتابه •
فقال وردان : «اذا كان لا بد من الحرب فلا يثيرها سواك بما لك من
المنزلة عند الخليفة » • فنهض ضرغام لساعته تاركا وردان في مكانه
ومضى الى داره فلبس سواده والقلنسوة وخرج يقصد دار الخليفة
فاستأذن فقال له الحاجب : «ان امير المؤمنين في خلوة مع القاضي
احمد» • فقال : «استأذن لي ايضا» •

فلما أذن له دخل وسلم ، فرأى القاضي احمد جالسا بجانب سرير
المعتصم والاهتمام باد في وجهيهما • فلما دخل ضرغام رحب به الخليفة
قائلا : «جاءنا الصاحب في ابان الحاجة اليه فقد كنت عازما على دعوتك» •
وأشار اليه بالجلوس •

فجلس وقال : «ان نفسي حدثتني بأن هناك ما يدعو الى مجيئي ،
لاني لا افتأ أفكر في مولاي ، أشاركه آماله فتتلافى خواطرنا» •
فقال القاضي : «بلغني رضاء امير المؤمنين بما أبديته من البسالة في
فتح البذ ، وقد سرتني صدق توسلي فيك فأصبحت ذا منزلة لدى مولانا
يعول على رأيك وسيفك» •

فأطرق ضرغام تأدبا ولم يجب • فأتى الخليفة الحديث قائلا : «جاءنا
البريد من بلاد الروم بأن تيوفيل اللعين نزل (زبطرا) و(ملطية) وأساء الى
اهلهما وارتكب فيهما كل قبيح مما لم يألف المسلمون مثله» • ففسأ
ضرغام . «هل يطلب امير المؤمنين رأيي ؟» • قال : «نعم» •
قال : «لا رأي لي غير السيف كما عودهم الرشيد من قبل • فاحمل
عليهم ودوخهم واكتسح بلادهم • ان الاسلام لا يصبر على ما فعله
تيوفيل من سمل العيون وجدع الانوف وسبي النساء • جرد يا امير
المؤمنين جندك فيعودون من ظفر الى ظفر آخر وأنا عبدك اول المتطوعين
في هذه الحرب • واذا صبر امير المؤمنين على سمل عيون المسلمين فلا

أخاله يصبر على سبي المسلمين !» • وكان ضرغام يتكلم وعيناه تقدران شرا وشفته ترتجفان وأحس انه بالغ في الجرأة بين يدي الخليفة ، ولكنه لم ينتبه الا بعد ان فرغ من كلامه • ورفع بصره الى المعتصم فرآه وقد تغير وأبرقت عيناه وخالطهما احمرار من الغضب • واضطرب في مجلسه وثبت بصره في ضرغام وهو يتكلم فهاجت حماسته وأصبح كالاسد في بطشه وسلطانه • فخاف ضرغام ان يكون قد أغضب المعتصم بجرأته ، فأراد ان يستأنف الكلام للاعتذار فقطع القاضي احمد كلامه قائلا : «لقد نبهت حمية امير المؤمنين الى مصلحة المسلمين وما هو بغافل عنها ، وانه ليسر ان يرى ذلك في رجاله وأبطاله» •

فقال المعتصم : «ان صاحب تكلم بلساني وعبر عن جنائي • وسأمر الافشين والقواد الآخرين بالتأهب للحرب بعد ان أستخير الله فيها • انها جهاد في سبيل الاسلام» • ثم قال : «موعدنا غدا ان شاء الله» • فانصرف القاضي وضرغام •

مشى ضرغام الى منزله وقد هاجت عواطفه ، وكان وردان فسي انتظاره فقص عليه ما جرى فسرر الامر ولكنه خاف ان تأول تلك الاستخارة الى العدول عن القتال • وفي الصباح التالي جاء غلام الخليفة مبكرا في طلب صاحب • فضى حتى دخل على الخليفة فرآه في بهو خاص لا يجلس فيه للناس وهو بتوب النوم وقد التف بمطرف • وأنس في وجهه انقباضا • فأوجس خيفة ولكن المعتصم أمره بالجلوس فجلس فقال له الخليفة : «أتدري لماذا دعوتك وأدخلتك علي وأنا فسي هذه الحال ؟» • قال : «كلا يا مولاي» •

قال : «نهضت من فراشي منذ هنية بعد ان استيقظت منزعجا مضطربا» • قال : «خيرا ان شاء الله» •

قال : «صليت العشاء امس وتوسلت الى الله ان يلهمني ما فيه خير

المسلمين من امر الروم ، ثم نمت فرأيت في رؤياي ما أطار صوابسي وأذهب رشدي» .

نظل ضرغام مصفيا يتناول بعنقه . فمسح المعتصم لحيته وشاربيه وأصلح عمامته الصغيرة على رأسه وقال : «قلت اني رأيت ، والحقيقة اني لم أر شيئا ولكني سمعت صوتا اخترق أعماق قلبي . سمعت امرأة هاشمية اسيرة في بلاد الروم تصيح : (وامعتصماه) . فأجبتها : (لييك) واستيقظت وقد علمت ان الله يأمرني بالجهاد وأن اكون على رأس المجاهدين فخذ أهبتك للسفر وسأمر فوادي يتأهبوا . هل أثق بجندي؟» فتذكر ضرغام ما كان يديه من الارتباب في اخلاص الافشين فقال: «لا سبيل الى تحقق ذلك ، وقد علم امير المؤمنين انهم انما يحاربون في سبيل حطام الدنيا ، وقد فتحوا البلد وقضوا على الخرمية وسيفعلون ذلك بالروم» .

فقال المعتصم : «يخيل الي انهم لولا ذهابك لم يفتحوه الا بعد أعوام» .

فخجل من الاطراء وقال : «اذا كان لامير المؤمنين ثقة بعبده فليجعلني في هذه الحملة ولا يخشى غدرا باذن الله» .

قال : «وما رأيك في البلد الذي تقصده من بلاد الروم؟» قال : «ان الصوت الذي سمعته يا امير المؤمنين خرج من عمورية وهي من اكبر مدائن الروم وعين النصرانية وفي فتحها نفع للمسلمين» . قال : «احسنت» . وتحفز للنهوض فخرج ضرغام مسرعا الى وردان يشره وأخذ في الاستعداد .

فتح عمورية

أعد المعتصم جنده للقتال ، وجلس في دار العامة ، وأحضر قاضي بغداد ومعه ٣٢٨ رجلا من اهل العدالة فأشهدهم على ما وقفه من الضياع ، جاعلا ثلثه لله ، وثلثه لولده ، وثلثه لمواليه . ثم تجهز الى عمورية بالسلاح والعدد والآلات وحياض الماء والروايا وغير ذلك ، وجرد جيشا عظيما بلغ تسعمائة الف مقاتل ، عليه من الفواد الافشين واشناس وغيرهما . وخرج المعتصم نفسه على دابته وخلفه حقيقه فيها زاد تشبها بالمجاهدين في صدر الاسلام .

وفرق جنوده في جهات مخلفة من بلاد الروم حتى النقوا قرب انقرء وعزموا على المسير الى عمورية . فأمر المعتصم بنعبئة الجند فجعله ثلاثة معسكرات احدهما في الميسرة وعليه اشناس التركي ، والثاني فسي الوسط وفيه المعتصم نفسه ، والآخر في الميسنة وقائده الافشين . وجعل بين كل معسكر ومعسكر فرسخين . وأمر بأن يكون كل معسكر ميسنة وميسرة ، وبأن يحرقوا ما يصادفهم من القرى ويخربوها ويأخذوا من فيها . ثم ترجع كل طائفة الى موضعها فيما بين أنقرة وعمورية وبينهما سبع مراحل . ففعلوا ذلك حتى وافوا عمورية وكان اول من أتاها اشناس ثم المعتصم ثم الافشين . فداروا حولها وقسمها المعتصم بين القواد وجعل لكل واحد منهم أبراجا منها على قدر اصحابه .

وكان ضرغام في معسكر المعتصم ، والمعتصم يقربه ويكرمه . وكان في حاشيته ايضا الحارث السمرقندي وقد اخذ الجسد منه مأخذا عظيما لما شاهده من منزلة ضرغام عند الخليفة ، وضرغام لا يكثرث وانما همه

ان يوفق الى انقاذ جهان ، وكذلك كان وردان يتوق الى لقاء هيلانة .
وحيثما حطا رحالهما هناك ، صعدا الى راية أطلا منها على عمورية
فرأياها مدينة كثيرة الابنية واسعة الأرجاء حولها سور عال عليه الابراج
الضخمة وله الابواب المتينة ، ورأيا بين الابنية قصرا تخفق عليه الرايات،
فعلم ضرغام انه قصر البطريق وان جهان فيه ، فتنهد ونظر الى وردان فرآه
مطرقا فسأله : «أليس هذا قصر البطريق ؟» . قال : «بلى ، هذا هو
بعينه » .

قال : «اذا صح قول حماد فان جهان وهيلانة مجبوستان فيه ، وأرى
المدينة حصينة ، ولكنها لا تمتنع علينا باذن الله . هل أعددت الراية
المزدوجة التي أوصانا حماد بها ؟»

قال : «نعم أعددتها ولكن كيف السبيل الى نشرها ونحن في معسكر
المعتصم تحت رايته» .

قال : «نشرها في مكان منعزل عسى حماد ان يكون في انتظار
رؤيتها كما ذكر في كتابه» .

قال : «غدا اقف بها على هذه الراية نحو ساعة لنرى ما يكون» .
وعاد الى المعسكر .

وفي اليوم التالي عقد المعتصم مجلسا حضره القواد ورجال خاصته
وفيهم الصاحب والحارث السمرقندي ، وأخذوا في وضع خطة القتال .
ولما أذن المؤذن لصلاة الظهر تفرقوا ودخل الخليفة فسطاطه وأشار الى
الصاحب ان يأتيه صباح الغد ، فرجع الى فسطاطه فرأى وردان فسي
انتظاره وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما فسأله عن الراية فقال :
«وضعتها على الراية» .

فقال : «كيف تركتها ومالي اراك متجها ؟»

قال : «تركناها لأمر أهم منها» . قال : «وما ذلك ؟»

قال : «رأيت سامان اللعين في معسكر الافشين مقربا منه ملحوظ
المنزلة فلم أستطع الصبر على رؤيته وحدثتني نفسي ان أبطش به» .
قال : «لا تفعل اننا في موقف يقتضينا جمع الكلمة » فاذا رفعت يدك
على سامان أغضبت الافشين فتوقف الفتنة في الجيش ، فترك سامان الى
وقت آخر ، وامض الى الراية وراقب الاسوار وامكث هناك ليل» .

فمضى وردان لشأنه ، وما خلا ضرغام الى نفسه حتى اخذ يفكر في
حاله منتقلا بخیاله من جهان الى أمه الى حماد الى الافشين حتى اخذه
النعاس فنام واستيقظ على صوت وردان يناديه ، ففتح عينيه فاذا هو في
المساء وقد أظلمت الدنيا فظن ان وردان جاء يبشره بلقاء حماد فقال :
«هل اتى حماد ؟» قال : «كلا» .

قال : «وكيف عدت وتركت الراية ؟»
قال : «تركته لأمر لم أستطع كتمانته الى الغد ، ولا بد من ان تعلمه
قبل ان تذهب في الصباح الى المعتصم» .
قال : «وما هو قله بكلمتين والا فدعني أرافقك الى الراية أساهرك
وتقصه علي هناك» .

قال : «ليس حديثي طويلا لكنك اذا صحبتني الى الراية كان هذا
أجدي» .

فنهض ضرغام ولبس ثيابا لا تميزه عن سواه من الجند وخرج مع
وردان ، وكانت الراية واقعة بين معسكر المعتصم وبين معسكر اشناس ،
فمرا بكثير من الفساطيط بين مضيء ومظلم ، فقال ضرغام : «اراك تسير
بي في غير الطريق المستقيم» .

فقال : «أريد ان أريك شيئا طريفا . هل تعرف هذا الفسطاط الذي
يسارنا ؟»

قال : «أعرفه ، هو فسطاط العباس بن المأمون . مالنا وله ؟»

قال : «اكتشفت سرا لو عرفه المعتصم لقلب المعسكر رأسا على عقب!»

قال : «ما هو؟»

قال : «لما عدت من عندك هذا النهار ، مررت من هنا فرأيت الحارث السمرقندي خارجا من هذا الفسطاط وقد خف العباس لوداعه وبالغ في اكرامه ، فقلت في نفسي : (لأمر ما هذا الاكرام ؟) . وأنا أعلم ان السمرقندي ناظم على المعتصم لاخذه ياقوتة منه ، ولما رآه من تقديمه اياك . ولا يخفى عليك ما في نفس العباس بن المأمون على المعتصم لانه اخذ الخلافة منه ، وكان بعض القواد يريدونها له ، ولكنه جبن عن طلبه البيعة فنالها المعتصم . وقد سمعت وأنا في سامرا ان الحارث السمرقندي كان من الساعين في خلع المعتصم ومبايعة العباس ، لكنهم تهيؤوا الاقدام على هذا الامر خوفا من الجند ، فلما رأيت الحارث خارجا من فسطاط العباس اليوم جدتني نفسي بأمر ذي بال بينهما» .

وكان وردان يقص حديثه همسا حتى وصلا الى الخيمة المنصوبة على الراية والليل مظلم ، فرأى ضرغام رجلا نائما عند باب الخيمة وله شخير كخوار الثور وشم رائحة الخمر فقال : «من هذا ؟» كأنني أشم رائحة الخمر !

قال : «هذا فاقل السر الي ، وهو من عبيد الحارث عرفته في سامرا فاحتلت في دعوته الي وسقيته خمرًا حتى سكر وقص علي الحديث الغريب الذي سأقصه عليك ، فهل تدخل الخيمة ام أتم الحديث خارجها . اني والحق يقال لا ارى لحراسة الراية في هذه الظلمة فائدة لان الظلام يحول دون رؤيتها على عشر أذرع فكيف من عمورية ؟»

قال : «صدقت ليس القصد ان يراها حماد من هناك ليلا ، ولكنه قد يراها ساعة الغروب ويحتال في الخروج بعد قليل فلا يراها او ربما وقع بصره عليها في صباح الغد فيأتي وأنت لا تزال عندها . اقصص علينا ما

سمعتة من العبد» •

فمشى وردان الى صخرة على بضع أذرع من الراية وضرغام يتبعه ، فجلسا وأخذ يقص عليه فقال : «أخبرني العبد ان سيده الحارث اتفق مع العباس على ان يكون رسوله الى القواد في هذا المعسكر ، وبعضهم تحت قيادة الافشين وبعضهم من رجال اشناس وآخرون من جند المعتصم • ليأخذ البيعة له منهم فأخذ يدور بالمعسكرات الثلاثة حتى بايعه نفر من القواد وفيهم جماعة من خاصة المعتصم ، وقال لكل من بايعه : (اذا أظهرنا من امرنا فليشب كل منكم على الامير الذي هو معه ويقتله • فوكل من بايعه من خاصة المعتصم ان يشبوا في الأجل المضروب على المعتصم ويقتلوه ، ومن بايعوه من خاصة الافشين ان يشبوا على الافشين ويقتلوه ، ومن بايعوه من خاصة اشناس ان يقتلوه • وهكذا» •

وكان ضرغام يسمع كلام وردان مطرقا يهز رأسه استغرابا ويقول : «قبحهم الله من خونة مارقين» •

فقال وردان : «اني ارى العباس أعقلهم جميعا فقد فهمت من محدثي انه لم يوافقهم على تنفيذ المكيدة الان خوفا من تضييع الفتح ، فأحببت ان أطلعك على ما سمعتة وأنت ذاهب غدا الى الخليفة فتنقله اليه اذا شئت » •

قال : «كلا يا وردان • لا ينبغي ان يعلم الخليفة ذلك والا فانتا نجر على المسلمين ما تتحاشاه من الفتنة ، ولكننا نكتمه الى حينه ، ولا سيما انهم أجلوا تنفيذه • ويكفي ان نسهر على حياة امير المؤمنين» • فأعجب وردان بأريحية ضرغام وقال : «بورك فيك يا بطل • هذا هو الرأي الصواب» •

قال ضرغام : «ولكنك اخطأت اذ أبقيت العبد هنا فاذا صحا عرف المكان وربما وشى بك ، والاحسن ألا يعرفه فانقله الان وهو بين السكر

والنوم وأنا أمكث هنا حتى تعود» •

قال : «أصبت» • ونهض وأخذ في إيقاظ العبد وهو لا يصحو فجعل يوقفه أو يقوده أو يجره حتى بعد به عن فسطاطه واقترب من فسطاط العباس فألقاه هناك ورجع ، وكان الليل قد اتصف ونام من فسي المعسكر •

فلما عاد الى ضرغام قال له هذا : «انا ذاهب الى خيئتي فامكث هنا حتى الصباح» • قال : «سمعا وطاعة» •

اتجه ضرغام نحو فسطاطه وهو غارق في تفكيره ، وقبل ان يصل اليه سمع لفظا بينه وبين السور ، فالتفت فرأى جساعة من حراس المعسكر يقودون رجلا أمسكوا بخناقه وهو يقول : «خذوني الى صاحب» •

فلما سمع صوته أجفل لانه صوت حماد فأسرع الى فسطاطه ولبث في انتظار وصولهم وبعد قليل دخل احدهم وقال : «اخذنا جاسوسا دخل المعسكر من جهة المدينة وزعم انه قادم اليك» • قال : «ادخلوه» • فدخل فتبينه فاذا هو حماد بعينه فقال : «دعوه» • فتركوه ورجعوا فلما خلا اليه حياه ورحب به وأجلسه بجانبه وسأله عن جهان فقال : «لا تزال عند البطريق» •

قال : «ألم تنقل خبرنا اليها؟»

قال : «كلا • لم أستطع الظهور قط ، ولما رأيت جندكم بالامس تطلعت الى الاعلام فلم أر الراية المزدوجة الا هذا المساء ، ولم أستطع الخروج الا الان بحيلة شيطانية فتهت عنها ، ولما اخذني الحراس طلبت اليهم ان يحملوني اليك كما ترى» •

قال : «اهلا وسهلا • فجهازان لا تزال في قصر ناطس؟»

قال : «نعم وهيلانة معها ، والرجل شديد الحرص عليهما ولا تغضب فانك ظافر بما تريد عن قريب» •

قال : «وكيف ذلك ؟» اني ارى الاسوار منيعة وسيطول الحصار على ما ارى » •

قال : «سأجعله قصرا باذن الله» •

قال : «هل تعرف مدخلا سهلا ؟»

فضحك وقال: «نعم أعرف مدخلا يسهل الفتح؛ هل أدلك عليه الان؟»

قال : «اني مبكر غدا الى الخليفة ، وسأطلعه على ما عندك من أخبار العدو ونجعل ذلك ذريعة لرضائه عنك فيغفر لك ما مضى» • قال : « حسنا » •

فقال ضرغام : «أظنك في حاجة الى الراحة • هذا فراش نم عليه وأنا انام هنا ونذهب في الصباح معا» •

وأصبحا في الغد وقصدا الى فسطاط المعتصم فاستأذن ضرغام عليه فدخل واستبقى حمادا خارجا ، فرحب به الخليفة وقربه ولحظ ضرغام في وجه المعتصم تعجبا ، فتهيب وسكت فقال المعتصم : «أتدري لماذا دعوتك يا صاحب ؟»

قال : «ليس لي علم الغيب يا مولاي» •

فتنهذ المعتصم وقال : «كنت وأنا في سامرا أستأنس بالقاضي احمد وأطلعه على سري ، اما الان فأراني في حاجة الى مشاورتك بعد ان خبرت صدق نيتك» •

قال : «اني عبد مخلص لمولاي» •

قال : «أتذكر اني شكوت اليك ارتيابي في الافشين ؟» • قال : «نعم يا مولاي» •

قال : «كنت أستعظم ما رأيته من جشعه ، ولكنني اصبحت الان لا أعد طمعه شيئا مذكورا بجانب ما اراه في هذا المعسكر من الدسائس هل عرفت شيئا من ذلك ؟»

قال : «لم أفهم مراد مولاي» • وقد فهمه لكنه تغابي •

قال : «بلغني ان قوما أجمعوا امرهم على نقل البيعة الى العباس ابن اخي ويريدون قتلي» • قال ذلك وعيناه تقدحان شررا من الغيظ •

فرأى ضرغام من الحكمة ان يخفف عنه فقال : «لا أعرف شيئا من ذلك وان كنت لا أستبعده لان الخلافة ما برحت من عهد الراشدين مملّح أنظار الطامعين ، وهب ان بعضهم تحدثه نفسه بذلك ، فانه صائر الى الفشل المحقق ، وانما نحن الان أحوج الى جمع كلمتنا لنتمكن من أعدائنا المحدثين بنا • فهل أدل مولاي على ما يذهب عنه الغضب» •

فانبسطت أسرة المعتصم وقال : «ما وراءك؟»

قال : «أتيت امير المؤمنين برجل خرج الينا في مساء الامس من عمورية ، وهو يعرف مداخلها ومخارجها • هل أدخله على مولاي؟» •

قال : «يدخل» •

فنهض ضرغام ونادى حمادا فدخل ووقف وألقى التحية ، فلما رآه الخليفة عرفه • فعبس ولكنه اشار اليه بالجلوس ، فجلس جاثيا فنظر المعتصم الى ضرغام وقال : «كأنني ارى حمادا العربي بين يدي؟»

قال : «نعم هو عبد امير المؤمنين» • وقد يكون سبق منه ذنب فعفو مولانا اوسع» •

قال : «ما الذي جاءنا به؟»

فقال حماد : «قضي علي ان أدخل هذه المدينة منذ بضعة اسابيع فعرفت حصونها ومعقلها ، ولما رأيت جند امير المؤمنين بالامس بذلت جهدي ففررت وأتيت» •

قال : «وماذا تستطيعه في خدمتنا؟»

قال : «أدل امير المؤمنين على عورات البلد فيسهل عليه فتحها • ان لهذه المدينة سورا منيعا ، وحدث ان سيلا جرف جزءا منه ، فكتب الملك

الى عامله ليعيد بناءه فتوانى فلما خرج الملك من القسطنطينية خاف العامل ان يأتي عمورية ويرى السور خرابا فبنى وجهه حجرا وعمل الشرف على جسر من خشب واذا شاء مولاي دلته عليه من هنا» •
فنهض الخليفة وقال : «أرنيه» •

فدله على مكانه من بعيد ، فلما رآه اثنى عليه وقال : «اذا صدقت فيما تقول فلك الجزاء الحسن» •
فقال ضرغام : «انا أضمن صدقه يا مولاي ، فهل يأمر امير المؤمنين بنعجيل الجزاء» •

قال : «نعجله اكراما لك ، ما جزاؤه ؟»
قال : «انه لا يطلب مالا وانما تأذن له بجارتك يا قوتة فيتزوجها» •
فقال : «ياقوتة زوجتك ؟»

فوجم ضرغام ثم قال : «نعم ياقوتة التي امر امير المؤمنين ان تكون زوجة لي فجرئت على حلم مولاي ولم أتزوجها لعلمي انها مخطوبة لصديقي هذا ، فحفظتها عندي أمانة له ، فاذا شاء امير المؤمنين ان يغمرنا بنعمه عفا عنا وأذن ان نكون ياقوتة زوجة لحماة بعد رجوعنا من القتال ظافرين باذن الله» •

فأعجب الخليفة بأريحية ضرغام وكرم اخلافه وابتسم له وقال : «قد عفونا عنكما • وأحب ان يكون حماد من خاصتي وسأعقد عليه النعم» •
فشكر كلاهما فضله عليهما فقال : «هلم بنا الى العمل» • وأمر ان ينقل فسطاطه امام السور المتخرب ونصب المجانيق عليه فتخرب فجعل الروم بدلها أعوادا كل عود بجانب الاخر فكان المنجنيق يكسر الخشب فجعلوا عليه البرازخ ، فلما ألحت المجانيق على ذلك الموضع تصدع السور وألح المعتصم بالحصار وكان حول السور خندق عميق لا يمكن تجاوزه ولولاه لأخذت المدينة • فأشار ضرغام على الخليفة ان يطمسه

بجلود الغنم المملوءة ترابا ففعل ، وعمل دبابات كبيرة تسع الواحدة عشرة رجال ليذحرجوها على الجلود الى السور فدحرجوا واحدة منها فامسا صارت في نصف الخندق تعلقت بتلك الجلود فما تخلص من فيها الا بعد جهد ، وعمل سلالم ومنجنيقات .

وكان ضرغام يلح على الخليفة ان يأذن للجند بالهجوم يريد سرعه الوصول الى جهان والخليفة ضنين به . فلم يأذن له ولكنه أمر بالحرب فكان اول من هجم أشناس بأصحابه . وكان المحل ضيقا فلم يسكنهم من الحرب فيه . فأمدهم المعتصم بالمنجنيقات التي حول السور فجمع بعضها الى بعض فوق الثلثة . وفي اليوم الثاني أمر المعتصم ان يهجم الافشين وأصحابه وأجادوا الحرب . وفي اليوم الثالث هجم هو ورجاله وفيهم المغاربة والأتراك وهجم ضرغام وعمل أعمالا تعجز عنها الأبطال ووردان الى جانبه وكان قد علم بأمر حماد . وجعل ضرغام وجهته قصر البطريق . وظلت الواقعة الى الليل واحتدم سعيها . وكان البطارقة قد انفسوا أبراج السور فاخنصوا وجاء بعضهم في الصباح وألفوا سلاحهم نكايه في الآخرين وساروا امامهم الى المدينة ، ففشل الروم ودخلها المسلمون دحرجوا الفاتحين وأمعوا فيها نهبا وقتلا وسلبا .

* * *

قصد ضرغام الى قصر البطريق يطرب حبيته ومعه وردان وحماد ، ولم يصل الى القصر الا بعد التعب المضني لشدة ازدحام الاسواق بمن دخلها من المسلمين للنهب والسلب والسبي ، ولما دخلوا القصر وجدوا ابوابه مفتحة ولم يبق فيه شيء من المال او النساء فطافوا غرفه يبحثون فيها فلم يلقوا لجهان ولا هيلانة على أثر ، فارتاب ضرغام في قول حماد

وأدرك هذا ارتياحه فأقسم له على صدق قوله وقال : «يلوح لي ان بعض
الجند دخلوا القصر ونهبوه وأخذوا اهله» .
فوقف ضرغام ووردان وقد سقط في أيديهما فقال وردان : «نبحث
عنهما بين السبايا بعد انتهاء المعركة» .

أمر الخليفة بعد ان تم النصر للمسلمين بوقف القتال وجمع الغنائم
في ساحة المدينة لتباع ، فأخذ الناس يتزايدون فلا ينادي على السبي
الواحد اكثر من ثلاثة اصوات التماسا للسرعة فكانوا يبيعون الرقيق
خمس وخمسة عشرة عشرة لكثرتة ، والمعتصم يستعجلهم ، وأمر بهدم
المدينة فهدموها وأحرقوها .

أما وردان فانه طاف بين السبايا اثناء البيع فلم يقف لامرأته ولا لجهان
على خبر ، فانقبضت نفسه وعزم على الرجوع الى ضرغام لينظرا في الامر .
فمر في طريقه على معسكر الافشين فرأى فرس جهان الأدهم في جملة
الغنائم وتحقق ذلك لما رأى سامان واقفا الى جانبه فتميز غيظا لكرهه
سامان وأمسك عن الفتك به اكراما لضرغام لعلمه انه لا يريد ذلك . ثم
أسرع الى ضرغام وأخبره بما رأى فجاء ضرغام فرأى ادهم جهان وكان
سامان قد ذهب . وما كاد ضرغام ينظر الى وجه الادهم ويرى صورة
الاسد في جبهته حتى ثبت لديه انه جواد جهان وغلب على اعتقاده ان
جهان وهيلانة في جملة السبي الذي اخذه الافشين ، وهم بأن يدخل عليه
لساعته ليطلب منه جهان وهيلانة ثم تراجع خوفا من افساد نظام الجند وهو
حريص على جمع كلمته ، واعتزم ان يوسط الخليفة لانقاذ جهان وهيلانة
من يد الافشين .

وسأل عن الخليفة فعلم انه في دار العامة وقد تقاطر القواد والخاصة
لتهنئته بالنصر . فمكث حتى خلا المجلس من الناس ومضى معظم النهار
فاستأذن فأذن له ، فرحب به الخليفة وأدناه منه وهش له متلظفا ، فدعا

ضرغام له وهناه • ولحظ الخليفة انقباضا في وجهه فقال : «كأنني ارى
الصاحب مغضبا ؟»

قال : «لا يغضب العبد بين يدي مولاه ولكنني قلق» •

قال : «وما الذي أقلقك يا صاحبي ؟» • قال : «أقلقني ان الافشين

تعدى علي» •

قال : «بماذا ؟ وعهدي بك حكيم لا تدع مجالا لاختلاف» •

قال : «ليس الخلاف على منصب او مغنم ولكن ساقط الاقدار فناة

خطبتها الى عمورية ، فوقت سبية في يد الافشين وهو يعلم امرها

فأخذها لنفسه» •

فاستغرب المعتصم كيف يكون له خطيبة في عمورية فقال : «زدني

ايضا» •

قال : «يذكر مولاي زاده الله نصرا انه اكرمني في سامرا بياقوته

وأمرني ان أتزوجها فخالفت امره ولم أفعل ، كما ذكرت له بالامس ، ولم

يسألني امير المؤمنين ساعتئذ عن السبب ، وهو اني كنت علقت بفتاة

اخرى من فرغانة خطبتها وتعاهدنا على الزواج يوم ندينني للذهاب الى

فرغانة لجلب الجواري • وتوفي ابوها اثناء ذلك وأتاني امر الخليفة ان

أرجع فرجعت الى سامرا وأجلت الزواج • وحدثت بعد ذلك أحداث

يطول شرحها آلت الى خطف هذه الفتاة حتى وصلت الى عمورية • وكانت

سجينة في قصر ناطس بطريقها •

«فلما فتحنا المدينة طلبتها في القصر فلم أجدها • وبعد البحث عايت

انها عند الافشين ، وحدثتني نفسي ان ادخل عليه وأطالبه بها فخفت ان

نختصم وتتفرق كلمة الجند ونحن أحوج الى الاتحاد • فرجعت السبي

مولاي أعرض عليه امري ليرى رأيه» •

فأطرق المعتصم لحظة ثم قال : «هذا امر يسير ، فلا اظن الافشين

يمسك عليك خطيبتك ، والسبايا كثيرات وقد بيعت الواحدة بدرهم معدودة» . وصفق فجاء احد الغلمان فأمره ان يستقدم الافشين . وبعد قليل جاء الافشين فدخل وسلم فلما رأى ضرغاما هناك أدرك سبب الدعوة ولكنه تجاهل وسكت ، فقال له الخليفة : «دعوتك لأمر يهم صاحب وأنت تعلم منزلته عندي» . فابتسم الافشين وقال : «ان صاحب عزيز علي وهو لا يجهل ذلك» . قال المعتصم : «ان بين السبايا اللاتي وقعن في حوزتك فتاة يريدك منك» .

قال : «السبايا كثيرات وقد ابنعن بأثمان بخسة ، وعندي منهن عشرات فاذا طاب خمسا اعطيته عشرا» . فأدرك ضرغام تمويهه فقال : «أعني سبية معينة انت تعرفها» . قال : «أيهن ؟» . قال : «أعني جهان بنت المرزبان» . فأظهر دهشته وقال : «وهل هي بين السبايا ؟» قال : «أظنها بينهن ومعها امرأة رومية اسمها هيلانه» . فالتفت الى الخليفة وقال : «اذا كانت جهان بين السبايا فاني أسأل امير المؤمنين ان يعطيني من اعطائها» . فقال المعتصم : «الصاحب يقول انها خطيبته وهو صادق» . قال : «نعم ولكن هذه الفتاة بمنزلة ابني وقد أقامني ابوها وصيا عليها ولا اظن الصاحب ينكر ذلك» .

فنظر المعتصم الى ضرغام فرآه قد امتقع لونه وبان الغضب في وجهه، ولما شعر ضرغام بأن الخليفة ينظر اليه أمسك نفسه عن الغضب وقال : «سمعت بالوصية ولكن خطبتنا حدثت قبل كتابتها» .

قال الافشين : «لو صح ذلك لذكرها صاحب الوصية في وصيته وهو لم يفعل فأنا أعد الفتاة غير مخطوبة ولا يجوز ان تخطبها الا بأمرني تنفيذا

لوصية اييها» . قال ذلك والتفت الى المعتصم كأنه يستشير فاحتسار الخليفة لانه يحب ان ينال ضرغام طلبه ولا يحب ان يرى شقاقا في جيشه فقال : «هب ان أبا الفتاة لم يعلم بالخطبة او لم يعترف بها وأنت ولي امر الفتاة الان فنحن نخطبها منك» .

فأفحم الافشين ووقع في مأزق بين ان يفضب الخليفة وبين ذهاب جهان من يده ، فأطرق لحظة ثم قال : «ان امر مولاي نافذ لا مرد له . وليكن بعد رجوعنا الى سامرا ان شاء الله» .

فالتفت المعتصم الى ضرغام ولسان حاله يقول : «هذا هو الرأي الصواب» .

فعلم ضرغام ان الافشين يماطل . وانه ينوي ما يقول فقال محتدا : «اذا كان الافشين قبل طلب امير المؤمنين فليعقد الخطبة هنا» .

فابتسم الافشين وأذعن وقال : «اذا أمر امير المؤمنين فلا اعتراض . ولكني لا أدري اين السبايا الان وأظنهن حملن الى سامرا» . ففرح ضرغام لاعتقاده بأن جهان في المعسكر بعد ان رأى جوادها فيه . فقال : «اذا لم تكن الفتاة هنا أجلبنا الخطبة الى يوم عقدها في سامرا ، فليأمر امير المؤمنين بأن يأتوا بها اليه» .

فنادى الغلام وأمره ان يذهب الى معسكر الافشين ويأتي بالفتاة السبية جهان . فاستمعه ضرغام وقال : «ان اسمها جبار فهي معروفة بذلك في هذه الديار» .

خرج الغلام ومكث ضرغام كأنه على نار وقد هاجت شجونه وخفق قلبه تطلعا لرؤية حبيبته بعد الفراق الطويل ، وتخيل كم تكون دهشتها لما يقع نظرها عليه بغتة وهي تحسبه في عالم الاموات . وقضى في ذلك دقائق حسبها ساعات حتى عاد الرسول وقال : «ان السبايا أرسلن الى سامرا هذا الصباح» .

فوقع الخبر وقوع الصاعقة على رأس ضرغام ، فسكت وقد عزم في سره ان يكلف وردان بتدقيق البحث عن جهان فاذا كانت لا تزال فسي المعسكر اخذها عنوة .

فلما أذن المعتصم لهما بالانصراف ، ذهب ثوا الى فسطاطه ليرى وردان فلم يجده فسأل العبيد عنه فقالوا انهم لم يروه منذ الصباح ولا يعرفون مكانه . فخرج للبحث عنه في فسطاطه فلم يجده ولم يجد حمادا ، وكان يتوقع ان يراهما معا ، فقلق وهو في أشد الحاجة الى وردان . فخرج بنفسه لتفقد جواد جهان حيثما كان في الصباح فلم يجده فأيقن ان الافشين صدق وأنه لا يجرؤ على الكذب على الخليفة ، فرجع الى فسطاطه وكظم ما في نفسه .

- ٢١ -

محاكمة الافشين

كان الافشين قد أمر باخراج السبايا من المعسكر في صباح ذلك اليوم ، وقد حسن له ذلك سامان ، وهو الذي دله على مقر جهان في قصر البطريق وأشار عليه بسبيلها ، وكان يتبع خطاها منذ كان في البذ فعرف بخروجها الى بلاد الروم ونزولها عمورية وكان يفعل ذلك طمعا بما وعده به الافشين من امر الوصية . فلما فتحت عمورية ذهب الى أخته وأظهر لها انه جاء لتجديتها وان الافشين جرد هذه الحملة لانقاذها وأخذ يحسن لها الرضاء به وهي لا تجيبه فحملها رجال الافشين الى معسكره

على فرسها قبل وصول ضرغام الى القصر ومعها هيلانة ، وكانت تعزية كبيرة لها وقد تحابتا وتآلفتا وكل منهما تحسب نفسها شريفة لا نصير لها . فلما صارتا في معسكر الافشين شق على جهان أسرها وحدثتها نفسها ان تطلب مقابلة المعتصم وتستجير به من الافشين ، فأتاها اخوها وحسب اليها السكوت ، وذكر لها انه سيأخذها الى سامرا فتكون هناك كما تشاء . فلما ذكر سامرا تذكرت ضرغاما وفي نفسها بقية أمل بوجوده او معرفة حقيقة حاله من أمه اذا كانت لا تزال على قيد الحياة فوافقته واشترطت ان تكون هيلانة معها فقبل . وكان غرض سامان ان يفر بجهاز قبل ان يعلم بها ضرغام ، فلما رأى وردان في الصباح يبحث عنها أسرع الى الافشين وأشار عليه بأن يسرع بارسالهما رأسا الى أشروسنة للاحتفاظ بهما هناك ففعل ، ثم أسرع سامان وأعد الاحمال وحامية تحرسهم في الطريق ورحل خلسة . ولما جاء رسول الخليفة بطلب جهان كان قد مضى على خروجهم بضع ساعات وهم على ظهور الخيل . أما ضرغام فأصبح لا يدري ما يفعل وقد أدهشه غياب وردان وحماة ، وخاف ان يكونا قد أصيبا بسوء وظن ان الافشين أوقعهما في تهلكة . وبقي الجند في عمورية عدة ايام قضوا بعضها في بيع الغنائم والاسرى وكانت كثيرة ربح تجار اليهود منها ربحا جزيلا . وقضوا اياما بعد ذلك في هدم المدينة واحراقها وقتلوا من اهلها جمعا كبيرا وسلم ناطس نفسه .

فلما فرغوا من ذلك أمر المعتصم بالرجوع الى سامرا ، وضرغام في قلق لا مزيد عليه ، ورجع مع الراجعين وهو يرجو ان يرى طلبته في سامرا . واتفق له اثناء الرجوع انه رأى في عرض الافق فرسانا لم يقع نظره على خيولهم حتى اختلج قلبه لانه رأى بينها جوادا عرف انه جواد وردان فهمز جواده لملاقاة الركب ولما اقترب منهم عرف اثنين هما وردان

وحمد فصاح : «وردان ؟»

قال : «لبيك يا مولاي» • وفي صوته رنة السرور والظفر •

فقال : «اين كنتما فقد قلقت عليكما ؟»

قال وردان : «كنا في سامرا» • قال : «ولماذا ؟»

قال وهو يضحك : «أوصلنا العروسين اليها ورجعنا» • قال ضرغام:

«اي عروسين ؟»

قال : «جهان وهيلانة !»

قال : «كيف ذلك قل ؟» • فل حالا •

قال : «رأيتك تصانع الافشين ولا تخاطبه الا على يد الخليفة ، ورأينه

يخادعتك ويبغي الفرار بهما الى حيث لا نعلم ، والعسر لا يتسع للتفتيش

عليهما مرة ثانية • فخطر لي ان أعمد الى القود على غير علمك لئلا تشير

علي بان أتجنب اسباب الشقاق • وكنت قد علمت ان الافشين يحاول

الفرار بهما وقد أمر سامان بذلك ، فاتفقت مع حماد على ان نأخذهما

بالقوة ونأخذهم معهما ، وقد فعلنا وأوصلنا العروسين الى بيت الصاحب

في سامرا وزججنا سامان في السجن حتى نعود» •

ففرح ضرغام في قلبه ولكنه قال : «ألم يكن الاولى ان نبقي على

عهد الافشين ، فقد وعدني بين يدي الخليفة ان يعقد لي على جهان حالما

نرجع الى سامرا» •

قال : «وهل صدقت انه كان ينوي ارسالها الى سامرا ؟»

فالتفت الى حماد وقال : «وأنت ايها الصديق أرجو ان تكون قد

سعدت برؤية يا قوته ، ولكن لماذا رجعت ؟»

قال : «رجعت لأكون في معيتك وأتم خدمتي لك» •

وكانت الحملة سائرة فرقا وضرغام في فرقة المعتصم ليكون قريباً

منه • ولما امسى المساء حطت الاحمال ونزل الناس للراحة والرقاد •

وقص وردان على ضرغام حديث مكاييد جديدة يكيد بها القوم للمعتصم من قبيل ما كان قد أطلعه عليه وان حياة الخليفة في خطر ولا بد من ابلاغ الخليفة الامر .

فقال حماد : «انا أنقل الخبر الى الخليفة وانما أطلب من ضرغام ان يدخلني عليه في خلوة» .

قال : «قم بنا الان» . وكان الوقت عشاء فلما وصلا الى فسطاط الخليفة استأذن ضرغام في خلوة فأذن له ، فدخل ومعه حماد فقال الخليفة: «ما وراءك يا صاحب ؟»

قال : «عند صديقي حماد عبد امير المؤمنين مخبآت مهمة . اذا أذن له كشفها» .

قال : «فل واحذر الانحراف عن الصواب» .

فقص عليه تواطؤ القواد على قتله ومبايعة العباس وسمى المتآمرين وفيهم الشاه ابن اسماعيل الخراساني ، والهارث السمرقندي ، وعجيف ابن عيسى ، وغيرهم ، فاهتم المعتصم بالامر واستقدم المتهمين واستجوبهم فاعترفوا فقتلهم على اساليب مختلفة لا محل لذكرها . واحتفظ بالعباس حتى وصلوا الى سامرا فسأه اللعين وأخذ اولاد المأمون فحبسهم في داره حتى ماتوا ، وعد المعتصم هذه الخدمة جميلا لضرغام وحماد معا وأنعم عليهما .

أما الافشين فبلغه من بعض رجاله ما صنعه وردان وحماد ، فصبر حتى يصل الى سامرا فيشكوها ويشكو ضرغاما الى الخليفة . ولما دنت الحملة من سامرا اخذ قلب ضرغام في الخفقان لعلنه انه سيلقى جهان بعد طول الفراق .

* * *

كانت جهان بعد ان خطفها وردان وحساد قد عادت اليها آمالها .
وكانت لما رأتهما هاجمين بمن معهما من الرجال لاختطافها قد استعازت
بالله من توالي الاحن عليها وأرادت الدفاع ، ثم سمعت صوت وردان
وسمعه ايضا هيلانة زوجته فانحازتا اليه ، ولا تسل عن حال هيلانة لما
سمعت صوت زوجها وهي تحسبه بين الاموات فترامت عليه وتبادلا آيات
الشوق والحب . فأمر الذين معه بالقبض على سامان قبل ان يفر فقبضوا
عليه وشدوا وثاقه ، وتقدم وردان الى جهان فلما رأته قالت : «وردان ؟»
قال : «نعم يا سيدتي ابشري بالسلامة واللقاء» .

فصاحت : «اللقاء .. ضرغام .. ضرغام .. اين هو ؟»
قال : «في سلامة وخير ، وسيأتي بعد ايام قليلة . وأنا ذاهب بك الى
منزله في سامرا تمكثين مع أمه حتى يصل» .
فظنت نفسها في حلم وتفرست ثانية في وردان وقالت : «وردان .
أضرغام حي ؟» . وتذكرت ان سامان اول من أنبأها بموته فالتفت اليه
وقد شد وثاقه الى ظهر الفرس فرأته ينظر اليها بذلة واستعطاف اذ سمع
ما دار بينها وبين وردان ، فحولت وجهها عنه ورأت صديقها هيلانة
ملتصقة بوردان يكادان ان يطيرا فرحا فقالت لها : «هل تعرفين وردان
قبل الان ؟»

فقالت هيلانة : «هذا زوجي يا مولاتي !»
قالت : «زوجك البطريق الذي قصصت علي خبره ؟»
قالت : «نعم هو هو .. الحمد لله على لقائه ، ولك الهناء يبلوغك
مقر خطيبتك» .

وسألت جهان : «اين ضرغام ؟» . فقال وردان : «انه في عمورية
وأنهم سينتظرونه في سامرا» . ومشوا نحو سامرا وكل فرح بما لديه .
وقضوا مسافة الطريق يتحدثون بما مر بهم من الغرائب . وقص وردان

على جهان ما حظي به ضرغام عند المعتصم وكيف ساء الصاحب وأسباب ذلك ، وأخبرها خبر حماد وخطيبته ياقوتة وما بينهما من الشبه العجيب . ولما وصلوا الى سامرا بعث وردان بسامان الى صاحب السجن وقال له : «ان الصاحب يأمر بسجن هذا الجاسوس» . وبعث كذلك السي آفتاب ينبتها بقدم جهان فكان لالتقائهما دهشة يندر مثالها ، وآفتاب لا تسل لمس جهان وضمها وتقييلها . أما ياقوتة فكان فرحها بحمد عظيم ، وكانت عالمة ببقائه حيا ولكنها دهشت لما رأت جهان فظنت انها ترى نفسها بمرآة لشدة المشابهة بينهما ولم تكن جهان أقل اندهاشا منها . فلما أتم وردان مهمته عزم على الرجوع الى عمورية فرجع حماد معه .

ومكث اهل الجوسق على مثل الجمر في انتظار ضرغام . وبعد بضعة عشر يوما جاءت البشائر برجوع المعتصم وجنده ظافرا ، فزينت سامرا واصطففت المواكب والجنود ورفعت الاعلام وضربت الطبول وضجت المدينة فرحا ، وخرج النساء والرجال للفرجة واشتغل الناس بهذا الاحتفال عن كل شيء .

أما جهان فانها لم تكن تسمع صوتا ولا ترى شبحا وانما كانت عيناها شائعتين نحو باب الجوسق لعلها تشاهد ضرغاما داخلا في موكب الخليفة فلما دخل الخليفة لم تر احدا .

وفيما هي في لهفتها سمعت سعالا في الدار فارتعدت فرائصها لانه سعال ضرغام فأرادت ان تجري للقاءه فلم تسعفها قدماها واحمر وجهها ثم علاه الاصفرار ولكنها تجلدت وتمالكت واستعادت رباطة جأشها ومشت . وكان ضرغام قد دخل الغرفة فرأى جهان تمشي مشية الجلال والوقار وعيناها تتكلمان كأنهما خطيب على منبر يدعو الناس الى التعبد او الى التفاني في الحب . فانحنى مسلما وبوده ان يكون سلامه معاتقة لولا العادة التي تحول دونه . ثم وقف ومد يده اليها فمدت يدها وابتسما

ابتسامة أغنت عن حديث طويل ثم قال : «مرحبا بعروس فرغانة • لقد
أطلت علينا الغياب وطال بنا الطريق ، مع ان طريق المحيين قصير على ما
يقولون ! »

فضحكت وقالت : «طال الطريق لوعورته وكثرة عقباته • ولكن ماء
السكر كلما زدته غليانا زادك حلاوة» •

قال : «لكني خشيت أن يجف مأؤه فيحترق» •

قالت : «أوشك ان يحترق لو لم أرطبه بدموعي !» • قالت ذلك
وأبرقت عينها وتلألأت فيهما دمعتان ونظرت اليه نظرة وقعت كالسهم في
قلبه فقال لها وقد اخذ الهيام منه مأخذا عظيما : «أبمثل هذه الدموع كنت
تنسين الاحتراق ؟»

فالت : «نعم ولكن شتان بين دموع الفرح ، وأشكر الله على
كل حال » •

وكانت يدها لا تزال في يده ، فضغط عليها وقادها الى مقعد هناك
وهو يحدق في عينيها ويقول : «اراك تشكرين الله وعهدي بك تشكرين
أورمزد فمتى حدث هذا التغيير ؟»

فقالت وهي تمشي معه حتى جلسا متحاذيين وقد نسيا الوجود :
«حدث يوم تبدلت حالي وشغل قوادي فأصبحت لا أملك شعوري ولا
ارى هذا الوجود الا كما يشاء ضرغام • ولا آسف الا على زمن غلب
فيه اليأس على قلبي ، يوم بعثت اخي سامان وغيره للبحث عن ضرغام في
سامرا فعادوا وقالوا : (غير موجود) • وزاد بعضهم انه ليس على الارض •
تبا لتلك الساعة كم أحدثت وكم غيرت • ولكنني نسيت كل ذلك الان ،
ولا أعلم الا اني أسعد اليوم مما كنت بقربك في فرغانة • كنت يومئذ
سعيدة عن جهل لاني لم أجرب الشقاء ، وكنت أتلذذ بقربك مندفعمة
بتيار الحب وأنا لا أعرف اللقاء ، وأما اليوم فقد عرفت ان السعادة يزيد

مقدارها كلما زاد الشقاء في سبيل الحصول عليها ، لو عرفت ذلك يوم
اجتماعنا في فرغانة لفضلت ان أجاهد في سبيل حبك قبل الوصول الى
قربك» . قالت ذلك وقد غلب عليها الهيام ونسيت رباطة جأشها وكبر
نفسها وهو ينظر اليها وقد شغل بسعاني وجهها وسحر عينيها عن تفهم
كلامها ، ففرغت من حديثها وهو لا يزال يرنو اليها كأنها لا تزال تخاطبه .
ثم اتبته لنفسه وخجل من سهوه ونسي ما كانا فيه فقال : «كم أحب
ان أسمع ما قاسيته اثناء هذه الغيبة وقد سمعت بعضه ولكنني ألتذ ان
أسمعه من فيك . ولا ريب عندي انك تحين الاطلاع على خبري
والحديثان طويلان ستبادلهما في فرصة اخرى . ولو بقيت بجانبك
الدهر كله لا آرتوي من النظر اليك يا جنتي وحياتي ، وصدقت ان الحب
تزداد لذته كلما زاد التعب في سبيله ولم اكن أحسب حيننا يقبل الزيادة
وحاشا ان يقبلها ولكنه يزداد بالتعب حلاوة وصفاء» .

فوقفت وهي تقول : «صدقت ان تلذذنا باللقاء لا نهاية له فينبغي ان
ننظر الى الآخرين . هل رأيت أمك؟» . قال : «لم أرها بعد» .
قالت : «هنيئا لك هذه الأم الحنون ، وكم هي في شوق الى لمسك
وشمك» .

وخرجت معه الى الدار وفيها أمه فشعرت بهما فقبل ضرغام يدها
وهمت هي به ضما وتقييلا . وكانت ياقوتة واقفة هناك فقالت جهان
لضرغام : «ألم تكن تستأنس برؤية ياقوتة اثناء غيابي؟»
قال : «ربما استأنست حيننا وغصصت بريقي احيانا ، وان هذا
الشبه بينكما دلني عليك وسأقص عليك خبره» .
قضوا في أمثال هذه الاحاديث ساعات . وأعد الطعام فجلسوا اليه
فقالت آفتاب لابنها : «قد آن يا ضرغام ان تعقد قرانك» .
فقال : «صدقت يا أماه ، غدا ان شاء الله» .

وفيما هم في ذلك جاء احد غلمان القصر يدعو ضرغاما الى مقابلة الخليفة ، فلبس قنسوته وسواده وخرج . فلما دنا من دار العامة رأى بالباب جماعة من الغلمان الأثروسيية فعلم ان الافشين هناك ، ثم دخل فرأى الخليفة جالسا على سريره في صدر الايوان والافشين على كرسي بين يديه ، ورأى وردان وحمادا واقفين بجانب القاعة . فسلم فأشار اليه المعتصم ان يجلس فتباطأ وقال : «يأذن لي امير المؤمنين بكلمة قبل ان أجلس» . قال : «قل» .

قال وهو يشير الى وردان : «أقدم لأمر المؤمنين بالطريق وردان احد كبار بطارقة أرمينيا ، وقد أبلى في جيشنا بلاء حسنا في البذل وعمورية» .

فاستغرب المعتصم والافشين كلامه وقال الخليفة : «أليس هذا خادمك وردان ؟»

قال : «كنت أخدمه خادما وأنا لا أعرف أصله ، فلما بلوته عرفت فيه الرجل الكريم ، وقد كانت له عندي أياد بيضاء عادت بالنفع على جند المسلمين ، فاذا أمر امير المؤمنين بجلوسه فعل وهو صاحب الامر» . فقال : «ولكنه في مجلس القضاء وقد دعوتك لتؤدي الشهادة» . قال : «أفعل ذلك طوعا لأمر المؤمنين» . وجلس وأصغى . فقال المعتصم : «يقول قائد جندنا الافشين ان وردان وحمادا تعديا على رجاله واختطفا منهم امرأتين من سيه بعد ان كنا قد أرجأنا النظر في ذلك حتى رجوعنا الى سامرا» .

قال ضرغام : «نعم فعلا ذلك يا امير المؤمنين ، واذا رأى مولاي في هذا ذنبا فأنا صاحبه لانهما فعلاه لاجلي وعلي تبعته ومهما يكن من أمر فان حمادا هذا (وأشار اليه) قد شمله عفو امير المؤمنين وقد جاء سامرا لينال ما وعده به مولانا فلا يؤخذ بجريرة سواه» .

فحك المعتصم جبينه كأنه يسترجع الى ذهنه شيئاً نسيه وقال :
« صدقت ان حمادا ذو فضل وسابقة وسنولي ما هو اهل له فيخرج الان
اذا شاء » .

فسلم حماد وخرج ، وبقي وردان وضرغام والافشين ، فقال الخليفة:
« انك قلت عن وردان ما هو اهل ، ولكنه خالف امرا اصدرناه بشأن
السيتين ، فقد فلنا ونحن في عسورية ان يترك امرهما حتى رجوعنا الى
سامرا ، فكان ينبغي ان يراعي هذا الامر . فليؤتسي بالسيتين الان
الى هنا » .

فقال ضرغام : « ان السيتين هما خطيتي وزوجته (وأشار الى
وردان) . اما خطيتي فقد سبق امر الخليفة ان تكون زوجتي وهي في
منزلي ، وأما امرأة البطريق فهي عندي ايضا ولا اظن الافشين يهـمه
امرها » .

فقال الافشين وقد بدا الغضب في عينيه : « يهمني اولا ان يراعي امر
امير المؤمنين في الاثنتين . وأما جهان التي تقول انها خطيتك فلها شأن
خاص لاني ولي امرها بوصية ايها » .

فعند ذلك تقدم وردان واستأذن في الكلام ، ووجه خطابه الى
الخليفة وقال : « هل ثبت لامير المؤمنين انه وصي ؟ »
فاتتبه المعتصم لهذا الاعتراض والتفت الى الافشين وقال : « اين
كتاب الوصية ؟ »

فقال الافشين : « هو عندي . وهل انا كاذب ؟ »
فقال المعتصم : « الشرع يقضي بالاطلاع عليه قبل اصدار الحكم ،
وهل يهـمك كتماناه ؟ »

فظهرت الحيرة في وجه الافشين فعمد الى المغالطة ، وتغاضب وقال:
« اذا كان الافشين الملك والقائد يكذب في مثل هذا ويصدق العليج فعلى

الدنيا السلام !»

فقال وردان : «اني لا أفكر وصايته ولكنني ارى ان يطلع عليها امير المؤمنين على نصها ليعرف من هو صاحب أثروسته» .

فاستشاط الافشين غضبا وكأنه نسي موقفه فقال : «ان الافشين قائد جند المسلمين لا يخاطب بمثل هذا الكلام في حضرة امير المؤمنين ، وهب ان الوصية ضاعت او سرقت او احترقت فهل يؤخذ ضياعها حجة علي فأعد كاذبا . والرجل يقول انه لا ينكر الوصاية فما الفائدة من نصها ؟»

فقال وردان : «لا تغضب ايها القائد انا في موقف القضاء بحضرة امير المؤمنين والقضاء يطلب اليك ان تتلو نص الوصية» .

فازداد الافشين غيظا وقال : «قد ضاعت الوصية ولا أذكر نصها» .

قال وردان : «انا أذكره ، هل أتلو بعضها على مسامع امير المؤمنين» .

قال المعتصم : «اتل ما شئت» .

فقال : «يكفي امير المؤمنين ان الوصية مصدرة باسم أورمزد معبود المجوس من دون الله تعالى ، وقد شهد فيها الموبذ كاهن المجوس بدل القاضي الشرعي ، أليس كذلك يا قائد جند المسلمين ؟»

فهاج غضب الافشين وأدرك ان الرجل ينوي اذلاله وفضح امره ، وقدم على ما فرط من تعنته ولكنه تجلد وقال : «وأين هو وجه الطعن فيها ؟ ان الموصي مجوسي فكتبها على ما يقتضيه دينه وعادات بلاده . كأنك تريد بذلك اتهامي بالمجوسية . انها لوقاحة كبرى !»

فوجه وردان كلامه الى المعتصم وقال : «هل يأذن امير المؤمنين ان اقول ما أعرفه ؟»

قال : «انك في موقف الدفاع عن نفسك ، قل ما بدا لك» .

فقال للافشين : «لا أتهمك بالمجوسية اتهاما . ولكنني اقول انك مجوسي تسجد لأورمزد حتى الان . وأقول فوق ذلك انك تتظاهر

بالدفاع عن الاسلام وأنت انما تفعل ذلك طمعا في المال • ولو استطعت سحق دولة المسلمين لسحقها وهذا بيت النار في فرغانة شاهسد على ذلك » •

فلما قال وردان ذلك رأى الخليفة التهمة أوسع من ان يقضي فيها في تلك الجلسة فأحب ارجاء نظرها فقال : «ان هذه التهمة خارجة عن موضوع هذا المجلس فانما نبحث الان في اخطاف السييتين» • فقال ضرغام : «قلت لامير المؤمنين ان الذنب في ذلك ذنبي انا ، لان احدهما خطيبي وهي في منزلي الان» •

فقطع الخليفة كلامه وقال : «نحن لا نعترض على زواجك بها وانما نؤاخذ وردان على اخطافها» •

فقال وردان : «انما اخطفتها لعلي ان مولانا الافشين أمر بارسالها الى بلده أtherosنة لتضاف الى خزائن الاموال التي يرسلها الى هناك كل سنة من أموال المسلمين ليسنعين بها على اسقاط دولتهم عند الحاجة ! »

نظر المعتصم الى الافشين فرأى لحيته ترفص في صدره ، ولو جس يده لرآها باردة كالثلج ترعش فقال له : «ان هذه التهم كبيرة • وأراك لا تدفعها» •

فقال الافشين : «كلها مفريات كاذبة • وموعدا غدا فيظهر الحق من الباطل » •

فقال وردان : «لا بأس من التأجيل الى الغد او بعده ، ولكن من يضمن لمجلس القضاء ان المنهم يبقى في سامرا الى الغد» •

فقال المعتصم : «يبقى هنا في الجوسق» • وأشار الى صاحب حرسه ان يأخذ سلاح الافشين وسواده ، ويتولى حراسته • فنهض الافشين وفد سقط في يده ولكنه ما زال يكابر ويغالط ويمشي مرحا وهو يتوعد

ويتهدد .

وبعد خروج الافشين اشار المعتصم فخرج وردان واستبقى صاحب ، فلما خلا اليه ، تنهد وقال : «تبا لهؤلاء المجوس انهم يشاركونا في ملكنا ويخدعوننا في امرنا . ولكن الله أعاننا على الانتفاع بسيوفهم ورد كيدهم في نحورهم . ماذا رأيت يا صاحب ؟»

قال : «ان امير المؤمنين يعرف ما انطوى عليه هؤلاء القوم ، وكم شكا منهم ومن مكرهم السيء» .

قال : «ان ما اشار اليه صاحبك وردان لم يخف علينا فان كتب عاملنا في خراسان كانت تأتينا وفيها الشكوى من كثرة الاموال التي يرسلها الافشين الى بلده ونحن صابرون . وقد رفعت الينا الكتب من كثيرين يتهمونه بالمجوسية وعبادة الاصنام وبالتواطؤ مع المازيار صاحب طبرستان وبابك على حربنا . وقد علم بذلك القاضي احمد ووزيرنا محمد بن عبد الملك الزيات وغيرهما . وقد بعثنا نستقدم المازيار صاحب طبرستان الذي تواطأ معه على الغدر بنا . والمرزبان احد ملوك السغد ، وموبدا مجوسيا ، واثنين من المسلمين كان الافشين قد عذبهما لانهما بنيا مسجدا في أشروسنة . وسأعقد مجلسا يحضره هؤلاء نفضح به ما استتر ونجزي كل فاعل بما فعل . اما انت فلك عروسك تهنأ بها ، ولا بأس على وردان فهو حر وسنجمعه من خاصتنا . وعلى الباغي تدور الدوائر» . فدعا له وخرج .

عقد المعتصم في اليوم التالي مجلسا حضره كل من القاضي احمد بن داؤد ، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وغيرهما من الاعيان . ودعا صاحب ووردان فحضرا . ثم أمر بالافشين فأخرج من محبسه وجيء به الى المجلس : وتولى ابن الزيات اتهامه بعد ان أحضر الشهود المشار اليهم . فجيء اولا بالرجلين المضرويين وكشف عن ظهريهما وهما عاريان

من اللحم وقال للأفشين : «أتعرف هذين؟»

قال : «نعم هذا مؤذن وهذا امام بنيا مسجدا بأشروسة فضربت كل واحد منهما الف سوط لان بيني وبين ملك السعد عهدا بأن اترك كل قوم على دينهم . فوثب هذان على بيت نار في أشروسة كان فيه أصنام فأخرجها وجعلا مكانها مسجدا فضربتهما على هذا» .

قال ابن الزيات : «ما كتاب عندك حليته بالذهب والجوهر وفيه الكفر ؟»

قال : «هو كتاب ورثه عن ابي فيه من آداب العجم وكفرهم فكنت آخذ الادب وأترك الكفر ، ووجدته محلي فأبقينه ، وما اظن هذا يخرج من الاسلام» .

ثم تقدم الموبذ وقال وهو يشير الى الافشين : «ان هذا يأكل لحم المخنوفة ويحملني على أكلها ويزعم انها أرطب من المذبوحة . وقال لي يوما : (قد دخلت لهؤلاء القوم - المسلمين - في كل شيء أكرهه حتى أكب الزيت وركبت الجبل ولبست النعل غير اني الى هذه الغاية لم اختن) » . فأعرض الافشين على كلام الموبذ بأنه غير نقه . فرد ابن الزيات عليه . ثم تقدم ابن الزيات وقال مخاطبا الافشين : «كيف يكتب اهل بلدك اليه؟» . قال : «لا اقول» .

قال : «ألا يكتبون اليك بلغهم ما معناه انك اله الآلهة؟» . قال : «بلى» .

فقال ابن الزيات : «ان المسلمين لا يطيقون هذا فما ابقيت لفرعون؟» قال : «هذه كانت عاداتهم لابي وجدي ولي ايضا قبل ان أدخل في الاسلام فكرهت ان اضع نفسي دونهم فتفسد طاعتهم» .

ثم تقدم المازيار : فقال ابن الزيات للأفشين : «هل كاتبت هذا؟» . قال : «لا» .

قال المازيار : « كتب اخوه لأخي باسمه انه لم ينصر هذا الدين غير بابك ، ولكن بابك قتل نفسه ، وجهدت ان أصرف عنه الموت فأبى الا ان أوقعه ، فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعى الفرسان وأهل النجدة فان وجهت اليك لم يبق احد يحاربنا الا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك . والعربي بسزلة الكلب أطرح له كسرة واضرب رأسه ، والمغاربة أكلة رأس ، والأتراك ما هي الا ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيول عليهم فتأتي على آخرهم ويعود الدين الى ما لم يزل عليه ايام العجم) » .

فقال الافشين : « انه يدعي ان اخي كتب الى اخيه . فما ذنبي انا؟ » فنقدم وردان عند ذلك وقال : « تزعم ان اخاك كذب ولا نبعة عليك ، فما قولك فيمن رآك رأي العين في بيت النار بفرغانة ومعك المازيار هذا ونائب عن بابك . وقد تواطأتم على محق دولة المسلمين وتعهدت ان تجمع المال الكافي لذلك العمل » .

فأعرض الافشين بوجهه عنه وقال : « هذا خصم يكذب تأييدا لخصومته » .

قال : « وان اتيتك بالموبذ نفسه الذي شهد على كتاب الوصيعة وسمعتة يقول مثل فولي ؟ » . فقال المعتصم : « سنرسل في طلبه » . فقال وردان : « واذا بعث امير المؤمنين الان من يدخل بيت الافشين في سامرا وجد احد التماثيل المجوسية » .

فقال ابن الزيات : « قد اتينا بها بالامس » . وأمر غلاما أحضرها واذا هي تماثل من خشب عليه حلية كثيرة الجواهر وفي أذنه حجران مشبك كان عليهما ذهب وأصنام اخرى وكتاب من كتب المجوس وغيره . فارتج على الافشين وسكت ، فأمر المعتصم بإرجاعه الى الحبس وأن يقطع عنه الطعام والشراب فقطعهما حتى مات سنة ٢٢٦ هـ .

وخلا ضرغام بالمعتصم بعد ايام وقص عليه حقيقة وصاية الافشين على
جهان فأمر بالغائها ورد المال الى صاحبه . وبعث الى فرغانة فأمر بهدم
بيت النار كارشان شاه ، وأمر ان يكون حماد ووردان من خاصته وأن
يقيما في قصرين داخل الجوسق مثل ضرغام ، وأمر بعقد كتاب ضرغام
على جهان ، وأعطاهم عطاءات شتى .

- ٢٢ -

نسب ضرغام

بقي سامان في السجن لا يكثر له احد الا وردان فقد كان يتردد
عليه من حين الى اخر ويسأله عن حاله توكسا وتشفيا . وكان ضرغام في
شغل عنه حتى اذا فرغوا من امر الافشين أحب ان يطلق سراح سامان
كرما وفضلا فقال وردان : «اذا اطلقته فكأنك سجتني مكانه ، ويهمني
ان أسأله عن اشياء وأسع جوابه عنها لاني رأيت منه أمورا لا تصدر
عن البشر» .

فقال : «نسأل جهان عن رأيها في ذلك» . قال : «افعل» .
فذهب الى جهان وسألها فقالت : «لا ادري . وليتك لم تسألني عنه
لاني احب ان انساه» .

قال : «هو بي السجن الان فما الذي تريد ان تفعل به ؟»
فأطرفت حينئذ قالت : «احب ان تطلق سراحه . ولكنني في شوق
الى سر لا يزال مكتوما عني . اريد ان أعرف سبب غضب ابي عليه» .

فتذكر سرا آخر قد طال اشتياقه الى معرفته وهو حقيقة نسبه فعزم
ان يسأل أمه عنه بعد الفراغ من سر سامان .
وأمر باستقدام سامان من السجن الى منزله في جلسة كان فيها هو
وأمه وجهان وياقوتة وحماد ووردان وهيلانة .
ودخل سامان دخول غريب تنبحه الكلاب ، ووقف وفوف مجرم
يخاف العقاب ، وقد شوهدت خلقة كأنما طبعت على صحيفتها نقائصه .
وكان رث السربال زاده الهزال ذلا ، حتى اذا توسط الدار وقف محني
العنق يجول ببصره في الجالسين فلما رأى ياقوتة دهش وأخذنه البغته .
فالتفت الى جهان وأجهش فسبقته الى البكاء وقد عز عليها ان نراه واقفا
هذا الموقف رغم ما ارتكبه معها من السيئات . ولم يبق احد ممن
الحاضرين الا رق له ، الا وردان فانه لم تأخذه به شفقة وكان هو اول
المتكلمين فقال : « لا تخف يا سامان لم ندعك لنحاكمك على جريمة من
جرائمك فانها لا تفتقر الى محاكمة ولا نعرف عقابا يفي بها ، ولكنني
رأيت في سيرتك ما أدهشني من تقلبك في الايذاء فيينا انت ناظم على
الافشين لانه حرمك من الميراث اذا بك تستعين عليه بالصاحب ثم
تسعين علي هذا بذاك ثم بذاك على هذا ، وأغرب شيء انك غدرت
بأختك هذه وهي كالملائكة خلقا وخلقها وأغريت بها أفسق اهل الارض
وهي مخطوبة وقد وثقت بك واتكلت عليك في الفرار الى خطيبها .
فرضيت ان تؤخذ غدرا وتحمل قسرا الى ذاك اللعين زعيم اهل الفحشاء .
ولم تكن لتنال على عسلك جزاء افضل مما قد تناله لو جئت بها الى
سامرا . ومع ذلك لم تنل من بابك غير الخزي ، وبعد ان كنت نصيره
خنته وبحث بأسرار حصونه الى عدوه ، وواطأت الافشين على أخنسك
وعلى خطيبها . اني عرفت في الناس أشرا كثيرا يرتكبون افطع مما
ارتكبه في سبيل غرض يعرفونه ويعرفه الناس فما عرفنا لك غرضا . »

وكان سامان يسمع قول وردان وهو يصطنع الاطسراق وعيناه لا تتحولان عن ياقوتة وان كان ذلك لم يظهر عليه لحواله . فلما أتم وردان كلامه اجابه سامان قائلاً : «تسألني عن اسباب لست أعلم بها منك . ارتكبت فظائع لم يعرف الناس عنها الا طرفاً منها ، ولو سئلت عمن اسبابها ، او عن سبب احدها ، لم استطع جواباً ، وانما أعرف اني كنت أرتكب الخطأ ثم أبادر الى اصلاحه بخطأ افطع منه ، فكانت اعمالسي سلسلة هفوات والعبرة بالهفوة الاولى» . قال ذلك وتغير وجهه وغص بريقه وتملل فابتدره وردان قائلاً : «ما هي تلك الهفوة ؟»

فحول بصره الى ياقوتة وأطال النظر اليها وعيناه ترتعشان ، ثم انتقلت الرعشة الى أطرافه حتى اصطكت ركبتاه وكاد يسقط فلحظ ضرغام ذلك فقال له : «اجلس يا سامان وتكلم» . وقد استغربوا تغيره وتحديقه في ياقوتة حتى تولاهما الخجل وحولت بصرها عنه . فجلس سامان جاثياً وجعل رأسه بين كفيه وأخذ في البكاء بصوت عال يتخلله شهيق كثير حتى كاد يختنق ، فأنكر القوم بكاءه لاول وهلة وظنوه يحتال ، فصبروا عليه حتى فرغ من بكائه وهم ينظرون بعضهم الى بعض . واذا به نهض بغتة وترامى عند قدمي ياقوتة وأجهش في البكاء فدهش القوم ولاسيما حماد ووئب اليه ليرجعه عن امرأته فلم يطعه فقال له : «ماذا اعتراك يا سامان ، يسألونك عن جريمتك الاولى فلماذا لا تجيب ؟»

فصرخ قائلاً وهو يشير الى ياقوتة : «هنا غلطتي الاولى . هذه هي ا» . وعاد الى البكاء ، فازداد الحاضرون دهشة وظنوه جن ، ولاسيما جهان فقالت : «قل يا سامان فقد حيرتنا . ما خطبك؟ وما لك وياقوتة؟ بك؟» قال : «هذه هي غلطتي نفسها . وما هي ياقوتة وانما هي شهرزاد» . فلما قال ذلك صاحت آفتاب أم ضرغام : «شهرزاد ؟ نعم هي شهرزاد ا» . وكانت جالسة بالقرب منها فضمتها الى صدرها وقالت :

«قد تنسيت ريحك منذ لمستك للسرة الاولى» • ثم صاحت : «جهان حبيبتى ألا تعرفين شهرزاد؟»
فبغتت جهان وأعملت فكرتها وقالت : «لا أعرف فتاة بهذا الاسم الا أختا لي ماتت طفلة قبل ان أولد» •

فقلت آفتاب : «هذه هي أختك لم تمت بل كانت قد فقدت • وانما قالوا ذلك تلطفا وتسترا ولم يكن يعرف هذا السر الا انا وأبوك وسامان هذا • وكان ضياعها على يده فانه كان قد خرج بشهرزاد الى البساتين وهي طفلة لا تكاد تستطيع المشي • فلما عاد سأله أبوك عنها فبكنا وزعم ان فرسا من أفراس النخاسين اختطفها منه - لان في تركستان جماعة يربون الخيل على النخاسة ويعودونها خطف الاطفال بأسنانها فيلتقط الفرس الطفل بأسنانه ويطير به الى منزل صاحبه - ولم يصدق والدك ما قاله سامان وغضب عليه من ذلك الحين وأشاعوا انها ماتت !»

وكانت آفتاب تتكلم والجميع سكوت كأن على رؤوسهم الطير • فلما فرغت اكبت جهان على ياقوته وضمتها وطفقت تقبلها وياقوته آتد فرحا من الجميع • لانها كانت تحسب نفسها جارية فاذا هي بنت المرزبان • ففبت اخنها والدهشة لا تزال سائدة والكل يقولون : «لم نكن هذه المشابهة بين الاختين عن عبت» • وأخذوا يتساءلون وهم يحسبون انفسهم في حلم فقلت جهان : «يا سامان • فل كيف أخذت شهرزاد منك ؟»

فأجابها وهو يمسح دموعه : «انبتهت لوجودي وأنا في نحو العاسرة من العسر • وأختك هذه في نحو الرابعة • ورأيت أبويننا يجبانها كثيرا ويدللانها ويهلانني فدب الحسد في قلبي فصرت أظهر الكره لأخني وهما يزيدانني حسدا بتبميزها عني بالهدايا والنقود • وكنت اذا طلبت نقودا من ابي لم يعطني وأنا ارى النقود مع أخني او حاضنتها • وسمعت

ذات يوم أناسا يطوفون البلاد يشترون الاطفال فعاقلت الحاضنة وأخذت شهرزاد الى البساتين فرأيتهم مارين فبعتهما لهم بدينارين وعدت وساروا هم في طريقهم . ولما سئلت عنها قلت انها خطفت مني فلم يصدق ابي . وعرف بعد ذلك اني بعتهما وبعث من يفتش ويبحث بلا فائدة . فكرهني من ذلك الحين وهددني بالحرمان من ماله فصرت ارى كل الناس اعدائي، وبوهمت ان كل حركة يأتونها انما يريدون بها نكايتي او أذيتي ، فأصبحت ولا هم لي الا كسب المال لاستعين به عليهم . وأول سعي بذلته في هذا السبيل اني حاولت منع ابي من كتابة الوصية ففشلت ، فأردت اصلاح هذا الفشل فوفعت في فشل اخر . وهكذا كما تعلمون . ولم ادرك هذه الحقيقة الا وأنا في السجن منذ يومين» . قال ذلك وتنفس الصعداء ، ثم عاد الى اتمام الحديث وقد زاد وجهه امتقاعا وبدأت الرعدة في أطرافه والاضطراب في عينيه وقال : «وقد تأخذكم الشفقة علي بعد ما بسطه لكم فاعلموا اني لا ألتمس عفوكم لان من كانت حياته سلسلة فظائع لا يجوز ان تنتهي بغير القتل» . قال ذلك واستل من جيبه خنجرا طعن به صدره فسقط يتخبط بدمه !

فضج الحضور وابتعد النساء عن هذا المنظر . وقد اسفوا على موت سامان بعد ان أيقنوا انه تاب ، فترحسوا عليه وأمروا بدفنه وكانت جهان اكثرهم حزنا عليه .

اصبحت روابط القرابة والنسب الجديدة بين جهان وياقوتة حديث الناس ، واقتسما ميراث ابيهما ، وأصبح حماد وضرغام نسيبين وقد نالا حظوة في عيني المعتصم ونم لهما ما يريدان . على ان ضرغاما بقي في خاطره شيء يحب الاطلاع عليه فخلا الى أمه يوما وقال لها : «ألم يثن الوقت لكشف حقيقة نسبي ؟ ما الذي تستظرينه بعد الذي رأيته من نعم المولى علي ؟»

- قالت : «لا أتنظر شيئاً ولكنك مع ذلك لم تنل ما انت اهل له» •
- فقال : «تعنين ان ابي كان أتر جانباً وأرفسح مقاما مني؟» •
- قالت : «نعم» •
- قال : «فهو اذن من كبار القواد او الوزراء ، واذا صح ذلك فلا يعقل ان يكون خبره مكتوما عن الناس» •
- قالت : «انه فوق ما ذكرت» •
- فبهت ثم قال : «لم يبق الا ان يكون من أشرف قريش او بني هاشم او بني ابي طالب» •
- قالت : «انه أخص من ذلك كثيرا» •
- فأطرق وفكر فيما تعنيه أمه فلم يبق الا ان يكون ابوه الخليفة وهم بأن يسألها عن ذلك فنجعل وأمسك وظل ساكتا وهي تنتظر سؤاله فلما استبطناته قالت : «لماذا لا تتم اسئلتك يا ضرغام؟»
- قال : «يخجلني ان اقول ما في خاطري» •
- قالت : «لا تخجل ان تسأل اذا كان ابوك خليفة فانه كذلك !»
- فأجفل وقال : «ابي خليفة ؟ كيف يسكن ذلك • ان المعتصم يضارعني سنا فلا يمكن ان يكون هو المراد ، وكذلك المأمون والأمين» •
- قالت : «ان هؤلاء اخوتك» •
- فقال وقد اخذته الدهشة : «فأنا اذن ابن الرشيد؟!»
- قالت : «نعم يا بني وهذه اول مرة نطقت بهذه الحقيقة بعد مرور الاعوام الطويلة» •
- قال : «أليس في الدنيا احد سواك يعرفها؟» • قالت : «كلا» •
- قال : «وما معنى كتمانها كل هذا الزمن والناس يفاخرون بالانتماء الى أتباع الخلفاء فكيف بالخلفاء انفسهم؟»
- قالت : «لذلك سبب معقول هو اني كنت من جوارى الرشيد في

قصره ببغداد وكان يحبني حتى كانت الليلة التي فتك فيها بأخته العباسية
وبجعفر البرمكي وابنيهما الحسن والحسين . وقد بالغ في التكتّم حتى
قتل كل من استخدمه لذلك الغرض فلم يكن احد من اهل القصر يجسر
على الخروج من حجرته مع انهم مطلعون على كل شيء من بعيد ، الا
انا فقد حدثتني نفسي لصغر سني يومئذ ان اخرج لأرى وأسمع ، فوقفت
موقفا ظننت نفسي مختبئة فيه لا يراني احد ، فسمعت حديث الرشيد
رحمه الله مع زوجته زبيدة بشأن أخته وأشياء اخرى . وفيما انا فسي
ذلك رأيت زبيدة نفسها مقبلة نحوي وهي تقول : (يا هرون ان جواريك
يسمعن حديثنا !) . فوق العرب في قلبي وأيقنت اني مقتولة لا محالة
فلم تعد ركبتي تحملايني من الرعشة ثم سمعت الرشيد يرعد بصوته من
الغضب ويقول : (من هذا ؟) وأمر مسرورا فحملني اليه فلما رآني أظهر
الاسف علي لان قتلي لا مناص منه . فلما رأى دموعي رفق بي ولكنه
كان شديدا فأطرق لحظة ثم قال : (يا حبيبة - وهذا كان اسمي عنده -
قد سعت الى حتفك بظلفك) .

«فتراميت عند قدميه وبكيت وغسلت رجليه بدموعي ، وكنت يومئذ
حاملا فقلت : (اشفق على صباي بل اشفق على هذا الجنين) .
«فوجم وتراجع ثم قال : (أعفو عن حياتك . ولكنني لا أقدر ان اراك
ولا أسمع اسمك) . ونادى مسرورا فأتى فأمره ان يجهزني بالمال ويدبر
نقلي الى البلد الذي أختاره ، فاخترت فرغانة لاني كنت اعرفها من قبل .
«وصرفني فخرجت مع مسرور في الليل الدامس الى خارج بغداد وقد
أعد لي الاحمال وأوصى المكاربي بي ودفع الي مالا وجواهر تكفيني
أعواما وودعني . فقضيت في الطريق مدة طويلة ولدتك في اثائها .
وأخيرا وصلت الى فرغانة وعرفت المرزبان وعائلته ، وطلبني اناس للزواج
فأبيت وانقطعت الى تربيتك وأنا كاتمة سرك ، وأنت تطلب المجيء الى

العراق ، وأنا أخالفك • ولما مات الرشيد ، وماتت زبيدة هان علي
المجني ورضيت بسفرك الى العراق •
فلما فرغت آفتاب من كلامها قال لها ضرغام : «فأنا اذن أخو
المعتصم ؟»

قالت : «نعم انك اخوه فاذا علم هو بذلك زادك تقريبا» •
فهز رأسه هزة الانكار وقال : «كلا ، ان هذا السر يجب ان يبقى
مكتوما بيننا لئلا يطلع عليه المعتصم فتتحول محبته الي حذر وكيد •
يكفيني اني عرفت حقيقة نسبي • ولا ارى فائدة من كشفه لان الناس
لا يصدقوننا • ونحمد الله اننا نلنا من النعم والرتب فوق ما كنا نتمناه» •